

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190940

UNIVERSAL
LIBRARY

فلسفة اللغة العربية وتطورها

وهي مقالات أنشأها الأستاذ

جبر ضومط في تاريخ اللغة العربية ونهضة الاقوام

المتكلمين بها وفلسفة نشوئها وتطورها ووسائل

ترقيتها — ونشرها في مجلتي المقطف والهلل

بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٢٨

تأليف

جبر ضومط

أستاذ اللغة العربية وآدابها سابقاً في

جامعة بيروت الاميركانية

طبع بمطبع المقطف والمقطم بمصر

سنة ١٩٢٩

فلسفة اللغة العربية وتطورها

ولهى مقالات أنشأها الأستاذ

جبر ضومط في تاريخ اللغة العربية ونهضة الاقوام
المتكلمين بها وفلسفة نشوتها وتطورها ووسائل
ترقيتها — ونشرها في مجلتي المقطف والهلال

من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٩٢٨

مؤلفه

جبر ضومط

أستاذ اللغة العربية وأدائها سابقا في

جامعة بيروت الاميركائية

طبع بمطبع المقطف والنشام في بيروت

سنة ١٩٢٩

الاستاذ جبر صومط

ومباحثه في نشوء اللغة العربية

مقدمة المرحوم الدكتور صروف

من المخطوطات التي اهداها قبل وفاته لاني في تويل الاستاذ الذهبي

للشيخ أوقات يد فيها انفضاء الاجل ويقول مع لبيد
واحد سئمت من الحياة وطلوها . . . وقال هذا الناس كيف لبيد
وهي أوقات الضعف وأوقات المرض وأوقات فخر الاخلاء والاقارب . وله أوقات
غبطة وحبور أوقات يرى فيها تحقيق آماني الشباب أو يحني ثمر ما غرسه زمن الكهولة
أو سمع عن فوز رفاقه وأصدقائه وتعبه
الذي كان يراى على أبي أثره . . . ولاني الضعف في سمعي حتى حسرت
أنسب المجتهد . . . وحسرت في هذه الأيام الماضية حتى قطع الرجا . . . وفي وفدت والدي
وأخوتي وثلاثاً من أخواني . . . تلاميذ من تلاميذي وأصدقائي
والتي هذه المداوى تنابها . . . مع كثرة سبب بها ومنها ما دعاني الى كتابة هذه
السطور وهو أن أمتد تلاميذي في الصغر ورعاي في الكبر بلغ بسعيه وجده درجة
أعبد لأن يحتفل به عارفو فضله في بلاده وفي سائر البلدان حيث اشهر تلاميذه
وفرت كنيته وعرفت آراؤه العلمية

صديقي الاستاذ جبر صومط بل الفتي جبر صومط رأيته منذ ثمان وخمسين سنة .
ذهبت الى برج صافتا أو صافيتا البرج في صيف سنة ١٨٦٩ وأقت فيها أكثر من شهر
ولا تزال صورته في ذاكرتي لأنها مازة برج شاهق مبني بحجارة جافية لم أر أكبر
منها الا الحجارة الكبرى في قلعة بعلبك . ارتفاع هذا البرج أكثر من ثلاثين متراً أو
نحو ارتفاع برج الساعة في هذه الجامعة وطوله أكثر من ثلاثين متراً وعرضه نحو
عشرين وثلاثين جدراناً . وهنا المزة الكبرى — ثلاثة أمتار الى أربعة حتى أن
السلم الذي يصعد به الى طابقه الثاني والى طابقه قائم في باطن جدار من جدران
وحول هذا البرج مبان شرفة حجارتها كثيرة منحوتة باقية من قلعة قديمة بها بناها
الصليبيون اما البرج فاعمله بني في عهد الفينيقيين او الرومان

بناءً مثل هذا ترسم صورته في الذهن ولا سيما في ذهن الشاب قبلما تكثر مشاغل الحياة وترسخ معه صور كل ما حوله أو اتصل به . وقد مرَّ عليَّ الآن ثمان وخمسون سنة ولا ازال اذكر صافيتها وما رأيتها بها أو الذين لقيتهم من سكانها . أفلا يؤثر منظر البرج العالي في نفس ولد من انشاء تلك القرية براه كل يوم من حين أميطة عند التمام ويحمله على طاب انغالي

كانت اقامتي في غرفة عليّ في ممال لالرج والى جانبها مدرسة صغيرة لاولاد القرية انشأها المرسلون الالمانيون يعلم فيها رجل من اهل السقي وبين تلامذته ولد لم انس صورته لانه انتقل بعد ذلك الى مدرسة بعبه فكنت اراه فيها ثم صار تلميذاً لي في هذه الجامعة وخلفني في تدريس العربية وآدابها . ولم يقنع بالخطط التي سار عليها أسلافه بل اختط خطة مبتكرة في الدرس والتدريس

هذه مقدمة طويلة اطول من كل مقدمة كتبها . ولكن لا تخافوا ان آتي بعدها بكلام مسهب لانني اعلم ان الوقت محدود ولو كان الموضوع حقيقاً بالاسباب الاستاذ جبر ضومط لو اكنى بنظم الاشعار كما كان ينظم بعيد رحلته الى السودان او بتعليم الصرف والنحو والبيان كما يعلمها كثيرون غيره لما استحق في رأيي ان يحتفل به هذا الاحتفال ولو قضى في التعليم ستين سنة لاخسين لما وجدت سبيلاً لالقاء هذه الكلمة عند . ولكنني عملت ما هو اهم من ذلك كثيراً بحث في نشوء اللغة العربية بحثاً احسبه مبكراً عندنا ومهداً لعمل اعداه من ائمة الاعمال

المشتغلون بالعلم كثيرون واسكن فلهم من يتي اراً يذكر به . فالذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ الف واثني سنة الى الآن يعدون بالمئات او بالالوف ولكن قلما نذكر منهم غير سيديويه والمرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب وما منهم من بحث عن اصل العربية وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها . فاننا صرنا نعلم في هذا العصر ان لغات البشر التي تعد بالالوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قليلة الكلمات بل الاصوات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعبت شعباً كثيرة ودخل المزج والتحت في كلماتها حتى بلغت ما بامتد وهذا شأن العربية ولكنني لا اعلم ان احداً اطلق هذا البحث على العربية من ابائها قبل الاستاذ جبر ضومط

الذين تعلموا الصرف والنحو وشاءوا لا يحصى عددهم ولكنني لم ارَ لاحد بحثاً

في كيف بني الفعل جلس على فتح آخره ولا كيف تدخل عليه الهمزة فيصير متعدياً بعدما كان لازماً ولا من اين انت التاء التي تاتي الفل الماضي فتدل على المتكلم اذا كانت مضمومة وعلى المخاطب اذا كانت مفتوحة وعلى المخاطبة اذا كانت مكسورة . ومثل ذلك كل تصارييف الافعال بخردة ومربدة . ماردة او ماحمة بالضمائر فانها كلها بلغت صورها المعروفة بعد ان دخلها المزج والنجحت مدة قرون لا تحصى . والاستاذ ضومط تمكن من البحث في هذا الموضوع وكشف السار عن غوامضه لمعرفة العبرانية والسريانية شقيقتي العربية ولو عرف الطيرة والحاشية لزداد توسعاً في البحث وكشفاً للغوامض فهو مثل ورز ولسل في علم الحية اوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك ودارون في نشوء الاحياء وتولد بمضها من بعض ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء

اليسم بضعة أمثلة من كتابه الحياطر في اللغة الذي نشره منذ اثنتين وأربعين سنة فانه وجد أولاً بالاستقراء أن الكلمات المتشابهة في تنارج بعض حروفها تشابه في معانيها كجذع وجدع وخدم وجذم وكسح وحبط . وكهجا وهجم وكخم وكتم وكخر وكتر وختل وكفط وكظف . واما في أن ذلك كان سبباً لتولد كلمات مختلفة لفظاً ومشاركة معنى . ووجد أن وزن المطاوعة (انفعال) مركب من لفظة أنا ضمير المتكلم والفعل المجرد فقولنا انغمست مساو لقولنا أنا غمست أو غمست نفسي . ووزن اتفعل أصله اتفعل كما يلفظه المصريون وهو مركب من ات ومعناها ذات أو نفس وهي إتي في العبرانية وبت في السريانية وعليه ففعل المطاوعة مركب من الفعل المجرد وكلمة معناها النفس . اما وزن استفعل فقال انه مطاوع قياسي لوزن سفعل عند السريان ورجح أن السين منحوتة من فعل ممت يدل على الوجود المطلق ومن بفاياه ليس ولات وهما مؤلفتان من لا النافية والفعل المذكور للدلالة على نفي الحال أو الكون وعلى ذلك تكون استفعل مركبة من ثلاث كلمات وهي اس وات وفعل فتلاحمت ابحاؤها مع الايام فصارت استفعل ومن هذا الفييل تعليمه للضمائر فان ضمير المتكلم في العربية صورة واحدة وهو انا مفرداً ونحن جمعاً . وفي السريانية انا مفرداً ونحن جمعاً وفي العبرانية انا واناوخي مفرداً ونحن واناو نحن او اناو جمعاً وواضح من ذلك ان لفظة نحن العربية مركبة من نا و اناوخي العبرانية الحق آخرها بالنون للدلالة على الجمع

ثم يسن ان الضمائر المتصلة منحوطات من الضمائر المتفصلة فالتاء المضمومة من

أنوخي والمفتوحة من أنتَ والمكسورة من أنتِ والواو من همون أو همو والنون في ضربن من هنَّ ونا من نحنُ وهلم جراً

وكتاب الحواطر عن لغته نفع أكثر المبادئ، الأولية التي تمتش عليها اللغة في نشوئها. وهو بحث مبكر في العربية على ما أعلم. طرقتها أنا في السنة التي طرفه فيها صديقي الأستاذ جبر كما برى في الفصول التي أنشأها في المقتطف سنة ١٨٨٦ وموضوعها توارث اللغات ونحوها ولم أكن أعلم ما هو فاعل ولا هو يعلم ما أنا فاعل ولكني اطاعت أكثر الكلام على اللغات كلها ولم احص به العربية ولم أكن أعرف السريانية والعبرانية حتى استعين بهما على تعليل ما وقع في العربية ولم أر بعد ذلك بحثاً لاحد في هذا الموضوع كأن آية الإعجاب سالت عليه. إلا أن ما أنبته صديقي الأستاذ ضومط في كتابه الحواطر شديداً كما كشفه مندل في الورثة فإن مباحث هذا الراهب النمساوي التي نشرها سنة ١٨٩٦ طرحت في زوايا المنسيات مع أنه كشف بها أهم الحقائق البيولوجية إلى أن كشفت ثابته سنة ١٩٠٠ فهل يقوم من تلاميذ الأستاذ ضومط من يعود إلى هذا البحث ويذكره صانعاً من العربية والعبرانية والسريانية ومن الجبرية والحبشية والمقدونية واليونانية واللاتينية والفارسية فيميط الانعام عن تاريخ كل الكلمات التي في معاجمنا العربية. هذا ما ينظر منسجماً يا تلاميذه يا مردييه

قات في بدء كلامي بعد المقامة أن الأستاذ ضومط بحث في نشوء اللغة العربية بحثاً مبكراً ومهدداً إلى الأبد من انفع الاعمال فما هو العمل الذي أعد بحث الأستاذ ضومط هذا له

إذا كانت اللغة العربية قد نشأت كما تشاكل الاجسام الحية واعتورها التغيير والتبديل كما اثبت الاساذ ضومط فلا يمكن أن يمر ألف وأربعماية سنة تبقى فيها على حالها تماماً. والواقع انه عرض لما امران جبرهريان الاول انها تغيرت تغييراً كبيراً في السنة المتكلمين بها في مصر والشام والبراءة تونس والجزائر وبلاد العرب نفسها حتى لا يكاد ابن الشام يفهم حديث ابن تونس ولا يكاد ابن المغرب الاقصى يفهم كلام ابن العراق. الا ان هذا التباين يكاد يكون محسوراً في الكلام ولما يتناول الكتابة ويحتمل ان يزول أكثره بعد ما سهلت سبل الاتصال وانتشرت الجرائد والمجلات

والامر انما هو انهم انه دخل العربية كثير من لغات الاقوام الذين صارت العربية لغتهم او الذين نقلت العلوم من لغاتهم الى العربية. ولقد كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام لانه لا يحتمل ان يتصل العرب بسكان مصر والشام والعراق

وفارس كما كانوا متصلين ولا يدخل العربية كثير من اللغات المصرية واليونانية والسريانية والعبرانية والفارسية ولو خفي على جامعي العربية اصل كثير من كلماتها خسبها كلها من صميم العربية . وهذا بحث كثير الشؤون لا محل له الآن . ثم زاد الدخيل بعد الفتح ونقل العلوم من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ولولم يعلم جامعو كتب اللغة انه دخیل . هاكم قانون ابن سينا الذي ألفه في بداية القرن الخامس بعد الهجرة فقد عدت في الصفحة الاولى من جزء الاقرباذين مائة اسم من اسماء النباتات وسائر المواد الطبية فوجدت الدخيل منها لا يقل عن سبعين اسماً وقد ذكرها ابن سينا كلها كأنها اسماء مألوفاً في أيامه

القرن الثالث والرابع والخامس والسادس كانت من المرون الحافلة بالعلم والعلماء كما كانت حافلة بالشعراء والادباء . وكما كان العلماء من اطباء ورياضيين وفلكيين يرحبون بكل كلمة اجنبية تزيد غناء العربية غناء كان الادباء والشعراء لا يستنكفون من استعمال العرب ومنذ قام محمد علي عزيز مصر وعلم بعض ابنائها في اوربا وأمر بترجمة الكتب العلمية الى العربية كما فعل الخليفة المأمون في عصره دخل العربية كثير من الكلمات العلمية ثم اتسع نطاق الترجمة حتى شمل كل انواع العلوم الرياضية والطبيعية والحقوقية والسياسية وصار على المترجمين والمؤلفين ان يحذوا حذو الفارابي وابن المقفع وابن سينا وابن رشد فييقوا الكلمات العلمية على وضعها وهي تعد بالالوف وعشرات الالوف ومات الالوف فتغنى العربية بها وبسهل على المتعلمين تناولها او ان يفتشوا عن مرادف لها في العربية ويهملوا ما لا يجدون له مرادفاً وما تتعذر ترجمته . وقد ثبت من بحث الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر ان العربية كانت في كل عصورها الماضية قبلها كتب حية نامية . ويظهر بأقل بحث ان هذا النمو استمر الى الآن افيحسن بنا ان نفهم الآن في سبيله موجسين شراً مثلاً يدك مقام العربية لا ياسادي واخواني العربية قائمة بتصاريفها وتراكيبها لا بالاسماء التي تدخاها فقد دخلها الوف من الكلمات السريانية والعبرانية والمصرية واليونانية ولم ترددها الا غنى وستدخاها الوف اخرى ولا تزيدها الا غنى ولها اسوة بالفرنسوية والانكليزية والالمانية وكل اللغات المشهورة . والكلمات تتنازع البقاء مثل الاحياء ولا يمكن منها الا ما ينفع الناس فلا نكون عثرة في سبيله .

قوة العلم والعلماء

هي القوة التي ميزت الانسان عن الحيوان ورفعت منار المدنية والعمران هي القوة التي غنت لها القوات الطبيعية فلكت الانسان من مقاودها واطلعت على امرارها وغوامضها فاطهر منها ما كان مستوراً ونظم ما كان مبدداً منشوراً هي القوة التي تطل معها الى السموات البلى ونقب بها عن دفائن الارضين السفلى واستعان بها على حل ما اعضل من المشكلات فاهتدى الى معرفة ما كان في عداد المستحيلات وما لو ذكرت بعضه على بعض العامة لرميت بالجنون وتقولوا عليّ ما كان وما يكون

هي التي ذلت البحار فعلا الانسان متونها بجرا كبه وخاض عباها بسفن تجارته ودوارع حربه لا يبالي بها وان قامت مياهها لججاً عظماً وهبت هوابها هلاكاً وموتاً زواماً هي القوة التي جعلت الهواء مطية تكاد تكون ذلولاً بعد ما شمع بانفه عن ان يعطي القياد دهرأ طويلاً فعملت البالونات الى حيث قصر السحاب وصولاً

ولا يهولنكم ما ذكرته عن قوة العلم فما ان كان الايسيراً صغيراً وبرقشة على غير العارف يهول بها تمويلاً فللعلم قوة اخرى لا تدرك غايتها عظمة وجلالاً ولا يبلغ الواصفون من وصفها وان اطالوا مقالاً واوسعوا لها في ميادين الطروس مجالاً . قوة ازال عن العقل من براقع الجهل غشاوة بعد غشاوة وبذت من كئائب الاوهام كتيبة بعد كتيبة . فظهر الحق ودُحرت الاباطيل دحوراً

قوة غيرت العقل ومجاري تصوراته تغييراً وقضت ان يكون له من ميتة الجهل بعثة ونشوراً فبينت له من صواب الرأي وسداده ما اهتدى معه الى سبيل رشاده فتعمت القوة قوة العلم جعلت الانسان سيد المخلوقات الارضية والحاكم يرجع الى احكامه بين البرية ولكم كان الجهل يشنُّ من غارة شعواء تذهب بالمستضعفة من الناس فريسة للاقوياء ولكم كان يأتي بظلامه عمياء وبليّة دهاء وشنيعة شعاء تذبج معها الابناء وتضحى لها الامهات والاباء الى ان ذهب العلم بانار الجهل هذه ادراج الرياح ونادى مناديه حيّ على الفلاح فسنت التنظيمات والاحكام وعينت وظائف الامراء والاحكام ووضعت قواعد الفنون والصناعات ومناهج التجارة والمعاملات . هذا فضلاً عما توصل به اليه من معرفة نواميس الجاذبية العامة ونظامات الافلاك الخاصة . ومعرفة مقادير السيارات وما لها من الابعاد والمدات وما يحدثه بعضها في بعض من الاضطرابات وما هنالك من المبادرات والانقلابات

فكان مما ترتب على قوة هذه المعرفة العلمية ان مات القول بدلالات النجوم الوضعية ومات معها اعتقاد السعد والنحس فيها ونسبة ما كان ينسب اليها مما لا تصح نسبته بديها ومات ايضاً حوت القمر وتنين الشمس وآله الامم الاقدمين كجوبيتر ومارس ونبتون وغيرهم مما ذكر في اساطير الاولين ولله در من قال

ابن الرواية بل اين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً واحاديثاً ملفقة ليست بنبع اذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الايام بحفلة عنهن في صفر الاصفار او رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذهب
وصيروا الابرج الديا مرتبة ما كان منقلباً او غير منقلب
يقضون بالامر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب

واما تأثير قوة العلم في معرفة الكهربائية والمغناطيسية وقوانين الالف الكيماوية وشرائع النور والحرارة واستخدام البخار في الصناعات والتجارة وغيرها من السكك الحديدية والبواخر التجارية والحربية قمر يطول شرحه ويعجزنا وصفه . والحق اذا تأمل متأمل رأى من القوة ما محار له عقول الخاصة فضلا عن عقول العامة ويكاد يظنهم الكثيرون ضرباً من المعجزات . والمحكي عن كثيرين من امم الهند وغيرهم من القوم الهمج انهم يظنون في الآلات البخارية والكهربائية ارواحاً تدبر حركاتها وسكناتها وتفعل تلك الافعال الصادرة عنها ومثل هؤلاء فايس من قوة في الكون تستطيع اقتلاع هذه الاوهام من عقولهم غير قوة العلم فانها القوة التي تفعل ما لا تفعله الكتائب والفيالق وتسطو على ما لا تسطو عليه الرماح الخطية والمواضي المشرفية بل ما تستطيعه قوة العلم في استئصال شأفة مثل هذه الاوهام الفاسدة لمّا لا تستطيعه جنود الممالك العظيمة عن آخرها متفرقة كانت او مجمعة معاً

هذه بنادق الامم الغربية ذات الطلقات المتعددة ومدافعها الضخمة وجنودها المدربة وافرادها الطامعة في المكاسب الحريصة على توفير الارباح جميع هذه لم تستطع ولن تستطيع ان تغير مثقال ذرة من عقول امم افريقية والهند وما يدخلها من الاوهام والمعتقدات الفاسدة . وما لم تدخل قوة العلم قهدهم ما عندهم من اسوار الاوهام ومعاقل المعتقدات وحصون الجهل والخرافات فلا مطمع بازالتها من عقولهم ونفوسهم ما كرت الايام وتماقت السنون والاحقاب

ولقد ادرك هذه الحقيقة كثيرون من اهل الحمية واصحاب الغيرة على ترقية شأن

الانسانية فبعثوا اليهم بطلائع من قوات العلم وفي مأموهم ان تفعل الاقلام غير ما يفعله الحسام
ولسوف يتحقق لهم صحة ما ارتأوه مع الايام

واما العلماء وهم امراء النوع الانساني وقادته في سبيل الفلاح وهداته في معارج
المدنية والارتقاء فقيوتهم اعظم مما يظن واشد في اعتقادي مما تقدرونه لها ايها الكرام فانهم
الضعفاء الاقوياء والسوقة الامراء هم القوم الذين لا يعقب عليهم معقب الاممهم ولا يُجرح
آراءهم واقوالهم الا العلماء امثالهم وهم الذين يرجع الى آرائهم في الحادثات المشكلات ويعتمد
على اقوالهم في الغامضات والمغيبات هم الذين اذا تناقل الناس قول حكمة مثلاً فانما يتناقلونه
عنهم . وهذا شأنهم مذ قام الانسان الى الآن وفي كل طور من اطوار المدنية والعمران
واليكم التاريخ فانه شاهد عدل يشهد بما كان وتنطبق شهادته على ما في العيان فما اثارت
الامم الفائرة حرباً ولا شنت غارة الا بعد ان اعتمدت مشورة رجال العلم وهم اهل الدين في
تلك الايام والمقبول على الامراء والاحكام فان شاء واغضبت الآلهة على البشر وان
شاء وارضيت

واما فلاسفتهم العظام الذين سارت بهم الامثال كسقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم
من كبار العلماء فقيوتهم اعظم من ان يقدرها مقدر أو يبالغ فيها مبالغ فانها حمت معاصريهم
ومن جاء بعدهم من اجيالهم ان حسبوهم في مصاف الآلهة واقاموا لهم في هياكلهم من
التماثيل ما كانوا يقيمون مثله لعبوداتهم وختموا على علومهم من بعدهم فكانت اقوالهم وآراؤهم
هي المتابع فيها والمعمل عليها وما زالت كذلك الى الان يتناقلها الناس فيما بينهم فتغير
من افكارهم واقوالهم ومجاري تصوراتهم وهم لا يشعرون وعلى الحقيقة انها كانت بمثابة
حياة تحيا بها عقول العقلاء وقوة يعتمد عليها العظماء والامراء ويتفقه بها الاغنياء والفقراء
وما عقب عليهم في مدركاتهم العلمية والادبية فنسخ من بعضها وغير البعض الآخر
الا من جاء بعدهم من جهابذة العلماء واكابر الفلاسفة والحكماء . فاذا ما زالت قوة العلماء
هي السائدة على كل القوات والمأخوذ بها بين اهل المراتب والعلينات بل ما زالت اسماؤهم
حية حتى الآن وما زلنا نصف الوزراء والعظماء وجلة الملوك والامراء بنعوت مأخوذة
من تلك الاسماء ولله در من قال

مضى ذكر الملوك بكل عصر وذكر السوق العلماء باق

فلا تظن يا شيشرون الرومان انك زلت من عالم الوجود فقد اقام لك ابنا جلدتك
من بعد مماتك تماثلاً جعلوه بين تماثيل آلهتهم ودعوك رب البلاغة والخطابة وما دار لسان
احدهم ببليلغ عبارة من بعدك الا استمدها منك ولا تكلف متكلف حجة او برهاناً الا

نقلا عنك وقد كنت وما زلت امام شيوخهم ومهذب شبانهم
 وأنت يا كنفوشيوس فيلسوف الصين مر عليك نيف والما سنة في التراب واختلطت
 ذرات جسمك مع ذرات تربة الصين فلم تعد تميز عنها شيئاً ولو نشرت الآن لرأيت انك
 ما زلت في عالم الحياة وان قوتك ما زالت تتعاضد كلما مرت عليك الايام والسنون الى ان
 اصبحت ونيف واربعمئة مليون من الخلائق يقولون بقولك ويأخذون بما وضعت من
 آدابك وسننك ومن فيهم من الامراء والعظماء والقضاة والحكام واكابر الجند واعيان
 الامة جميع هؤلاء حتى سلطانهم الاعظم ابن السماء يوقدون الشموع والبخور كل يوم امام
 تماثيلك ويتوجهون اليك بنوع من الصلاة والعبادة يسألون آلهتهم ان تقدروا على فهم
 حكمتك والقضاء بموجب سننك واذا ولد لهم مولود تقربوا به اليك يعلمونه من اعظامك
 واجلالك ويأمنونه من مبادئ علمك وحكمتك حتى كائن بالامة الصينية تحيا بك وتنفس
 بانفاس آدابك . وانت أيها الفخر الرازي يا ابن خطيب الري لو نشرت من ضريحك
 لرأيت كتبك العقلية والنقاية وشروحك التفسيرية تتناقل بين جلة القوم وأفاضلهم . وكذلك
 انت يا صاحب الاحياء ما زلت حياً تفعل عظمتك وآرؤك في النفوس والعقول
 وأنت يا صاحب الكشف والبيان ما زال بيانك عالياً على كل بيان وما زلت اماماً
 للبلغاء في أساس بلاغتك ونايفة فيما اوتيته من سحر بلاغتك ومعجب فصاحتك . وما
 قدمت خطيب الرومان وحكم الصين عليك وعلى من ذكرت من ابناء قومك الفضلاء الا
 نقدتها زماناً ولايين لكم ايضاً أيها السادة ان قوة العلماء هي على ما رأيتم حتى بين قوم
 لا كتاب لهم . او بعد هذا ينكر منكر قوة العلم والعلماء ام بتجاسر متجاسر ان يضع لها
 حداً أو يمتثلها بقوة اخرى غيرها فإين منها قوة الجاذبية العامة فان هذه تربط عالم الجوامد
 الميتة بعضها ببعض وتلك تربط عالم العقول المتصرفة بعالم الجماد وتسمى بهما في مراقي
 الكمال والعظمة

ومالي وللأعصر الحالية والامم العاربة فانما الاولى بي ان استلفت انظاركم لحجة الى
 الجليل الحاضر والى قوة العلم والعلماء فيه فانها أعني قوة السلام قوة تكاد تكون اعظم اثر
 مما سلفت في جميع القرون المسارة بجمعة معاً قوة لا تزال نراها تخضع من عالم الناصر
 والهيولى وتغير من مظاهر العمران الخارجي بما يوجب ارتقاء شأنه وعظمة آثاره وراحة
 سكانه وكذلك قوة العلماء فانها لاتنفك تؤثر في عقول الناس وآدابهم وافكارهم وتصوراتهم
 وترفع أفكارهم عن الخسائس والسفاسف الى ما هو اعلى واسمى وتصوراتهم عن البسائط
 الى ما هو اجل وارقي الى تصوراتها أيها الجلال والعظمة ورواء الكالات الانسانية

واني لموقن أنها السادة انكم لا تشكون في عظمة قوة العلماء ولا في افادة العلم للعمران البشري عموماً على اني ارى ان هذا ليس موقف الاعمية وانما موقف الاعمية الحقة في ما هي المعارف التي توجب لصاحبها شيئاً ومكانة في العمران حينما كان من غير تحلف في أثرها اصلاً وهنا استأذنكم في بسط الكلام شيئاً في هذا الشأن فأقول ان من المعارف ما تهم الحاجة اليها في ذاتها اما لانها وسيلة لنقل القوة العالمية او لمعرفة كيفية استخدامها والقدر اللازم معها ونوعه واما لتوقف المعاملات بين الافراد عليها . ومنها ما هي خاصة وليس لنا بها حاجة الان

أما المعارف العامة الحاجة اليها فاذكر منها ثلاثة انواع وهي اللغة أولاً ومعرفة اخلاق الناس ومشاربهم ثانياً ومعرفة نظمات المملكة وقوانينها التي تجري بتقضاها جميع اصناف المعاملات ثالثاً فمن جمع في شخصه هذه المعارف الثلاث فقد حصل من القوة ما يضمن له بين اقرانه من المكانة عالياً ومن المرتبة خطيرها وجليها

اما اللغة فلأنها ترجمان الافكار بين المتكلمين والموصل الذي تنقل عليه القوة الفكرية الى اذهان السامعين بل هي مرآة المتكلم ترى فيها افكاره واخلاقه وحسن آدابه ومبلغ تهذيبه . ولا أدل على خطر المرء من لسانه فاذا تكلم انزله السامعون في المنزلة التي يستحقها فيضعون منه أو يرفعون على حسب ما يسمعون واللغة في ذاتها خلاصة تجويز بذي اللبنة عن هواء . ولحسن البيان موقع في النفوس ما من موقع وراءه ولنفقات البليغ اسحر في الابواب من نفقات الراقي وألعب بالاعطاف من حمى الساقى وربذي بلاغة يذهل السامعين عن انفسهم ويشغلهم عن اخذ انفسهم فيتنغيون عن الوجود بما ينفته عليهم من نفقات بلاغته ويدبر عليهم من مسكر بيانه ورقيق عبارته

ولا ارى أولى بحسن البيان وقوة البلاغة من اعيان القوم ونبلاهم واصحاب الوجاهة وأغنيائهم فانهم لو اضافوا هذه على ما خصهم به المولى لبلغوا مبلغاً لا يناله المتناول ويقصر عن ادراك المتطاوّل والعجب من امثالهم اني يملون اللغة ويضربون عن قوة البلاغة وحسن البيان زينتهم اذا ارادوا تزيئاً وكلمهم اذا ارادوا كلالاً بل هو منشأ تطولهم على الناس وعنوان فضلهم بين الجلاس ولا غرابة معه اذا غالى الناس في الاعجاب بهم على ما غالى الشاعر فيمن كان من قبلهم حيث يقول

معسول اطراف الحديث كأنما يسقى المسامع مسكراً او سكرّاً
اني لأقسم لو تجسّد لفظه أنفت نحرور الغانيات الجوهر

وأما معرفة اخلاق الناس ومشاربهم فقوة ما بعدها من قوة فان من عرف اخلاق

شخص ومشار به فقد ملك قياده واصبح يديره كيف شاء ويحمّله على ماشاء فيسرّه ويسوءه^١ ويفنيه ويفقره ويخدمه ولا ارى اجهل من رجل يطلب السيادة في قوم وهو لا يعرف شيئاً من طباعهم ولا من اخلاقهم ومشاربهم ولا اجهل كذلك ممن يتصدى لحل الكافة على امر او لتغييرهم عنه وهو لا يعلم ما الذي يدعو الى اقبالهم ولا ما يوجب نفورهم والامر الاخير هو معرفة النُظم والتوانين التي يجرى بمقتضاها التعامل بين افراد الناس ويمين لكل حموقه وتفرض عليه واجباته ولا يخطر لي هنا ايضاً الا مزيد الاختصار ولذلك فيكفيني الاماع الى ان هذه النظمات والقوانين اما يصونها الملك والسلطان والامة اجمعاء ولهذا كانت قوتها قوة هؤلاء اجمعين ومن عرفها واتقن علمها فقد جعل على جانبه قوة المملكة بأسرها من علمائها وقضاها واصحاب الامر والنهي فيها الى سائر من سواهم من اهل المراتب والطبقات* ومن كان على جانبه مثل هذه القوة فاحر به ان يكون ذا شأن ومكانة بين اقرانه ما بعدها من شأن ولا مكانة

ثم إن من جملة النظمات والقوانين ما وضع لخير العموم منظوراً معه الى ترقية شؤونهم وتحسين احوالهم في الحال والمستقبل معاً ولا يخفى ان هذه النظمات اما وضعت بعد التحري والنظر وطول الاختبار وتوكل الى من يقيمون بمناصبها فمن البين اذن ان اصحاب هذه المناصب هم ذوو قوة ووجاهة لتوقف النفع العام عليهم على ان قوتهم اما تقوم بمعرفة تلك المسنونات فاذا جهلوا فلا يفيد وجودهم في مناصبها المخصوصة شيئاً وعندي بل عند جميعكم ان الذين يطلبون الوجاهة والكرامة بالتصدي لهذه المناصب المهمة فعليهم ان يطلبوا العلم بالنظمات الموضوعات ويتفقهوا في معرفتها والغاية من وضعها واسباب ذلك جميعه فانّ لهم بذلك ما يرغبونه ويتنافسون في تحصيله من القوة وتوابعها من الاكرام والتعجلة والا كانوا خُشُباً مسندةً تأنف منهم مرا كزهم وتستغيث تطلب ابعادهم عنها لعدم كفايتهم بقي علوم اخرى غير هذه على ان تلك العلوم لا تعم الحاجة اليها ولا يترتب نفعها المادي لاهلها اما نفعها في ترقية شأن العالم عموماً وهي متروكة لاربابها من اهل العلم في كل عصر ممن لا تهمهم المناصب والرتب ولا يخفون بالقوة الظاهرة من الاموال والمقتنيات يصرفون انظارهم الى موضوع مخصوص ولا يزالون في التنقيب عنه الى ان يبلغوا فيه مبلغ الطاقة الممكنة لهم في جيلهم وهؤلاء قد يظن لهم العالم في حياتهم فيوفيههم حقوقهم وقد لا ينظن لذلك حتى بعد مماتهم فيذكرون حينئذ بما عملوا وببقي تأثيرهم في الكون واهله على ممر الايام الى ما شاء الله

[ثم التفت الى الذين اتوا دروسهم المدرسية وخطبهم قائلاً] اتقدم اليكم الاتخافوا

ان يحبط سعيكم في طلب العلم ولا يداخلكم شك في انكم ستكونون في مقدمة رجال العمران حينما كنتم وذلك اذا اعتمدتم على قوة العلم والمعرفة ولا سيما فيما تعم اليه الحاجة بين ابناء جلدتكم فوجهوا انتباهكم لتحصلوا على كل ما يمكنكم تحصيله من حسن البيان والبلاغة فان ذلك وسيلة للتفاهم وواسطة لنقل قوة العلم التي فيكم الى من يجاوركم والا ذهبت ضياعاً لان القوة اذا لم يكن لها من موصل ينقلها لم يكن لها من اثر محسوس كما لا يخفى على علمكم

وكذلك عليكم بمعرفة اخلاق الناس وطباعهم ومشاربهم ودرجات عقولهم وامياهم الالدية فانكم بذلك تعرفون نوع القوة التي ينبغي ان تستخدموها في سبيل منفعتهم وترقية شؤونهم وتحملونهم على اعتباركم والاتصاح بنصائحكم

واهم من هذه جميعها ان تتفقهوا ولا سيما غير الاطباء منكم بدرس نظمات دولتنا العالية ومسئولياتها المبنية على الحكمة والعدالة والمقصود منها صلاح حال الجمهور وفلاح احوالهم فاذا فعلتم ذلك لم يجسر متجاسر ان يفتات عليكم في حقوقكم ولا ان يلبس عليكم في واجباتكم فترتعون آمنين مطمئنين في ظل سلطاننا الاعظم



ترتيب الفعل ومتعلقاته

لا بد في الجملة الفعلية من ذكر الفعل قبل الفاعل مطلقاً وأما ما سواه من بقية المتعلقات فالأصل فيها أن تتأخر عن الفعل إلا أنها بحسب الصناعة النحوية لا يمتنع بينها وبين الفعل ترتيب مخصوص فلذلك أن تقدم ما شئت منها على الفعل أو تؤخره على ما تراه مناسباً بشرط أن تحافظ على منع الالتباس وتجنب التعقيد . أما الالتباس فلا يسوغ بوجه من الوجوه لمخالفته الغاية من وضع اللغة وأما التعقيد والمراد به كل ما أوجب توقفاً في فهم المعنى المراد أو أوجب للذهن تمهياً يمكن تجنبه فل أو كثير فلا تؤذن به البلاغة والطبع أيضاً يقضي بتجنبه ما أمكن

وهذان الشرطان أعني منع الالتباس وتجنب التعقيد (أو توخي سهولة الفهم) لا يمكن حصرهما في ضوابط معينة أعني يرجع في ذلك إلى مقامات الكلام وإلى نظر الكاتب وخصوصية في فطرته من جهة وإلى معرفة القواعد والتراكيب النحوية المتعارفة والمتفق عليها من جهة أخرى . وأرى أن الإطالة في ما يوجبها أو ينفىها ضرب من التكلف لا حاجة بنا إليه وخير من ذلك أن نذكر بعض الملاحظات في شأن ترتيب الفعل ومتعلقاته وهي لا تخلو من فائدة

(١) قدم الزمان وما يتعلق به على الفعل في كل جملة يبادر فيها الذهن لداع من الدواعي إلى تعيين الزمان كقولك مثلاً « يوم الأربعاء الواقع في ١٠ تموز الساعة ٨ ب.ظ. تحتفل المدرسة الكلية السورية الأنجيلية احتفالها السنوي الخ » وسببه أنه مع ذكر الفعل الذي يدعو مقتضى الحال إلى تعيين زمانه كثيراً ما يبادر الذهن إلى تعيين ذلك الزمان فإن أصاب في التعيين وهو القليل النادر اقتضى ذلك إحصار الزمان في الذهن مرتين مرة قبل ذكر الزمان في الجملة ومرة بعده وهذا أسراف . وإن أخطأ كان في ذلك مشقة على العقل في إصلاح خطأه والرجوع إلى الصواب وهو من الأسراف أيضاً بخلاف ما إذا ذكر الزمان أولاً فإنه لا يكون من العقل على الغالب إلا أنه يتبهاً لا تتظار الفعل حتى إذا ذكر أدركه من غير تكلف لإحضاره أكثر من مرة أو لإصلاح ما أورثه التسرع

(٢) قدم المستفهم عنه مطلقاً كقولك « ماذا فعلت » و « متى أتيت » وهو معلوم

(٣) قدم ما أردت تعيينه أو قصره أو تخصيصه إذا كان مقتضى الحال يدعو إلى

الاختصار أو يؤذن به فإن مجرد التقديم دليل على ما أردت عند البلغاء من غير استئانة

بلفظ موضوع له (كلفظة لا غير او العطف بلا الخ) مثال ذلك قولك « ماء شربت »
تعني « شربت ماء لا خيراً » وقول العائل

بكم قريش كفينا كل معضلة وأمّ نهج الهدى من كان ضالّـيلا
اي بكم لا بغيركم او دون من سواكم كما لا يخفى . حكي ان بعضهم شتم صاحبه شتما قبيحاً
فاعرض المشتوم عن جوابه فقال الشاتم اياك اعني فاجاب المشتوم وعنك اعرض . وكل
ذلك مما تقتضي به بديهية الطبع فضلاً عن حسن الذوق

(٤) اخّر ذكر العلة او سبب الفعل عن الفعل لان الفعل لا يسأل عن سبب الفعل
الا بعد وقوعه ولذلك كان ذكر سبب الفعل قبله مما يتأذى منه العقل لما فيه من المخالفة
لمقتضى الترتيب الطبيعي الا لغرض كإرادة القصر او التعيين على ما مر وكان يكون السبب
واقفاً معلوماً من قبل والفعل (او معناه) المسبب عنه أشبه بالنتيجة له فيتقدم حينئذ ذكر
السبب وعليه ورد في سفر التكوين « لانك سمعت لقول امرأتك واكلت من الشجرة
التي اوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الارض بسببك بالتب تأكل منها كل ايام حياتك »
وكقول رئيس المحكمة مثلاً « بناء على ثبوت الدعوى المقدمة من فلان على فلان بشهادة
الشهود العدول نحكم على فلان بكذا الخ »

ومما يقرب من هذا قول بعضهم

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تسمى الا صغار والا كبار
لا يرجع الماضي اليّ ولا من الباقي غابر
ايقنت اني لا محالة حيث صار القوم صائر

فانه قدم على الفعل (ايقنت) ما اوجبه من الاسباب الواقعة المعلومة لترتب اليقين عليها
بما يشبه ترتب النتيجة على المقدمات

وقريب من هذا الباب ما اذا كان الفعل واقفاً معلوماً عند المخاطب والعقل متوجهاً
للسؤال عن سبب الفعل فانه في مثل هذه الحالة تقتضي البلاغة ذكر السبب اولاً لاسيما اذا
كان للفعل محبّب تبعة التنصل منها . حكي عن بروتس احد عظماء الرومان وصديق قيصر
الكبير انه بعد ان قتل قيصر قام فيهم خطيباً واليك مفاد بعض ما قاله ولا فرق هنا بالنسبة
الى غرضنا بين ان تكون نسبة هذه العبارات اليه حقاً او ادعاء قال « لان قيصر كان صديقي
فانا ابكي عليه وانبه ولانه كان ذا حظوة موفقاً فانا اهش لهذا واستعذبه ولانه كان بطلاً
شجاعاً فانا اجله واحترمه لكن لانه كان يتشوف الى الملك واذلال الرومانيين قت عليه وقتلته »

فانظر كيف قدم ذكر السبب في هذه الجمل الاربع اما في الثلاث الأول فلان السبب واقع معلوم من قبل واما في الرابعة فلان الفعل واقع معلوم دون السبب مع انصراف الحواطر الى معرفته وبوجه غاية المتكلم الى ان يتصل من تبعه الفعل بذكر السبب الذي يعوم به عذره لدى السامعين

(٥) قدم ما اردت على الفعل محافظة على الفاصلة في الكلام المستجوع ومحافظة على اوزن او العافية في الكلام المنظوم (على شرط عدم الالتباس وعدم التقييد) كآية « خذوه فغاثوه ثم الجحيم صأوه ثم في ساسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسأكوه » وكقوله وما كل بمعدور يبخل ولا كل على بخل يلام وكقوله ايضاً وجدتموهم نياماً في دمائكم كان قتلاكم اياهم فجعوا وكقول الآخر عن المرء لا تسال وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي وهذا كثير شائع

(٦) توحّ المطابقة بين الجمل المتعاطفة فقدم في المعطوف ما هو مقدم في المعطوف، عليه وأخر هنا ما هو مؤخر هناك كقولك : انه كان لا يؤمن بيوم الحشر العظيم ولا يحض على طعام البائس المسكين . فاذا قلت مثلاً انه كان بيوم الحشر العظيم لا يؤمن فقل وعلى طعام البائس المسكين لا يحض . وقد تكون المطابقة بين طرفي كلام واحد كقول الخوارزمي « ولكن الكبير من الكبير يصغر كما ان الصغير من الصغير يكبر » فاذا قلت ولكن الكبير يصغر من الكبير فقل كما ان الصغير يكبر من الصغير واعلم ان متعلقات معنى الفعل كالصفة والمصدر يجري عليها مع الصفة والمصدر ما يجري على متعلقات الفعل معه مما مر بك والليدب اذا احسن اعتباره في ما ذكرناه كفاه ذلك عن مزيد التطويل وكثرة الامثلة



الى ماذا نحن صائرون وكيف نتلافى امرنا (١)

ايها السادة والسيدات

علم الله اني استعفيت من المقام في هذا الموقف امامكم ولم أعف . ومنازل جهدي في ان اتخلى عنه لعمري ممن يتشوف البادي والحاضر للاصغاء اليه فلم ائل بغيري . حاولت ان اتخلى لرب الخطابة والمقدم فيها العلامة الدكتور وليم فاندريك ويا حبذا لو تم ما حاولته فانه لو قام مقامى هذا الفاضل على ما اشتيت وسعيت لكنتم تسمعون منه الا ان غير ما تسمعون وتمر بكم الساعات لا الدقائق وانتم صاغون وممجبون بل كنتم تودون لو يمد الليل بساعات من النهار وانتم باسمن ومبتهجون لكن صدق شاعرنا المشهور حيث يقول

ما كل ما يتعنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فقد جرت الرياح بسفينة هذا الواقع امامكم وهو مبلبل البال مضطرب الخواطر يخشى ان لا يحسن ادارة دقتها فلا تصل به الى حيث يريد وان هو احسن القصد وافرغ في سبيل ذلك غايه المستطاع ومنتهى الجهد . على اني اخلصت النصح في ان يكون غيري الخطيب ممن ترضونه ثم لما لم يسمع نصحي ولا سوعدت على اخلاصي بذلت غاية جهدي في ان آتي بأحسن ما يؤتى به من مثلي فان جاء في ما سأقول شيء يشفع في عنكم فذلك لفضل فيكم وجزاء لي على اخلاصي والا فاللوم على من اوقفوني هذا الموقف لا علي لاني نصحت اولا واجتهدت ثانياً وبذلت في هذا وذاك غاية ما في وسعي ولا تكلف نفس فوق ما في وسعها

موضوعي ايها السادة والسيدات « الى ماذا نحن صائرون » وهو موضوع بعيد المسافات متوعر المسالك فان انا اخذت في جميع طرقة واطقت به من جميع جهاته اعوزني الوقت وحملتكم من المشقات ما لا تطيقون وهب ان فسح لي في الوقت فمن اين لكم الصبر اذا سلكت بكم في جميع منعرجاته وطفقت معكم في جميع معاملته ومشاهده بل أرى الوقت لا يؤذن لي بالمقدمات التي تقدم عادة بين بدعي الموضوع ولا بالتمهيدات التي تمهد قبل ان تنفض مسالكه ويخاض في مخاوضه فاعذروني اذن في اقتضاب الكلام اقتضاباً وابتداء الغرض منه ابتداءً فاقول . انظروا الى جبالنا تعلموا الى اين نحن

صائرون . هذه جبال لبنان من اولها شمالا الى آخرها جنوباً جميع اعاليها جرداء قرعاء يسلك فيها السالك ساعات لا يرى شجرة ترمي ظلا او تمسك تربة فاذا وقمت عليها العين من بعيد لا تستقر على ما كان ينبغي ان تستقر عليه من انيق خضرة تسر العيون بمجمالها او غابات ادواح رائمة تتسع الصدور لاتساعها وتستشعر القلوب والنفوس اعظاماً اعظمها وهيبة واجلالاً لهيبتها وجلالها . نعم لو كانت كما ينبغي ان تكون لا على ما هي عليه الآن لكانت احسن بنام الله ماء وهواء وجمالاً وجلالاً وليكانت بلاد سويسرا على شهرتها ليست الا وصيفة من وصفاتها او امة من املتها . بل لو كانت كما ينبغي ان تكون لاعتدلت فوق اعتدالها فصولنا فكان صيفنا اعل هواء والطف حراً وأقل جفافاً واطرد شتاؤنا فكان اكثر مطراً وجاء البكر منه والمتأخر في اوانهما معتدلاً لا طوفاناً يحرف التربة جرفاً وينحرب السواحل تخريباً ولا رذاذاً غناً لا ينفع صدى ولا يروي لأرض غليلاً . وليس الحال في بقية جبال سورية وتلالها الا على ما وصفنا به جبال لبنان فان اكثرها جرداء قاحلة بعد ان كانت غاباً واحداً من ادواح الأشجار على اختلاف اجناسها وانواعها والمترتب على هذا فضلاً عما ذكرنا من اختلال فصولنا وقلة امطارنا وعدم اضطرادها شتاء وريماً ان قيدت اخشاب البناء وقل الوقود في البلاد واعوز وجدانه في الدن والقرى الكبيرة وارتفعت اسعار الفحم فيها

من ابن ما نراه من مستودعات الحطب في جوار ميناء الحسن امن غابات لبنان هوام من حراج صنين والشمره ؟ ولا يبعد بعد قليل ان نرى مثل هذه المستودعات او ما هو من بابها في دمشق وغيرها من مدن الداخلية كما نراها اليوم في اكثر مدن السواحل لو لم يكن الا هذه المستودعات لكان الامر لان ما فيها يردنا من بلاد عثمانية وفي سفن على الغالب عثمانية ولكن انظروا الى طرق لبنان المزدحمة بدواب النقل واخبروني ماذا تحمل هذه ؟ انها تحمل احجاراً سوداً مربعة الشكل يقال لها فحم حجري يردنا من انجلترا او فرنسا او باجكا وهي بلاد اجنبية وفي بواخر اجنبية ايضاً ليو قد في معامل بيروت ولبنان او ليو قد في مواقع حديدية اجنبية للدفع شتاء في كثير من بيوت بيروت وكثير من بيوت لبنان الكبيرة . بل هنالك اكثر مما ذكرنا . ادخلوا البيوت في بيروت وفي كثير غيرها من المدن والقرى الكبيرة وقشوا في مطابخها واخبرونا ما هو نوع وقود هذه المطابخ انكم قلما تدخلون بيتاً الا وترون وقوده البترول من باطوم او الولايات المتحدة . فلماذا استبدلتم يا اصحاب البيوت مواقع مطابخكم بطباخت البترول ؟ اليس لان جبال لبنان وسورية اصبحت قرعاء جرداء فاعوزنا الحطب والفحم

واضطربنا اضطراباً الى الطبخ والغسل على البترول . هذه نظرة نظرنا الى جباننا
فقولوا لي بعدها يا من ترون معي ما ارى «الى ماذا نحن صائرون؟» وأأسفاه وأأسفاه
اتنا صائرون الى الخراب والافلاس غداً او بعد غد

دعونا من هذه النظرة ايها السادة وانظروا نظرة اخرى الى حالة زراعتنا . سهولنا
ومزارعنا اكثرها بور والمزروع منها وهو ما قارب المدن والضياع لا يكاد يبلغ ربع
الارضين . واما ما بعد فتركنا للشوك والحسك . ويا ليت ان في البلاد ماشية من الغنم
والبقر وسائمة الحيل تتكاثر وتنمو على هذه الارض المتروكة بوراً فكنا اذن نستوفي شيئاً
من خصبها الطبيعي بصورة الماشية ولكن الحال ليست كذلك فان اغنامنا قليلة جداً وكذلك
بقية الماشية حتى تضطر اغلب مدتنا وضياعنا الكبيرة ان تجاب الهجوم من خارج سورية
وقد بلغ ثمن اقة اللحم في مدينتنا بيروت في غضون هذه السنة نحواً من خمسة عشر غرشاً
او يزيد وهو ثمن لو بلغت اقة اللحم في لندن او باريس في غمرة الشتاء لضج اهلها من
مجاوزه العتاد

انظروا الى انهارنا واعظمها العاصي شمالاً والاردن جنوباً والليطاني ما بينها فهذه
الانهر الكثيرة المياه السريعة المجرى متروكة همللاً لا تسقي ارضاً ولا تدير آلات الا
بعض مطاحن لطحن الفمح . ولو ان هذه الانهر ينفع ب مياهها على ما ينبغي لسكانت
البلاد على بعض ضفافها تفوق بلاد النيل خصباً وكثرة حاصلات ولسكانت كما يقال
تفيض ذهباً وفضة . واقد نقل عن استاذنا الدكتور جورج بوست انه قال اعطوني نهر
العاصي وواديه عن جانبيه والاردن وواديه وانا املا لكم سورية طعاماً وكسوة فلا
يجوع رجل ولا يعمرى ولد

ايها السادة سهولنا واسعة ومزارعنا خصيبة ومياهنا في بعض الجهات كثيرة ولكن
اين غلاتنا ؟ اين الحبوب التي كان ينبغي ان تكون مركومة امثال التلال في مزارعنا
وقرانا وتصدر في سفننا من نغورنا الى مدن اوربا وبنادرها . ام اين اقطاننا التي تملأ
بيوت زارعيها وتفيض قمعلاً المستودعات الكبيرة والمخازن الواسعة في مدننا فصدرها
تجارنا وترد علينا اثمانها ذهباً وهاجاً

واأسفاه ليس شيء من ذلك اما القطن فاطن الشبان ومن هم في اول سن الكهولة
من زراعنا لا يعرفونه الا محشواً في فراش احدهم او لحافه اما كيف يزرع ويجنى ويحلب
ويغزل ثم يحاك خاماً كان يضرب المثل بمئاته فذلك مما يسمعونه عن آبائهم او نفلانهم
المتقدمين سنّاً فيما بينهم

واما الحبوب فيسوءني ان اقول على مسمع منكم ان كثيراً من مخازن الحنطة في مدينتنا ملآن منها لكن من غير سهول حص وحماه والشام وهوران ولو ان الحنطة والدقيق بردان الينا من ايطاليا فمخط لهان الامر لان ايطاليا بلاد عثمانية وقبحها يستهلك في ثغر عثماني ولاكن سلوا العارفين فيخبروكم ان تجار الدقيق قد يستوردونه من روسيا وفرنسا بل من اميركا وانكلترا ومجدون له مشتريين في بيروت وغيرها من المدن البحرية. وان لساني ليتلعم في فمي حزناً واسناً اذا ذكرت لكم ما اراه وترويه انتم كل يوم من مركبات تحمل الحطب الى كثير من البيوت من افران تجلب دقيقها من فرنسا او روسيا واحياناً من ايطاليا وفي كل يوم يزيد عدد الموزع عليهم من هذه الافران عن سابقه

دعونا الان نلفت نظرنا عن حالتنا الزراعية الى حالتنا الصناعية . وبكل اسف اقول انها اشبه بحالتنا الزراعية ان لم اقل اسوأ منها عاقبة وامر ع بنا الى الخراب والافلاس مصيراً . ادخلوا الى بيوتنا في المدن والضياح وانظروا ماذا ترون ؟ ترون اثاثنا وادوات طعامنا وشرابنا وانواع زيتنا اغلبها ان لم اقل كلها هي من المصنوعات الاجنبية . ويا لاسف حتى الزيوت والمكبوسات من البصل والخيار واشباه ذلك ولا اقول المشروبات ترد الينا في قناني من البلاد الاجنبية ونفاخر بها لانها من صنع بلاد اجنبية . استوقفوا رجالنا وشبابنا برهة وانظروا في ملابسهم من اسفل القدم الى قمة الرأس فانكم ترون الاحذية من صناعة اجنبية والطرايش كذلك وما بينهما من القميص الذي يباشر الجلد الى المنديل في الحلب كل ذلك من بلاد اجنبية وصناعة اجنبية . ويا للعجب ان القمصان وربط الرقاب ليستخف بها اذا كانت مصنوعة بايدي صناعنا ويفاخر بها لمجرد انها مصنوعة في لندن او باريس واعجب من ذلك وانه لعجب يستوجب البكاء ان بعضاً من شبانتنا يباهون في انهم يخيطون اثوابهم في باريس او في لندن يرسلون اقدارهم الى الخاططة هناك فتأتيهم الاثواب طرداً في البوستة او مع احد الركاب لا يشعرون بسوء عاقبة ما يفعلون ولا يفتنون لفضيحة ما به يباهون

امور تضحك الجهال منها ويكي من عواقبها الحكيم

استوقفوا المكاري استوقفوا الفلاح استوقفوا الفاعل من الفعلة الاعتيادين وانظروا ماذا قد يلبس كل واحد من هؤلاء لا ترونه يلبس العباة ولا الخمام البلدي ولا الديما التي يحوكها صناع بلادنا وكان يلبسها من قبل انما ترونه يلبس الصاكو المصنوعة في المانيا والديما المنسوجة على انوال منسستر والجلد المدبوغ في مداين فرنسا واميركا يشبان بلادنا ويا رجالها لماذا لا تلبس الانسجة التي حاكمها صناعنا في بلادنا على

انوال دمشق وبירות وحص وحماء والزوق ياسيدات بلادنا لماذا لا تلبسن الحرائر المنسوجة على هذه الانوال وتباهين - كما تباهي الغريات - في منسوجات نسجتها صناعنا وخطتها الحاطة من بيننا - واي لا اخاطب الغنيات اللواتي يمكنهن ان ازواجهن الالوف من الجنبهات فهؤلاء مستثنيات في كل بلاد فضلا عن انهن يعددن على الاصابع وانما اخاطب من سواهن من الجمهور الاعظم

ايها السادة والسيدات اني لاستحي من نفسي واستر عيني خجلا اذا ذكرت لكم ان رئيس مدرستنا هذه واعضاء عمدتها رأوا سوء الحالة التي ذكرتها لكم وحببوا الينا غير مرة ان نلبس ملابس بلادنا ومنسوجات بلادنا ليفتدي بنا تلامذتنا في ذلك فيخفف عن عاتق آبائهم كثير من النفقات التي حنت ظهورهم فاعرضنا عن نصحتهم وأدرنا اليهم ظهورنا

دعونا بعد ننظر من موقف آخر يطل على حالتنا الادبية من جهة الاقتصاد في النفقات فابل هنالك ما يختلف في المغزى عما رأيناه. هؤلاء شبانتا يسرحون ويمرحون فانظروا اليهم عن آخرهم انظروا الى ابناء المدارس والمتاجر والصناعات المختلفة وقولوا لي ماذا ترون. انهم على اختلافهم في درجات الغنى وعلى اختلاف في المهنة التي يمتنعونها والمدرسة التي يتعلمون بها وعلى اختلافهم ايضا في الازواق والمواهب العملية والادبية يكادون يتفقون في المباهاة بالانفاق على غير طائل ويتنافسون في الاسراف والتبذير - الا من عصمهم الله وقليل ما هم يركبون العربات لا لانهم لا يستطيعون المشي ولا لان في ركوبها زيادة في المسرة ويركبون الدراجات لا لانهم يريدون المحافظة على الوقت والاسراع في قطع المسافات الطويلة لياشروا اشغالهم في اوقاتها باكرأ بل يركبون هذه او تلك لان في ركوبها مظهراً من مظاهر الاسراف وايماء الى ما يذهبون اليه باطناً ويبدو في عرض احاديثهم ظاهراً من انهم لا يحفلون بالمال ولا يقدرونه بقدر كان الرجولية واسفاه تتطلب الاسراف او الحكمة تأمر بتبذير المال. اسأل المستخدمين من هؤلاء الشبان ماذا اقيم في جيوبكم من رواتبكم الشهرية او السنوية رأس مال لكم في المستقبل بيجيوك انهم لم يبقوا شيئاً بل كثيرون منهم ابقوا عليهم ديناً يماطلون به او يتدافعه عنهم آبائهم . اسأل ابناء المدارس فيما انفقتم النفقات الكثيرة التي يئن آباؤكم من ثقلها واتم تاكون وتشربون من المدرسة وتنامون فيها فيسكتون او يتمتمون ويعتذرون بما لا محصل له

دعوا الشبان جانباً وانظروا الى البيوت الى الآباء والامهات واسألوا هؤلاء ماذا انفقوا في سنتهم الماضية ام اين حسابات تلك السنة ؟ ما اظن احداً من المسأولين يقدم

لك حساباً واكثرهم يتعلمون بقولهم وما فائدة مسك الحسابات اَيْقل ذلك من النفقات ام يزيد في الدخل ؟ وكأني ببعض المسأولين يتعاملون من هذا السؤال وينظرون ذات اليمين وذات الشمال وبعضهم ينظرون بطرف خفي الى زوجته وكلنا نعلم معنى هذه النظرة . وغاية ما نجد هنا ان الدخل والخرج متساويان ان لم يكن الثاني يزيد على الاول . فاذا سألت اولئك الذين تساوت نفقاتهم ودخلهم ماذا تؤملون في المستقبل قالوا لك الله كريم غداً يكبر اولادنا فينفقون علينا بدلما انفقنا عليهم في تعليمهم وتهذيبهم . واما اولئك الذين تزيد نفقاتهم على دخلهم فلا نعلم ايضاً جواباً نعتذر به عنهم . ايها السادة كأني اسمع احدكم يقول ما لك ولنا نحن الذين قيل فيهم بعرق جبينك تأكل خبزك فانه يكفي . انما لنا ان يزجوا العيش تزجية وحسبهم ان يتساوى دخلهم ونفقاتهم فاسأل اصحاب الاملاك الواسعة والمقتنيات الكثيرة ودعنا نحن وشأنا . صدقت ايها القائل اقله بحسب الظاهر فانسألكم يا اصحاب الاملاك والعارفات الذين يدتنا والغائبين عنا . ماذا وفرتم من دخلكم في السنة الماضية ؟ وبأسف احبب بلسان اغلب هؤلاء ان نفقاتهم تستغرق دخلهم بل كثيرون منهم تبقى عليهم بقية دين من سنة الى اخرى فلا تلبث هذه البقايا ان تتكاثر سنة بعد سنة وهم لا يشعرون وكثيرون منهم لا يتبهون من غفاتهم الا وقد اطاف بهم الافلاس واصبحوا في خطر من ان يفقدوا املاكهم ووجاهتهم معاً وليس التجار يدتنا خيراً بكثير من ذكرنا من الاغنياء من اصحاب الاملاك . هؤلاء الذين ينظر اليهم من بين جميع الطبقات ويتوقع منهم ان يحافظوا على رؤوس الاموال ويزيدوها من سنة الى اخرى ليمدوا بها البلاد ويزيدوا من مرافقها ومنافعها العامة — هؤلاء اذا فتشتم عن احوالهم ترون أنهم يكادون يماثلون بقية الطبقات في تعريض رؤوس الاموال التي يتوقف عليها نجاح البلاد للخسارة والضياع . فان كثيرين من تجارنا ومن هم بمنابتهم ممن جمعوا شيئاً من رأس مال قد استوفتهم البورصة فلقموها فضلات ما جمعوا فاطبقت عليها اشدادها وتركتهم صفر الايدي يمضون اصابعهم ندماً وحسرة

قولوا لي ماذا اصاب بيروت في هذه السنين الاخيرة ؟ اما نقص رأس مالها نقصاً فاحشاً ضعيف اركان الامنية التجارية ووقوف حركة الاعمال والتاجر . لو شئت لظلمت اعدد حتى الصباح مظاهر واحوالا لا تخفى على عاقل وكلها تشير الى سوء مصيرنا وتسرعنا افراداً واجمالاً البلاد والعباد الى شفا الافلاس والخراب . وقد بدأت الحال تتكشف عما ذكرنا فإين الاطباء والصيدالة واصحاب الشهادات العلمية الذين يخرجون من مدارسنا سنوياً ؟ اين الصناعات الكفء ؟ اين الفعلة الاقوياء ؟ اين اهل الفلاحة والزراعة

من يستغلون الاراضي ويقومون على استثمار خيراتها ؟ اين جميع هؤلاء ؟ وماذا اصاب اكثرهم ؟ انهم يهاجرون افواجاً افواجاً لم يتوقف تيار مهاجرتهم منذ اكثر من خمس وعشرين سنة الى الان حتى بلغ فلهم اطراف المعمور وما اظن يقل عددهؤلاء المهاجرين عن الاربعمئة الف نسمة ولا يزال الكثير ممن لم يهاجر يتشوف الى المهاجرة ويجعلها نصب عينيه

تأملوا ايها السادة واحكموا لانفسكم . بلاد واسعة من اخصب بلاد الله في المعمور ومن احسنها هواء وانقاها سماء وماء لا يزيد اهلها على المليونين ومع ذلك فقد هاجرها نحو من خمس سكانها وفي هؤلاء المهاجرين كثيرون من اطبائها وصيادلتها وكتبتهها ومعلميها وصناعها من اقوام بنية واحدهم قلباً وخاطرأ . فلماذا هذه المهاجرة وما هو سببها ؟ انه ليس لذلك من سبب الا قلة رأس المال في البلاد عموماً وعوز اولئك الذين هاجروا خصوصاً . نعم ان لو كان بين يدي الافراد او في البلاد رأس مال ما هجرها الطبيب والصيدلي ولا الكاتب ولا المعلم . ومثل ذلك يقال في الصانع والعامل والفلاح والزارع ومن سواهم من اهل الحرف المختلفة . وما معنى الافلاس الا ذهاب رأس المال

كيف تتدارك امرنا ونبلغ امانينا

متى ايها السادة تصبح اعالي لبنان غابات ادواح وتلال سوريا وهضابها كروماً ناضرة وحدائق غناء يانعة ؟ متى تصبح سهولنا الواسعة ملاء قد قطعاناً ومزارعنا الخصبية تفيض حنطة وخيراً ؟ متى تستخدم مياه انهارنا الكبيرة في ري ما على ضفافها الخصبية من التربة فتصبح أقطاقنا تكفي حاجتنا ونصدر منها الى البلاد الاجنبية جانباً كبيراً ايضاً ؟ بل متى يعمل لنا صناعنا وندفع اليهم اجور العمل لا الى غيرهم فيبقى مالنا في بلادنا لا يتسرب منها الى البلاد الاخرى اجرة لصناعها ويبقى صناعنا فارغي الايدي وعالة على البلاد لا يجدون عملاً يعملونه . متى نرى كل ذلك ؟ لا بد ان يمر علينا زمن طويل قبل ان نتحقق لنا هذه الاماني . على انها لا تتحقق الا اذا أخذنا بالاسباب المقتضية لها . وهذا ما يهمنا السؤال عنه أعني كيف تتدارك أمرنا بحيث نبلغ امانينا من جهة وندفع من جهة أخرى عن انفسنا وعن بلادنا شر ما نحن صائرُونَ اليه من الافلاس والخراب

يقول البعض اعقدوا الشركات لجمع الاموال وانفاقها في غرس الغابات والكروم وفي تكثير الزرع والضرع واستخدام مياه الانهار في الري والصناعة . ونعم القول والرأي هذا . ولكن اين الاموال لذلك والبلاد في حالة الافلاس ؟ من منا في صندوقه مال مذخور

لستغني عنه زماناً طويلاً ليودع في صناديق هذه الشركات، اجيوني ايها المعلمون اجيوني ايها الشبان المستخدمون. اجيوني يا ارباب البيوت واصحاب الحرف والصناعات المختلفة. بل ما لنا وهؤلاء اجيوني ان استطعتم يا ارباب الاملاك الواسعة والعفارات العكسرة وافتحوا صناديقكم لنرى ما فيها من الذهب الوهاج . بالمزيد الاسف انها فارغة ليس فيها دينار واحد يستغني عنه مدة . مالنا وهؤلاء ايضاً . هلموا بنا الى التجار والصيارف نستغيث بهم . يا تجارنا الكرام وصيارفنا الاغنياء افتحوا صناديقكم الحديدية لنرى ما فيها من الاوال الاحتياطية . هل من احد منكم حاضر هنا يسمع كلامي ؟ اني اشك بذلك . لكن هب ان كان منكم احد الآن او كان غيره ممن هو عارف بحقيقة الحال فلماذا يحيب ؟ ان البورصة ابتاعت من هذه الصناديق في السنين الاخيرة من مدينة بيروت فقط ما يزيد في الراجح على الخمسمائة الف جنيهه كان يمكن ان تستودع اساساً لمثل هذا المشروع وتزاد في المستقبل شيئاً فشيئاً فلم يبق الا ما يكاد يكفي لحركة تجارتنا الاعتيادية البطيئة

يقول قائل اذن فلنستدن الاموال من الخارج . من صيارفة اوربا وبيوت المال فيها . واأسفاه ان هذا ما يحاوله هؤلاء وهذا ما يسمون اليه جهدهم . وان تم لا سمح الله اصبحنا غرباء في البلاد واصبحت السهول والحيال لهؤلاء دوننا وخير لنا ان تبقى البلاد قرعاء جرداء وعلى شر مما هي عليه وهي لنا من ان تصير الى ما نحلم به وهي لاولئك الاقوام . وكفى عبرة بما وقع لغيرنا وبمعض ما وقع لنا

قالت الضفدع قولاً فسرته الحكماء

في في ماء وهل ينطق من في فيه ماء

ايها السادة اني سمعت ما اكاد اظنه حليماً لا حقيقة وهو ان بعض اغنيائنا في مصر والشام قد عقدوا شركة مالية رأس مالها منهم وفي نيتهن ان يستخدموا هذا المال في احياء الموات من الارضين وفي زراعة القطن واستثماره على الاخص فان كان ماسمعه صحيحاً — حقق الله الخبر — ففيه ما يحبي لنا شيئاً من الامل وتتوقع معه حسن العاقبة في المستقبل ومع انا على يتبين ان الله اذا اراد امراً هياً له اسبابه فليس من الرأي ان نسترسل الى ما لم يتحقق بعد من الاماني ونترك ما في مكنتنا انخاذه من الوسائل والاسباب التي تقضي بها علينا الحكمة والرأي مما يكون ردفاً لهذه الشركة ودعامة لها تدعها في حينها . يقول آخرون هذبوا فتياننا وفتياتنا فان على تهذيبهم مدار النجاح والفلاح وفيه اساس لحسن الحال والمال في العاجل وضمانة يتلافى بها ما يهددنا من الافلاس في المستقبل . ونعم هذا القول قولاً ما اشوقه في الظاهر وارواه واسده قبل التحقيق وامضاه وكان علي

من حيث أي معلم ان اختتم على صحته من غير تردد فيه او اهمل به على رؤوس الملائم من غير
تجريح له . ولكن ان كان القصد بالتهذيب مجرد التعليم علي ما جرينا عليه الى الآن
فما اكثر الافوال الشائفة لكن على غير جدوى واروى الآراء المموجة لكن من غير
محصل ولا فائدة ! هذه مدارسنا قد ملأت المدن والقرى ومنذ ثلاثين سنة الى الآن
وعدها يتزايد وعدد الطالبين والطالبات يتكاثر فماذا نفع البلاد تعدد المدارس او ماذا
اجدى عليها تكاثر عدد الطلبة ؟ ان عندنا الآن من المدارس الكلية والعالية ما لو نسبناه
الى عدد الانفس لاربي على ما عند الانكليز او الفرنسيين . ومع ذلك فالبلاد اليوم
اقرب الى الافلاس مما كانت منذ عشرين او ثلاثين سنة وستكون بعد عشر سنين اقل رأس
مال مما هي عليه الآن ان لم تتدارك امرنا . قولوا لي ماذا نفع البلاد كثرة التلامذة وما
هي الزيادة التي زادوها الى رأس مالها ؟ بل كيف ينفعون البلاد وهم يهاجرونها الواحد
بعد الآخر وقد بانغ فلالهم اطراف المعمور من شمال اميركا الشمالية الى جنوبي اميركا
الجنوبية الى بلاد الفلبين وقلب السودان وبلاد الترنسفال ورأس الرجا الصالح ولعل
بعضهم الآن في نواحي الصين او في قلب بلاد اليابان

والمأمل يرى ان المهاجرة كانت تزايد على نسبة تزايد عدد المتعلمين والمتعلمات وليس
لذلك من سبب الا ان التهذيب الذي تهذبه يزيد من افلاس البلاد حتى اذا ما أتم الطالب
ايامه المدرسية واخذ شهادته العلمية او الطبية او الصيدلية او التجارية لا يرى معه شيئاً
من رأس مال يستند اليه ولا هناك في البلاد رأس مال يحمل علمه والنتيجة ظاهرة انه لا يجد
بداً من المهاجرة فيهاجر

فان قيل ان المهاجرة طبيعية وقد تكون دليلاً على تقدم البلاد قلت نعم لكن في غير
الحالة التي نحن فيها اما في حالتنا نحن فلا لان سكان سوريا لم يزد عددهم على ما تتحمله
البلاد بل هي تتحمل أضعاف أضعاف الاهلين في الوقت الحاضر فالمهاجرة اذن غير
طبيعية وهي دليل واضح على قلة رأس المال بين ايدي الافراد الذين يهاجرون وفي
البلاد عموماً

أيها الطالب العزيز الذي تباهي في الاسراف وكثرة النفقات حتى تستنزف على تعلمك
آخر غرش في جيب أهلك وتتركه في آخر سنينك المدرسية صفر اليدين لا مال صامتاً ولا
ناطقاً لديه بل كثيراً ما تتركه وقد رهن بيت سكنه نفقة عليك وتحمل المطالب بذخك
واسرافك قل لي يا هذا ماذا يبقى أمامك عند نهاية أيامك المدرسية الا المهاجرة الى حيث
ترى نفسك مضطراً ان تصرف معظم ما بقي من نشاطك وقوة شبابك لتفك مارهنه أنك

علي تعليمك ثم بعد ذلك تنفق نفسك وقواك في إعداد معدات لبيتك حتى اذا صرت صاحب بيت وتوجهت خواطرك لاعالة قتيانك وقتياتك رأيت انك لم تذخر شيئاً ولا تستطيع ان تذخر بعدد ويعود الدور بين أولادك وبينك على مثل ما كان بينك وبين أبيك . وإذا كانت الحال على هذه الصورة فهيات هيات ان ترى بلادك الا على ما هي عليه الآن . وهيات هيات ان يكون في طوقك ان تزيد على حالتها الحاضرة ما تصبح معه على حلم ان تصير اليه . وكل آمالك بل أحلامك الآن تموت عند ما تستيقظ في أيام كهولتك لانك لا ترى بين يديك رأس مال تستغني عنه يستخدم في ترقية شؤونها وزيادة قوتها وفلاحها . وبالاجمال فالتهذيب الحالي لم يبالغ ولا يبلغ بنا المقصود ولا هو مما يركن اليه في تلافي أمرنا ؛ ايها السادة . اذا أردنا ازالة الداء فلا بد من معالجة أسبابه الرئيسية وإزالتها أولاً . وليست هذه الاسباب الجهل على ما ارى ولا قلة الشبان المثقفين على ما يتنا ولا هي ايضاً كسل الاهالي وتراخي أيديهم عن العمل لأن التامل الخير يعلم أن الصانع اليوم أنشط من صانعنا بالامس وأكثر منه إكباباً ومثابة على العمل . وكذلك فاعاننا وزارعنا وبستانينا ومستخدمنا وتاجرنا وكانبنا ومحاسبنا ومعلمنا فان جميع هؤلاء يشغلون ويجهدون في العمل فوق ما كانوا عليه في الماضي

وكذلك ليس السبب ايضاً عدم وجود الشركات العمومية لان عدم وجود هذه ليس سبباً في الافلاس أو تسارع أفراد الامة اليه بل هو نتيجة عنه . فان من الحقيقة التي لا تنكر عند ذوي البصيرة ان عدم وجود الشركات العمومية مسبب من عدم وجود رأس المال اللازم لها بين ايدي الافراد لا سبب لنقص رؤوس الاموال هذه . نعم لو وجدت هذه لزاد بها رأس المال ولكنها لا توجد اولاً إلا بعد ان يوجد رأس مال بين أيدي الافراد غير رأس المال الذي لا بد لهم منه لادارة حركة أعمالهم الاعتيادية . وأزيد ايضاً من غير ان أنسب الى الاطراء والتعلق للهيئة الحاكمة ان السبب فيما يهددنا من التسارع الى الافلاس ليس هو عدم الامن ولا هو من اختلال إدارة الاحكام واعمال العمال الذين تقصر إجراءاتهم عن ان تأتي مطابقة للدستور لان الامن الآن هو فوق ما كان عليه بكثير . منذ خمس وعشرين سنة ودليله اتساع دائرة الزراعة والصناعة والتجارة فقد زاد المزرع في البلاد وزادت حاصلاتها وتجارتها وصناعاتها الى ضعف ما كانت عليه قبلاً ان لم يكن الى أكثر من ذلك . ويستحيل ان تكون هذه الزيادة ما لم يكن الامن قد زاد واما تقصير العمال فأراه يكاد يكون مسبباً عن نقص رأس المال في البلاد لا سبباً له . نعم لا أنكر انه كان خيراً للبلاد لو لم يوجد مثل هذا التقصير وانه سبب ايضاً في قلة

رأس المال لكنه ليس سبباً أولياً بل سبباً ثانوياً ويمكن إزالته شيئاً فشيئاً مع زوال السبب الأولي وفقاً لما تقتضيه ضرورة الوجود

والخلاصة ان كثيراً مما يذكر انه سبب لتأخرنا ولتسارعنا الى الافلاس اما ان لا يكون سبباً أصلاً او يكون سبباً ثانوياً لا أولياً وما لم نعلم السبب الأولي ونسعى في إزالته فلا يرجي لنا نجاة مما نحن صارون اليه . وعندني ان السبب الأولي إنما هو إسرافنا وتبذيرنا أولاً من حيث نحن أفراد وثانياً من حيث نحن أمة . واليك بيان ذلك ولو عراجعة ما معنا اليه سابقاً ولنبدأ بإسرافنا من حيث نحن أفراد

رأينا الحاجة الى العلم فكثير عدد المدارس عندنا ولكننا اسرفنا في النفقات على تعاليم اولادنا لاتنا لم نبق لهم رأس مال يستعينون به بعد خروجهن من المدرسة بل لم نبق لنا أعني الادباء رأس مال نستعين به على تحصيل مقتضيات الابدش لا مالا في الجيوب ولا أملاكاً تستثمر حتى باع البعض في سبيل ذلك او رهنوا بيوت سكنهم وأى إسراف فوق هذا الاسراف . كثرت أجور صنّاعنا فصارت ضعف ما كانت عليه أولاً ولكن لم نجد علينا ذلك لان صنّاعنا اسرفوا في نفقاتهم على طعامهم وشرابهم وكسوتهم حتى أصبحت هذه اما تعادل أجورهم او تزيد عليها . فترى الشاب منهم ينفق جزافاً على طعامه ولباسه ودخانه وشم هوائه كما هو من اصحاب الاموال الكبيرة فيأتي آخر الشهر او آخر السنة فاذا هو لم يذخر في كل سنته شيئاً رأس مال يستعين به على تحسين حاله بل كثيرون منهم يبقون عليهم ديوناً يماطلون بها

وليس الشاب المستخدم بارقي حالا من الشاب الصانع لانك ترى احده هؤلاء في لباسه ونفقات طعامه وجيبه وترى مخدومه فلا يظهر لك من نفقاتها ايها الخادم وايها الخدم بل قد تظن الخادم مخدوماً احياناً . واذا حادث احده هؤلاء فذكر لك ما ينفق على طعامه وشرابه وكسوته ونوع الدخان الذي يدخنه ومقدار ما يدخنه في اليوم او ذكر لك ما انفق على شم هوائه مع اصحابه (وقد لا يكون مبالغاً) ظننته يأخذ من الاجر ثلاث مرات او اربع مرات ما يأخذه حقيقة . وما هي نتيجة كل ذلك ؟ انه يقضي ايام شبابه مفلساً وربما يموت كذلك . واما ابناء المدارس واسرافهم في النفقات على لباسهم وجيوبهم فامرهم اشهر من ان يذكر ولقد اصبحوا مضرب مثل في الاسراف والتبذير وهم لا يفتنون

وعلى ذكر الطالبة اراني مضطراً الى ذكر المعلمين اي خدمة العلم ومربي العقول ومهذبي الاخلاق ومثال الحكمة والروية ولكن كيف نجد هؤلاء الافاضل أقل اسرافاً

هم من الطلبة؛ انا لا استطيع ان اجيب بالايجاب بل اقول بكل اسف انهم — وان كنت لا تجد في المئة منهم عشرة ينام احدهم مطمئناً في انه اذا توقف عن العمل شهراً واحداً لا يحتاج الى مساعدة الآخرين — هم مع ذلك مسرفون يتطلعون الى التأنق في الملابس والمآكل والمفاخرات الخارجية كان احدهم رب الاولوف من الجنيات وتظهر امراته واولاده مثل مظهره ان لم يزيدوا عليه وندر ان يموت احدهم غير فقير ويترك اولاده غير عالة

دعونا من المعلمين والطلبة واصحاب الحرف والمستخدمين بل دعونا من الطبقة الوسطى من اهل الصون والسترة عن آخرها . مساكين جميع هؤلاء فانهم يبدأون بالحياة ولارأس مال معهم ويموتون وأكثرهم لا يتركون شيئاً الا الدين وان كان جزئياً وإلاداً في الغالب عالة على ذوي قرباهم . ولتأت الى اصحاب الاملاك والعقارات فان هؤلاء زادت املاكهم وعقاراتهم وزادت مداخيلهم ايضاً ولكن ما ذا نفعت البلاد من تلك الزيادة وهم في نهاية شوطهم تراغم اصبحوا وقد انفلتت الديون حتى كادت تستغرق كل املاكهم ومقتنياتهم وما لذلك من سبب الا الاسراف في النفقات والخروج عن خطة الفطرة الى التقايد في كل شيء تقريباً ومباراة اصحاب الملايين في اوربا واميركا

بقي علينا التجار والصيارف وهم من تنسرب اليهم فضلات اموال البلاد او ما بقي من هذه الفضلات التي انفقها اهابها جزافاً على كل شيء اجنبي ماذا صار لهذه الاموال التي هي عمدة نجاح البلاد وعلى نسبة الموجود معها يكون حالها من القوة والضعف والتقدم والتأخر ؛ اباقية هي على ما كان ينبغي ان تكون ؛ واأسفاه ان ما سلم من اسراف المتوسطين واصحاب الاملاك والعقارات لم يسلم من اسراف التجار والصيارفة الذين استغوتهم البورصة فاضاعوا فيها اغلب ما كان ينبغي ان يذخر في البلاد ويستخدم في انماء الزراعة والصناعة . هذا هو داؤنا اي الاسراف وهو السبب الاصلي في مسارعتنا الى الافلاس والخراب ونحن افراد

ولو نظرتم الينا من حيث اننا مجتمع وامة لرأيتهم الاسراف قد بلغ فينا مبلغه لانا كأمة قد ماتت نفوسنا واعتبارنا لنفوسنا فاصبحنا محتقر كل ما هو وطني وتنصرف عنه ونعظم ما هو اجنبي ونقبل عليه وقد اسرفنا في الامرين كل الاسراف حتى امتنا صناعة البلاد والحلأنا الصانع اما الى المهاجرة واما الى الحمول والموت فقراً . وشاهدي قريب فاني اسألكم رجالا ونساء انلبسون اها الرجال من منسوجات الشام وحمص وحماه والزوق ام تلبسون اها السيدات من حرائر البلاد المنسوجة على انوال بيروت والشام وطرا بلس

والاستانة ؟ ما اظن احداً منا يجيب بالايجاب بل بدأ كثير من متأقينا على ما المعنا ان يأمرؤا فتخطأ أحديثهم واثوابهم في باريس ولندن وغيرها من المدن الغربية استكباراً لصناعة اولئك واحتقاراً لصناعتنا مع ان الفرق هنا مما لا يعتد به بين الصناعتين . وهذا منتهى الاسراف ومنتهى الصغار أيضاً وضعف النفس في الامة

ايها السادة والسيدات داؤنا الاسراف والتقليد الفارغ وهما السبب الاول في تسارعنا الى الافلاس والخراب ولا يوقفنا عما نحن مسرعون اليه الا الاقتصاد وترك التشبه والتقليد فان لم تقتصد ايها الطالب في نفقاتك بقدر ما تستطيع افنيت رأس مال أيك وزركته لا يستطيع ان ياتي بعمل بعد ذلك للقيام بنفقاته ونفقات بقية افراد عائلته وتركت نفسك بالضرورة ايضاً ولا خيرة لك الا المهاجرة والاعتراب حيث تصرف قوى عقلك ونشاط شبابك في غير بلادك ونخدم غير نفسك واهلك وانت لا تدري

ان لم تقتصد ايها المستخدم والصانع في لباسك وطعامك ونفقات جيبك ليتأتى لك ان تذخر في كل سنة شيئاً تعده رأس مال لمستقبلك بقيت طول عمرك مستخدماً وصانعاً واورثت لبنيك الفاقة والمذلة او اضطرت الى الاعتراب والمهاجرة . وهيهات ان تكون هناك أكثر من خادم او صانع تخدم غير ذؤيك وتستصنع لغير بلادك وأهلك

ان لم تقتصدوا يا أصحاب البيوت في نفقاتكم من صغيرها الى كبيرها بقيتم على ما اتم عليه تعللون النفس بالاماني والاحلام الفارغة او تشكون الدهر واتم تزجون العيش تزجية . واذا افضى احدكم لا سمح الله الى المذلة والفقر فلا تلومن الا أنفسنا على سوء تدبيرنا وعدم اقتصادنا

ان لم تقتصدوا يا أصحاب الاملاك والعقارات الكبيرة فلا تأمنوا مغبة الدين وان تنتقل أملاككم وعقاراتكم الى ايد غير ايديكم او غير ايدي بنيكم ولا تكون مع الايام الا يداً اجنبية اقدر على ادارة الاملاك واعرف بسبل الاقتصاد والارض لله يرثها الشيطون المقتصدون

ان لم تقتصدوا يا تجارنا وصيارفنا . ان لم تتوقوا أشراك البورصة وهربوا منها هربكم من الافعى جررتم أنفسكم الى الافلاس العاجل وجررتم البلاد بأسرها معكم الى الخراب والدمار . والحلاصة ان داءنا الاسراف ولا ينجينا من الافلاس والخراب المتسارعين اليه الا الاقتصاد وقد بذلت لكم نصحي وما أنصح الا نفعي وأهلي والسلام

انتقاد فتاة مصر

قبل ان ابدأ بانتقاد هذه الرواية البديعة في بابها اقول اني كنت اقرأ فتاة مصر كما كنت اقرأ بقية مقالات المقتطف الرائعة واعيد النظر فيها كما اعيد النظر في تلك فتأخذني نشوة من حسن اسلوبها وما اودعه الكاتب في مطاوعها من افكاره العمرانية وانتقاداته البديعة الفلسفية إن في ما يتعلق بأسباب الحرب الروسية العمرانية او في ما يتعلق بأحوال مصر الاجتماعية والزراعية او في ما يتعلق بالماليين وتأثيرهم في هيئة المدينة الحاضرة

والحق يقال اني كثيراً ما كنت اقدم قراءتها على قراءة بقية مقالات المقتطف لا مجرد الفكاهة واللذة المرادة من كتابة اغلب الروايات بل لما كنت ارى فيها من الحقائق العمرانية والسياسية وما ترمي اليه من اصلاح الاخلاق والعادات والتعريض ببعض ما اضر بنا من الاقبال على ما كان يشرف بنا على شفا جرف من الافلاس والحراب واشتدت غوايتها به حتى عم او كاد يعم غنينا وفقرنا علنا وجاهلنا تاجرنا وصانعنا واعني بذلك مضاربات البورصة والتفحم فيها على الحراب ونحن لانشعر

واقول ايضاً اني بعد ان قرأتها اجزاء وقت صدورها عدت فقرأتها مجددة مرتين فما زادتني قراءتها الا اعجاباً بها ويقيني انها من خير ما ألف لهذيب شبانا وانها اجدر كتاب حتى الان بحسن بنا ان نضعه بين ايدي شبانتنا وطلبة مدارسنا يقرأونه اولاً لما فيها من حسن الاسلوب ودقة التعبير مضافاً الى ذلك فصاحة الاناظ وبلاغة التركيب وسلامة الذوق . وثانياً لما فيها من المرامي والمقاصد الحكيمه والفلسفية العمرانية ولا سيما ما ينبغي تنبيه اذهان الشبان اليه من قوة المال والماليين وانه لا تقوى امة او تصير شيئاً مذكوراً ما لم يجتمع عندها بكدا افرادها واقتصادهم رأس مال يعدونه لطوارق الحدثنان يغالون به بقية الامم ويزاحمونهم على موارد التجارة والانتفاع وينازعونهم بكثرة السطوة والوجاهة فلا يجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وهنا اشكر لاستاذي الدكتور صروف واضع هذه الرواية لانه اجاب ملتهمسي في طبعها على حدة لينتفع بها التلامذة خصوصاً وانها وفيت بالغاية التي من اجلها التمس منه طبعها وحدها وهي الآن كتاب مطالعة لا كثر من ستين بل سبعين طالباً يتمرنون بمطالعتها على تطبيق قواعد النحو على ما يقرأونه ويتحدثون اساليبها في الكتابة والانشاء وقد وفيت بهذين الغرضين فضلاً عما يجده فيها الطلبة من الفوائد العمرانية والاخلاقية المقصودة رأساً من تأليفها

وانرجع الآن بعد هذه الديباجة او التمهيد الى غرضنا الاصلي من الانتقاد عموماً
وانتقاد هذه الرواية خصوصاً

أنواع الانتقاد

(اولاً الانتقاد النحوي)

واكثر كتابنا اذا انتقدوا وجهوا همهم الى هذا النوع من الانتقاد فاذا رأوا عرضاً
المرفوع منصوباً او مجروراً او بالعكس اكثره الصياح والجابة على الكاتب فرموه بالجهل
والغهاة واكثروا من ذلك يبولون بعلومهم وفضلهم واتخذوا ذلك ذريعة للتنقص من
الكاتب والغضب من كرامته والانحاء على علمه وفضله تهكماً واستخفافاً واولى بالمنتقدين
منا ان يُقَامُوا عن هذا الانتقاد التافه فانه ان دل على علم من جهة فهو دليل على جهل
من جهة اخرى . وسببه ان اكثر ما يقع من هذه الاغلاط انما يقع عن تسرع الكاتب
وقلما يحل مع ذلك بفصاحة او بلاغة لان المعنى يكون ظاهراً ظهور الصبح حتى قلما يظن
له احد الا المتحري له بل ربما كان ما عُدَّ غلطاً لا يُعَدُّ كذلك الا على مذهب مخصوص
والعاقل يعلم ان علامات الاعراب في اللغة انما هي من قبيل الاناقة والمواضعة لا من قبيل
الجوهر والحقيقة فمن ثمَّ قد لا يُعَدُّ الاخلال بها اخلاً لا يقضي على الخلِّ بالجهل وعلى
الناقد بالفضل بل كثيراً ما يكون الامر على عكس ذلك لان لسان حال الناقد المحتفل بهذه
الاغلاط المعطط لها يشهد عايه ولا سيما اذا جرى على مذهب مخصوص انه حسب العرض
جوهرراً والآلة غاية وهذا هو الجهل بعينه . هذا ولو كان الاعراب امراً جوهرياً في
الخطاب والكتاب لما سقط من اعرابية والسريانية خطاباً وكتابة وهما اخنا العربية او
اقله لما سقط معظمه من على السنتنا في كل البلاد العربية حتى من على السنة المشتغلين
بالنحو لاشغل لهم سواء وقد فرغوا كل اوقاتهم لدروسة وتدريسه لا يعرفون سواء ولا
يحفلون بغيره من بقية انواع العلوم

ولا يؤخذ من قولي هذا أن النحو علم لا ينفع وجهالة لا تضرُّ حاشالي ان أقول
ذلك وأنا من معلمي النحو والمشتغلين بدروسة وتدريسه منذ عشرين سنة ونيف بل أنا ممن
يعتقدون ان علم النحو العربي قد يكون بفضل استاذ من أفضل انواع العلوم التي تدرس
في المدارس العالية لتقوية قوى العقل في الشبان ولا سيما قوى الفهم والقياس والاستنتاج .
وهو من هذا القبيل لو وُضِعَ في كفة ميزان ووُضِعَ في الكفة الاخرى علما آخران
— أي علمين كانا — المنطق والفلسفة — الجبر والهندسة — الكيمياء والفلسفة الطبيعية

— الحيوان والنبات — التاريخ واللغة الخ — لرجحهما فهبطت كفته بسرعة الى الارض وشالت الاخرى الى السحاب. ولكني مع اعتقادي هذا لا أرى انتقاداً تافهاً على كتاب علم أو فلسفة اتفه من الاقتصار على انتقاد هذه الحركات والسكنات الاعرابية أو التهويل بها كأن العالم كله في محرجها والجهل كله في الغفلة أحياناً عنها. أقول ما أقوله وأنا أحد الله ان فتاة مصر لا مجال فيها لهذا الانتقاد التافه فاني لم ألحظ أغلاطاً من هذا القبيل الا أن تكون غلطة مطبعية ظاهرة للعيون ظهور الشمس في رائعة النهار حاشا عين المتعنت المتحذلق في التحو ولا أذكر اني مررت على غلطة من هذا القبيل أو ما يضارعها الا في صفحة ٢٦ آخر الوجه فقد جاء فيه هناك -- أما لا أطيق أن أتاني نفسك في أيدي هؤلاء اللصوص - والمرجح ان الكاتب أراد ان أتاني نفسك -- فسقطت النون في هذا الموضع غلطة من صفيف الاحرف أو تسرعاً من الكاتب ولم يشعر بذلك كما يحدث كثيراً مع كل كاتب على ما يُعلمُ بالاختبار (١)

(ثانياً الانتقاد البياني)

وهو أعلى شأنًا وأكثر فائدة من الانتقاد على مرفوع أو منصوب أو مجزوم أو مبني على السكون أو إحدى الحركات . ومداره على التعقيد والالتباس فحيثما وُجد هذان فهناك محل للنقد واما حيث البيان وظهور المراد على أتمها في المفردات والتراكيب فلا موضع له وان تمحل له موضع مع خلو الكلام عما ذكرنا من الالتباس والتعقيد فهناك الخطب والجهل الفاضح (وان كانا لا يُعلمان عند كل الناس) وليس مرادي الآن ان أتغافل في هذا الموضوع من النقد وبيان جميع ما يدخل تحته فانه بحر واسع لا ساحل له. واكثر الكتب الموضوعة في فن البيان مما يطبق على موافقته لضوابطها او مخالفتها غير مجروح فيها ولا ترجع ضوابطها الى اصول كلية لا مجال للاعتراض عليها ولذلك كان الذوق السليم أولى أن يحكم غالباً دونها وهو اذا رجعنا اليه في انتقاد فتاة مصر رأيناها لا غبار عليها الا في مواضع قليلة جداً واكثرها من قبيل استعمال التفصيح مع وجود الافصح او ما يقارب ذلك . ومن هذه المواضع ما جاء في وجه ٤٠ - وانقض رأبهم على ان الخواجه لافي يدبر الامر بحكمته - أي وانقض مجلسهم فان الانفضاض في الاصل للمجلس لكن لحصول الرأي في ذلك المجلس نسب الانفضاض اليه . وهو من قبيل اقامة الحال في

(١) (الفتطف) لقد تمحررنا انطاق الناس بما ينطقون به عادة فكلمة « انا لا ادليق » مقولة على هذه الصورة مقطوعة اي انا لا اطيع ما تفعل او ما يفعل والجملة بعدها استثنائية او ابتدائية ولو وضعت نقطة بعد كلمة اطبق لكان ذلك ادل على المراد

المكان مقام المكان ويمثلون له بقولهم - ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النار - أي جهنم لكن لما كانت الملابس بين الرأي والحجاس أكثر بعداً مما هي بين النار وجهنم في الآية التي يستشهد بها كانت لذلك عبارة فتاة مصر من قبيل استعمال الصحيح الفصح دون الإفصح . وما يجري هذا المجرى ما جاء في صفحة ٤٣ حيث يقول — فكأنها أموال تقترضها الحكومة وتعطيها للاهالي برأ معتدل لا يستطيعون الاقتراض بهم — وكان الاولى على ما ارى لو قال — لا يستطيعون هم ان يقترضوها برأ مثله او برأ من مثله . وكذلك ما جاء في وجه ٥٦ — وحليمة اخت حليم بك من اجل البنات التي وقعت عليهن عيني . ووجه ١٠٧ — كلاً ولكن هزري نفسه اخذ مكتوبها وكتب لي حاشية فيه يقول فيها وتركيب العبارتين فصيح لا غبار عليه الا ان حسن الرصف يقضي بتأخير المجرور عن (عيني) في العبارة الاولى وتقديمه على (حاشية) في الثانية . ومع ذلك فالفرق بين العبارتين على اصلهما وبينهما على ما صارتا اليه زهيد جداً ولا سيما في العبارة الاولى . وربما وجدت مواضع اخرى من قبيل العبارتين اللتين ذكرناهما لم انتبه اليها ولكنها قليلة جداً وبالاجمال أقول ان الذوق السليم يشهد ان « فتاة مصر » جاءت من اولها الى آخرها كأنها النيل المبارك يجري مدلاً بعظمته وجلالة قدره بين الجزيرة والحيزة في جوار القاهرة . واليك بعض شذرات منها

هزري — اذا أنت تفكرين فيهم اما أنا فاني باذل جهدي لكي أنسى ما مضى فلا أستطيع ويخطر ببالي احياناً ان اعود من السويس ولكن السفينة تقوم صباح الاثنين ولا تقوم سفينة بعدها الى اليابان تواتراً الا بعد اسبوعين ومهمتي تقضي عليّ بالذهاب في هذه السفينة وقد ضاقت بي الحيل ولا اعلم كيف اعمل . أيجوز ان اضحي بمواطني كلها لاجل عمل لا ينالني منه ربح مادي ولا ادبي . لماذا نذهب الى بلاد اليابان ؟ لخدمة المائلين لكي تكثر اموالهم اما جهود الاهالي الفلاحين والمعدنين والصناع وهم التسعة الاعشار فلا يستفيدون شيئاً . والماليون ايضاً لا يستفيدون لان زيادة المال لا تزيد الراحة بل تزيد التعب . لورد بنشيد تقدر ثروته بأكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات ودخله اليومي بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه وقد سمعت منه ان ما يفقه على نفسه في مأكل ومشرب وملبس لا يزيد على ثلاثة جنيهات في اليوم بأكل في الصباح بيضة ويشرب كأساً من القهوة والبن ويأكل الظهر قطعة من السمك وقطعة من اللحم وقليلاً من الخبز والخضر والفاكهة ومحو ذلك في المساء وان زاد بُلي بالتخمة ويلبس مثل ابسط الناس وما هو الا وكيل على امواله يهتم نهاراً وليلاً بتشغيلها وتسميرها فلو بلفنا مبلغه من الثروة لزدنا طمعاً وتعباً . انظري

كيف نحن الآن مسخران لغيرنا. كيف دست قلبي وعواطفي وخرجت من بيت واصف بك وابنه على فراش الموت ولا امل ان اراه بعد الآن وبهية تبكي وتنوح ويكاد قلبها ينفطر حزناً عليه. تصوري نفسك مكانها وان مركبة الزامواي داسني ففتاتني او كادت ولك حبيب او صديق لا بد له من ان تركك في تلك الساعة تصوري نفسك مكانها

فاغرو رقت عينا ورا بالدموع وقالت له ابي اعرف ما ينتلج في فؤادك وأؤكد لك ياهزي ابي احب هذه الفتاة كما تحبها انت واني آسفة جداً لفراقها على هذه الصورة ويكاد قلبي ينفطر عليها وعلى امها ولكن الواجب أولى بالاتباع ونحن مرتبطان بهذا السفر ولا مناص لنا منه واذا بقينا في مصر لا تقدم ولا تؤخر وبقيني ان امين بك يقوم من هذه السقطة واطن اننا ننجد تلغرافاً منهم في السويس بلعلمنا عنه والا فلا بد لنا من ان نرسل تلغرافاً نسأل به عن صحته (فتاة مصر وجه ٥٢ — ٥٣)

اقرأ ايضاً وجه ٥٧ الى آخر السطر الثامن منه . ووجه ٦٦ الى آخر السطر السابع منه . ووجه ٧٠ الى السطر الخامس قبل الاخير . ووجه ١١٤ الى آخر كلام لادي برون وجه ١١٦

ولو اردت ان اشير الى كل كلام انيق معجب لبلاغته او للحكمة المودعة فيه وللحقائق العمرانية الواقعة فعلاً ونحن في غفلة عنها لا نثمر الى اكثر من ثلثي هذه الرواية البديعة ولا اراي مبالغاً

(ثالثاً الانتقاد اللغوي)

وكثيرون من متفدينا يأتون في هذا النوع من الانتقاد بالمبكمات المضحكات ولا احاشي جلّة من اكار علمائنا وكتابنا معاً . والغريب ان بعضهم يكاد ينكر القياس فلا يحيز في الاستعمال الا ما نص عليه في كتب امهات اللغة فان لم ينص الصراح او الفيريز ابادي او لسان العرب على احتار مثلاً يؤخذون من يستعملها او تابع في استعمالها كثيرون من اكابر الشعراء والفقهاء . وكاد النلامة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة يهوي في مهواة هؤلاء الاقوام فانه على سعة علمه لم يرقه على ما يظهر استعمال بعضهم « احتار » مع معرفته ان قد استعملها قبله الامام ابن الفارض المشهور . وبعض غيره من اكابر الفقهاء كصاحب الكتاب المسمى برد المحتار على الدر المختار . وكنت أعجب من تضيق هاته الفئة كل هذا التضيق وما الذي يعتمدونه في الاخذ بهذه الخطاة التي اخذت بخناق الكتبة المؤلفين وخالفت مبدأ لغة هي من اشهر لغات العالم باعتمادها على القياس وبمناسبة اوضاعها له في هذه الحركات والسكنات الاعرابية الى ان وقفت على ما كتبه العلامة

الفيلسوف الامام الغزالي في الرد على المشبهة والحشوية في كتابه إلجام العوام فزجج لي ان كلام الامام هناك استهوى القوم فماسوا عليه لكن حيث لا يصح القياس لوجود الفارق فأدى قياسهم لسوء الطالع الى ما كاد يطل القياس في الفاظ اللغة حيث تمس الحاجة الى القياس وحيث لا مانع يمنع منه عقلا او نقلا وبيان ذلك

انه ورد في الكتاب والسنة الفاظ في حق الباري سبحانه وتعالى توهم الجسمية كاليد والعين والاستواء والنزول وغير ذلك مما اخذها الحشوية دليلا على التجسيم واستغفوا بها العامة وبعض الخاصة بزعمهم ان ذلك مذهب السلف فتصدى الامام للرد عليهم واليك بعض كلامه قال : وحقيقة مذهب السلف ان كل من بلغه حديث من هذه الاحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة امور (١) التقديس (٢) الصديق (٣) الاعتراف بالعجز (٤) السكوت (٥) الامساك (٦) الكف (٧) التسليم . ثم فسر الامساك بما نصه بالحرف الواحد قال : وما الامساك فان لا يتعمد في تلك الاقاظ بالتصريف والتبديل بلغة اخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق الا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الاراد والاعراب والتصريف والصيغة

ثم افاض الامام في هذا الموضوع عما هو غاية في بابه وحري بكل عالم من علماء الكلام عند المسلمين وبكل عالم من علماء اللاهوت عند المسيحيين ان يقف عليه فانه مما تتناول اليه الاعناق وتطمح الى مثله الابصار في كل زمان ومكان . ولا يبعد عندي ان علو طبقة كلام الامام الغزالي في هذا المقام الكلامي التنزيهي هو الذي استهوى اهل هذه الفئة التي اشربا اليها فتمسوا الامساك في كل الفاظ اللغة مع ان الامام خصه ببعض الفاظ منها وردت في القرآن وفي بعض الاحاديث مما يوهم التجسيم وبذلك حظروا على الكتبة والمتكلمين استعمال القياس حيث لا يحلور من استعماله فابطلوا القياس بالقياس فيا للغرابة ويا للفهم والنظر الصحيحين

والغريب ان بعضاً من اهل هذه الفئة يتساحون في القياس لانهم يتأبسون كل لفظ قاسته العامة او استعمالته على سبيل الكتابة او الحجاز مع ان مسوغ القياس والحجاز هو من الظهور حتى لم يخف على هؤلاء وربما استعمالوا بدلاً من ذلك اللفظ لفظاً آخر هو في الاصل قياس او مجاز من ذلك خبره في مسألة كذا او تخبروا قاهم لا يسوغون استعمال هذه اللفظة وبعيدون منها الى ناباه في مسألة كذا وتناهاوا مع ان هذه الاخيرة مأخوذة من النبأ والاولى من الخبر والنبأ والخبر بمعنى واحد الا ان الخبر اعرف واعم واشهر . وكذلك يأبون استعمال تسكتفوا على كذا من السكتف ولا يرون انها اكتظاها من الظهر

على حين ان وضع الكنف للكنف في التعاون اقرب للفهم لانه اكثر مشاهدة من وضع الظهر للظهر . وبعضهم يرون استعمال التوفير من الكبائر ليس الا لان العامة تستعمله بالمعنى الذي يراد استعماله او وضعه له . وبعضهم يشدد النكير على عائلة الرجل بالمعنى الذي تستعمله العامة مع انها كعاقلة الرجل من عال عياله كنفاهم معاشهم ودانهم او من عال الشيء فلان اهمه ومفادها بالقياس على عاقلة الرجل انهم الجماعة الذين هم مؤمنون ولا اوضح من الكناية بها على نفس المعنى الذي يراد في الاستعمال الدارج . ومثل ذلك تشديدهم على الدارج . والخارج . والطارق . اذا استعملت بالمعاني التي تستعمل لها في الدارج . كل هذا غفلة عن النظر الصحيح وقد جر إليه ما سهوى القوم من القواعد المخووعة لتزييه الباري تعالى عن الجسميّة على ما معنا إليه . فيا لله . متى نعدل عن هذا التخرج الذي يقضي العقل والنقل بتركه

ولا يسعني المقام الآن ان اخوض في هذا البحث الى نهايته وربما عدت اليه في وقت آخر اذا فسح لي المقتطف الاخر مجالا بين صفحاته (١) ولارجع الى فتاة مصر فاقول ان الكاتب قال في صفحة ٧١ آخر الوجه — ولكن الرجل الغني المطموع فيه يتناشئ الناس من كل جهة — فان كان مبدأ الفئة التي اشرنا اليها صحيحا كانت لفظة — يتناشئ — فيها شي من العاميّة وعندى ان هذه العاميّة هي في منتهى القصاحة وياليت الكاتب جاء في روايته بمئات من امثال هذه اللفظة فانها لم تخرج عن القياس الواضح الذي لم يتغيّب حتى عن العامة

(رابعاً الانتقاد على الرواية)

كان يستشهد الكاتب ببيت من المنظوم او بفقرة من المنشور فينسبها الى غير قائلها او يورد فيها رواية اخرى غير المشهور فيتذرّع المنتقد بما ورد من الخطاء الظاهر والحقيقي الى التفتّص من الكاتب والتهويل بما ارتكبه من الخطاء . وقد يكون كل ذلك مما لا طائل تحته بالنظر الى غرض الكاتب . وقد ورد من هذا القبيل في فتاة مصر وجه ١٧٦ فقد تقنّب الايام حالاً اهلها وتعدو على اسد الرجال الثعالب وفي البيت رواية اخرى وهي (٢)

(١) (المقتطف) على الرحب والسعة فان المبتدئين بالكتابة لدى غاية الاحتياج الى من يشدد عزائمهم ويسهل عليهم السير في سبيل القياس
(٢) (المقتطف) اذكروا ان ليس رواية اخرى من تصحيف في الطباعة لم تنقله وقت تصحيح المسودات فشكر فضل المنتقد على تنبيهنا اليه

وارجح أنها الرواية الصحيحة ولكني لا أرى هذا التصحيح يزيدني فضلاً أو علماً كما أنه لا ينقص كذلك من قيمة الرواية أو من علم الكاتب وفضله وبالأجمال إن كلا من الانتقادين في اللغة وفي الرواية ولاسيما الأول قد يكون تافهاً وقد يكون معتبراً . أما المعتبر فهو الانتقاد على الألفاظ الغلظة في مواضعها وهناك الفاظ ارسخ منها واشد استحكاماً في مواضعها يمكن أن توضع بدلاً منها . أو تكون الفاظاً مترادفة لا يعرف الكاتب الفرق بينها في أصل الوضع فيظن أن المجاز المستعمل في الواحدة منها يتج في صاحبها فيخطئ الغرض ويفوته بذلك طلاوة الكلام وحسن وقعه في النفس وأما هذا الانتقاد على الألفاظ لانها مقاسة مع ظهور دلالتها على معناها ولا ظهور الصباح أو لانها مما تستعملها العامة مع أنها في مواضعها مما لا تقوم لفظة مقامها وهي مع ذلك جارية على مجاري القياس في الاشتقاق والمجاز لا خال فيها من هذا القبيل إلا أنها غير واردة في أمهات اللغة المدولة من الانتقاد الجدير بنا الاقلاع عنه وإن أسف إليه قوم لهم شأن ومكانة في عالم اللغة والادب

(خامساً الانتقاد المعنوي أو الحقيقي)

وهو الانتقاد المعول عليه وبه يتنافس العلماء والفضلاء . والمقصود منه ترجيح ما في الكتاب المتمد وبيان مواضع الخطأ فيه أن وجدت والافيان محاسنه وما فيه من المواضيع المهمة النافعة للقراء . ومدار هذا النقد على موضوع الكتاب فإن كان كتاباً تاريخياً مثلاً فتجرح النقول فيه وبيان ما إذا كانت مما يعول أو مما لا يعول عليها من جهة وما إذا كانت مستوفاة من جهة أخرى . ثم بيان ما إذا كان المستخرج من هذه النقول جازياً على مقتضى الاستنتاج العقلي الصحيح أو ملوياً به عنه

وهكذا يقال في ما إذا كان موضوعه ادبياً أو عقلياً أو علمياً أو سياسياً فإنه ينظر أولاً إلى تعيين الحقائق وإبدايها ثم ينظر ثانياً في تمحيص المستنتاجات من تلك الحقائق وقد لا تقل أحياناً فائدة هذا الانتقاد إذا كان مستوفى عن فائدة الكتاب المتقدم ويظهر فيه مقدار علم الكاتبين المتمد والمستفيد عليه وفضليهما . ولا يكون نتيجة مثل هذا الانتقاد الا تنوير البصائر وتوسيع نطاق الحقائق وما يترتب على ذلك من الفائدة علماً وعملاً

موضوع فتاة مصر وإبحائها

موضوعها أو الغاية منها فكاهي تهذيبي وإبحائها اجتماعية عمرانية . أما الفكاهة فيها فاحكم إن الكاتب وفاها حقها من تشويق القراء إلى الرواية وحديثهم فيها والذي اعرفه في هذا

الصدد أما عرفه من نفسي واهل بيتي وبعض اصدقائي الذين يقرأون المفتطف وهؤلاء كلهم كانوا اذا تأخر عنهم المفتطف يوماً خالوه اسبوعاً وممظلمهم على ما اعلم كانوا يبادرون حين وصوله اليهم قراءة فتاة مصر. وقد لحظت ممن اشرت اليهم جميعهم ان غضبهم على عزرا كان شديداً وبلغ استياؤهم مبلغه عند ما قرأوا الفصل الثامن والعشرين والثلاثين الاول في التهيج والثاني في المرافمة واشتموا منها مناجاة عزرا من الحكم عليه فلما ظهرت الحقيقة سري عنهم وبدت عليهم امارات الرضى والابتهاج

واما الغاية التهذيبية في وصف امرأة الخواجه لاثي وامرأة واصف بك وابنتهما وحليمة ودورا ما في بها. فان كل ما وصف به هؤلاء السيدات او اسند اليهن من الاقوال والافعال كان غاية في بابه في انه يرفع النفس في النساء الفتيات وربات البيوت ويحبب اليهن الفضيلة والتعقل والطهارة وسلامة النية المقرونة بالفهم وصحة النظر وبرغبتهن في كل ذلك وكل ما قيل عن امين بك وما اصابه واصاب اهله واصحابهم من الغم والحزن هو مما يكره بالبورصة وامثالها من المضاربات التي استغوت كهولنا وشبابنا. وهنا اذكر اني بعثت بهذه الرواية الى ابني في مدرسة الشوير فقرأها ولما رأته في مسامحة عيد الفصح رأيت انه اثر فيه جداً ما قيل عن امين بما كره اليه البورصة وبدأ لي منه ما يشف عن شدة احتقاره لها ولمن يتطوع جهلاً في اشغالها مع انه لا يتم الثانية عشر من عمره قبل يونيو القادم. ولا اقول واقل ما استفادته (وهو من اعظم الفائدة) انه تولد فيه مست وثقور شديد من هذه المغواة الجهنمية التي ذهبت باموال الكثير من تجارنا وابناء الاغنياء والكبراء منا

وكل ما قيل عن هنري برون هو في بابه خير للشبان والطالبة من عشرين خطاباً موضوعها في الجد وعلو الهمة والتجافي عن البذخ والاسراف وانصراف النفس الى المعالي وبذلها في الواجب وخدمة البلاد والامة والحكومة

واما بقية الاغراض العمرانية من قوة المال والمالين واسباب الثورة الروسية فيكفي الفهم اللبيب ما اودعه الكاتب فيها من الحقائق والمباحث الدقيقة مما هو غاية في بابه. وليس لي شيء اقول في انتقاد هذا الموضوع الا تحفظ الكاتب وهو ما يتطلبه العلم وحكمة السن وخير لـالكاتب ان يعرف القارى ما يريد ان يقوله من غير ان يقوله. الا اني لا انكر ميلني الى تخرج ما جاء به الكاتب في صدد الكلام عن مبدأ تنازع البقاء وبقاء الانسب الا اني بعد طول الفكرة وجدت نفسي لا اقوى بعباري على تصحيح ما قيل في هذا الباب الفلسفي الواسع الاطراف وان كنت اشعر بنفسي اني اقوى على ادراك ان هناك خطأ وشيئاً يقتضي التجريح والخلاصة ان هذه الرواية بدیعة في بابها واسلوبها البلاغي وابعائها والذي اعتقده انه

لم ينسج بعد احسن منها ولا مثلها وقد خلت من كل تضليل تاريخي يمكن ان يقع في الروايات التاريخية ووقع شيء في رواية قلب الاسد وما هو على شاكلتها من الروايات كما انها خلت ايضاً مما قد لا تخلو منه رواية فكاهية مما يحرك النفس الشهوانية او عاطفة الحب الطبيعي بما يضر الشبان والشابات ويدفعهم الى ما وراء الحد الذي لا يحمد اندفاعهم اليه . وغاية ما اقول في هذا الصدد اني لا اخشى مغبة من قراءتها على تلميذ او على ابني او ابنتي او او فجزى الله مؤلفها خيراً ولا اقول ما اقول تقريباً من كاتبها فانه استاذي بكل ما يحمله هذه اللفظة من المعنى الحقيقي للاستاذ وانا تلميذه بكل ما يجب ان تتضمنه لفظة تلميذ من المحبة والاعتبار . وليس بين الاستاذ والتلميذ اذا كانا على هذا الصورة ما يسوغ ان يتوهم فيه انه من قبيل التقرب وبجرد حب الزاني بوجه من الوجوه والسلام



مهد الجنس السامي

خطبة تليت في صيدا ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ في حفلة مدرسة الفنون الاميركانية السنوية لاعطاء شهادتها لتلامذتها المنتهين

ايها السادة والسيدات الكرام . لا اعتذر في موقفي هذا عن اني اتخذت هذا الموضوع دون غيره من بقية المواضيع وهي كثيرة لانه موضوع ساقني اليه والى البحث فيه حرفتي الخصوصية فان من درّس النحو العربي في المدرسة الكلية نحواً من خمس عشرة سنة متواليات واضطر الى قراءة آداب هذه اللغة سنين عديدة قياماً بفروض حرفته وايفاء وظيفته حقها لا بد له اذا خير من ان يختار الكلام في موضوع شبيه بموضوعي او في ما يقاربه . بل اعتقد انني وفقت في انتقاء الموضوع لا احساناً مني بل حسنة كانت من السادة والسيدات الذين يسمعون اراد الله ان يكافئهم عليها من حيث لا يشعرون ليعلموا ان جزاء الحسنة لا بضيع عنده تعالى . والا فما كان يمنعني وقد ترك لي ان اتقي الموضوع لنفسني من اني كنت اخذت علم النحو وفائدته وتاريخه وتاريخ الذين اشتغلوا به حتى وصل الى ما وصل اليه في حالته الحاضرة او علم البيان ومنافعه وتاريخ الذين ألفوا فيه كذلك . ولو فعلت ذلك فكيف كانت حالتكم ايها الكرام في اثناء هذه المدة التي لا خيار لكم فيها الا ان تسمعوا وتصفوا احتراماً للموقف العلمي الادبي الذي دعاكم الى احياء هذه الليلة الشائقة — الله اعلم ماذا كانت حالتكم ! اذن اكدوا ايها السادة والسيدات الكرام انكم مجازون عن حسنة او حسنات صدرت منكم فيما سبق وكان الجزاء اني صُرفت عن الكلام في اسهل ما يمكنني الكلام فيه وفقاً لما تقتضيه حرفتي الخصوصية على ما ألحّت اليه قلت ايها السادة اني اخترت الكلام عن موضوع له مساس بموضوع حرفتي على انه مع قربه منها بحسب الظاهر فهو بعيد عنها بعد ما بيننا وبين قلب البلاد العربية مأرب او نجران في بلاد اليمن وشبאי او ساوي في حضرموت ورياض اردوس في نجد اذا قصد الوصول الى هذه الاماكن او بعضها برأ عن طريق تيماء والحجاز : واي قرب بين النحو والبيان وما اليهما من العلوم العربية من حيث هي علوم آلية وبين مهد الامم السامية ؟ بل عند التحقيق اكثر مما صورناه بالبعد المكاني المحسوس . ولو علمتم ايها السادة ما عانيتُ من البحث والتنقيب في الآونة المتأخرة وما بذلته من الفكرة والسرير ليلاً والاستيقاظ باكراً الى متابعة درس هذا الموضوع نهائياً لقلتم جادك الله ولرايم اني استحق شيئاً من انتباهكم وتوجه اصفائكم اليّ من غير مال الى ان اكون قد فرغت من تلاوة ما كتبتُه

عليكم . والمرجح عندي أني ساحظي بهذا الفضل والمجاملة منكم
تعلمون أيها السادة ان سوريا وطننا العزيز عموماً وصيداً أقدم مدن هذا الوطن
خصوصاً كانت منذ الوف من السنين ولا تزال لحد هذه الساعة تتكلم بقرع من اللغة السامية
وبعبارة أخرى كان يقطنها شعب من الجنس السامي يتكلم باللغة السامية . ومثل صيدا صور
وعكا وحيفا ويافا وغزة وعسقلان وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد وعكار وحمص
ودمشق وسائر مدن سوريا الى ان فصل الفرات ودجلة . بل على شواطئ هذين النهرين
العظيمين قامت اشهر ممالك الازمنة الغابرة مملكتي بابل واشور . وكان الشعب السائد
والمسلط حينئذ في كل هذه الاقطار سامياً او يتكلم باللغة السامية . ومن سواحل هذه
المدينة اعني صيدا العريقة في القدم ومن سواحل صور العظيمة جلمت جاليات استعمرت
سواحل هذا البحر العظيم --- البحر المتوسط --- شمالاً وجنوباً في اوروبوا وافريقيا وحملت
الى تلك الاصقاع التجارة والصناعة والدين والآداب والعلم وكل ما يحمله الغرب الآن
الى قاب افريقيا واستراليا وجزائر الباسيفيك ان لم اقل الى قلب اسيا والاصقاع النائية
منها . وكل هذه الجاليات كانت سامية او تتكلم باللغة السامية . فمن اين جاءت هذه الشعوب
العظيمة القديمة واين كان مهدها الذي نشأت وترعرعت فيه الى ان شبت وبلغت وهاجرت
واستعمرت . وبعبارة أخرى اين كان المهد الذي نشأنا فيه نحن بقية اولئك الشعوب القديمة
العريقة في الدين والتمدن والعلوم والصنائع والمهاجرة والاستعمار وما الى ذلك من ظواهر
العز والمنعة والتغلب التي هي من دلائل التفوق والارتقاء في العقل وايضاً في الهمة والاقدام
الذين ما بعدها همة ولا اقدام

مضى على العالم قبل تاريخنا المسيحي خمسة وعشرون قرناً وصلت الينا اخبارها كتابةً
وآثاراً وما سوى ذلك قرون لا يعلم عدتها الا الله وليس في العالم المعروف حينئذ اعني
اوربا وافريقيا والشرق الادنى تجارة الا وهي في يد هذا الشعب الذي يتكلم بالغات
السامية ولا مهاجرة او استثمار الا والمهاجر والمستعمر جاليات منه ولا صناعة ولا زراعة
راقية الا ان يكون هو الصانع والزارع بل لم تكن صولة الا صولته ولا تمدن الا تمدنه
ولا علم ولا آداب الا في شعوبه وقبائله كما تشهد آثاره الخالدة الباقية الى الآن وستبقى دليلاً
على عظمة هذه الامم وشاهداً عدلاً ينطق عنها ويشهد بما كانت لها من الحيلة والوصاية
والولاية على التمدن القديم فضلاً عن التأثير العظيم الذي أثرته فيه رأساً ومباشرة ومن
بعضه ما تركته لنا يد الدهر اثرأ بعد اهل في خرائب بابل واشور والين وفي مصر ايضاً
والشام . واغلبكم أيها السادة والسيدات الذين تسمعون كلمتي هذه الليلة من بقايا اولئك

الاقوام الذين كان من صفتهم ما قد سمعتم ولا يزال فيكم على ما اعتقد عروق تنبض من همهم واقدامهم وتفوقهم . أفأيهكم اذن او على الاقل اما يجتذب سمعكم واصغاءكم الكلام او البحث في المهد الذي نشأ فيه آبائكم الاولون والمواطن الاولى التي تفرقوا منها تجاراً ومستعمرين وغزاةً فاتحين . بلى انه يهكم ذلك والا فانتم براء من اولئك الاقوام وبراء عما كان فيهم من الهمة والاقدام واقل ما يقال فيكم انه ينقصكم التشوف الى بلوغ بعض ما كان لهم من التفوق والارتقاء في مراقي العز والشرف . ولكن يابى الله والواقع ان يتوجه اليكم شيء من هذه التهمة الشنعاء فاسمعوني اذن سمع الله لكم وانتهوا الى سلسلة ابجائي انتبه اليكم طرف الدهر الراقد بمنه وكرمه ان شاء الله

لا يسعني الوقت ان اذكر لكم المذاهب التي ذهب الى كل منها فريق من اكبر علماء الآثار في الوقت الحاضر فاني لو فعلت ذلك لاقتضاني الامر ان اخطب فيه سبعة ايام متوالية كل يوم نصف ساعة على الاقل وهذا مما لا تقوون على احتماله ولا اقوى انا ايضاً على القيام به فيما لو اردته . المحت سابقاً الى الشعوب التي تركت ما تركت من الآثار العظيمة في ممالك بابل واشور وان هذه الشعوب كانت تتكلم فرعاً من اللغة السامية واقول هنا ايضاً ان الآثار تدل دلالة صريحة ان قد كان في تلك البقعة امم اخرى سبقوهم الى عمارة تلك البلاد منهم امة السومريين وكانت لغة هؤلاء الاقوام السابقين لغة اخرى بعيدة كل البعد عن اللغة السامية وكذلك كانت عوائدهم واخلاقهم وآدابهم . وهؤلاء الذين تغلبوا عليهم جاؤوا البلاد فاتحين وبنوا على انقاض تمدنهم ذلك التمدن السامي العظيم الباقية آثاره الى اليوم . فمن اين جاء هؤلاء الفاتحون . لا يمكن ان يكونوا قد جاؤوا من شرقي الفرات ودجلة ولا من شرقي خليج فارس ولا من شمالي هذه المواضع لاننا لا نعلم ولا هنالك آثار على الاطلاق تدل انه كان في تلك الاصقاع المذكورة شعب سامي بل كانت البلاد ولا تزال يسكنها الماديون القدماء والفرس ومن سواهم من امم الاكراد والتركمان او من قاربهم من فصائلهم وشعوبهم . وعليه فان هؤلاء الغزاة الفاتحين الساميين او الذين يتكلمون باللغة السامية لم يأتوا الى بلاد ما بين النهرين من الجهات التي ذكرناها

وكذلك يقال اهم لم يأتوها من اسيا الصغرى وشطوط البحر الاسود ولا من البلاد التي تتاخمها لان لغات اهل هذه الاصقاع واخلاقهم وعوائدهم وآدابهم وتمدنهم بعيدة كل البعد عن لغة واخلاق وعوائد وآداب وتمدن اهل بابل واشور المتكلمين باللغة السامية والناشرين لواء التمدن السامي واخلاق اهلهم وعوائدهم وآدابهم وانواع دياناتهم . فلم يبق لنا اذن الآن الا القول انهم جاؤوا من جهة الجنوب اعني البلاد العربية . فالبلاد

العربية هي اذن مواطن الاشوريين والبابليين الاولى والمهد الذي نشأوا فيه قبل ان قدموا غزاة وفاتحين الى بلاد ما بين النهرين وهي البلاد التي تركوا لنا فيها آثارهم الخالدة وآداب لغتهم السامية مكتوبة على اوراق من الاجر . لغة ما زالت لغة التجارة والادب والعلم والدولة في العراقيين والشام ومصر اجيالاً بعد انقراض دولتهم واستيلاء دولة الفرس الاولى على هذه الاصقاع والممالك بل كانت لغتهم هذه لغة لدولة الفرس الرسمية حتى في آسيا الصغرى حيث كان للغة اليونانية والآداب اليونانية ما كان من النفوذ والانتشار

اذا حولنا نظرنا عن شوب ما بين النهرين الى الشعوب او الفصائل التي استعمرت بلادنا هذه من شمالها الى جنوبها ومن غربها على ساحل المتوسط الى بادية السماوة والحجاز رأينا لغة تلك الشعوب عن آخرهم لغة سامية بحتة . اما العمالة في الجنوب ومن على ساكنهم من الشعوب المتاخمة العربية فقلما يشك في أنهم جاؤوا رأساً من البلاد العربية . والعقل هنا يتفق مع النقل . فان مؤرخي العرب اجمعوا عن آخرهم ان عمالة الشام القدماء جاؤوا اليها عن طريق الحجاز . واما العبرانيون واخوتهم الآديميون وابناء عمهم العمونيون والمواييون فرحلوا الى سوريا في عصر متأخر مما بين النهرين ومثلهم ارايمو دمشق ايضاً فانهم وان كانوا قد سبقوا العبرانيين الى الرحلة والاستيطان في داخلية البلاد لا يخرجون عن أنهم مثلهم اي من قح الساميين ولذلك فواطن آبائهم الاولى كانت البلاد العربية ومنها رجعوا الى ما بين النهرين وبعد استيطانهم هناك مدة لا نعلم مقدارها عادوا الى الرحلة فانتهى بهم الى سوريا ولا شك انه كان يضاف اليهم من حين الى آخر شراذم من قاب البلاد العربية ومن شمالها يرحلون اما تجاراً او على قصد النجعة اولا فتطبلهم البلاد ويزمعون على الاقامة فيها . وليس هذا بالامر المستغرب الذي لا يقبله العقل ولا هو بالنادر الذي لم يسمع بمثله او لم يتكرر في الايام بل قد تكرر مراراً . ولما شواهد كثيرة نبداً باقربها من زماننا الحاضر . من ذلك ما كان اوائل عهد المسيحية فان القسائين هاجروا الى الشام من اليمن وبعد كثير من الحل والترحال القوا عصا الاقامة في الشام وحوارن واتصلت مواطنهم من هناك الى الفرات شمالاً . وكان رحل من قبائلهم ايضاً الساسانيون والضجاعة والتوخيون والقواعة اقامتهم بالشام وفلسطين شرقي البحر الميت وجنوبية . ومن قبل ذلك ايام عزراً ونحميا كان جشم العربي يناصر طوبيا العموني وسنباط الحوراني على اليهود في اورشليم . ومن قبل ذلك في اثناء غزوات نبوخذ نصر ملك بابل كان ارميا النبي يتنبأ عن هلاك قيدار وبني المشرق الامة التي لا مصاريع ولا عوارض لها وتسكن وحدها . الامة الكثيرة الجمال والماشية المقصوصة الشعر مستديراً . اوصاف تدل على ان

ارميا النبي كان عارفاً بالعرب كما نعرف نحن الآن اهل اورشليم او اهل السلط ان لم يكن اكثر من ذلك. ومن قبل ارميا باجيال في ايام ايليا النبي اهاج الرب على يهورام ملك يهوذا صهر آخاب ملك اسرائيل روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا الى يهوذا وافتتحوا وسلبوا كل الاموال الموجودة في بيت الملك . وقبل ذلك ايضاً في ايام سليمان كان شعراء اسرائيل يرفون خيام قيدار ويشبهون بها في اشعارهم . بل في ايام شاول كان المعلقة وبنوا المشرق مناخين لاسرائيل . واقدم من ذلك بكثير اعني في ايام جدعون كان ذبح وصلناع وغراب وذئب ملكين من ملوك المديانيين والمعلقة وبنو المشرق واميرين من امراءهم . وكان هؤلاء الاقوام يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويحيثون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجلهم عددٌ فيتلفون غلة الارض من حوران فنازلاً كل شرقي الاردن حتى نجيء الى غزة

بل مخالطة عرب بلاد العرب لسوريا يتصل عهدا بايام ابراهيم وما قبله ايضاً فان اسمعيل بن ابراهيم سكن بينهم وكذلك اولاده من قطورة. وكانت طريق التجارة بين مصر والعراق من ذلك الحين وما قبله في ايديهم. وحويلة التي يذكرونها سفر التكوين في الكلام عن مواطن الاسماعيليين لا يبعد على ما ارى ان تكون بلد ابن الرشيد في جبل شمر المعروفة اليوم بمائل ولا تزال المشابهة بين الاسمين القديم والاسم الحالي واضحة جداً بحيث لا نخفى على متأمل . وقد ذكرت ما ذكرته بياناً لشدة ما كان من المخالطة بين سوريا وبلاد العرب من اقدم الازمنة التاريخية لحد هذه الساعة مما يستدل منه على ان العربية ما زالت من اقدم الازمنة المعروفة ترمي بتموجات من بينها حيناً بعد آخر على اطراف سوريا وانه وان يكن معظم شعوبها من الفرع السامي العراقي فقد كان كثير من بينها ايضاً في ذلك الزمان من الفرع السامي العربي . ارجح ان الرافثيين في عشتاروت قرنايم والوزيين في هام والاييمين في شوى قربتايم والحوريين في جبلهم صغير الى بطمة فاران التي عند البرية والمعلقة في عين مشفاط التي هي قادش والاموريين في حصون تمار والعناقين في حبرون كل هذه الفصائل كانت من الفرع السامي العربي . ولا يستبعد ذلك فان الدولة التي كانت تستولى على مصر في ايام ابراهيم وتعرف بالملوك الرعاة او الهكسوس كانت من الفرع السامي العربي وجاءت مصر عن طريق بلاد العرب . وهؤلاء القبائل والشعوب الكنعانية كانوا معاصرين لها والارجح اهم جاؤوا معها وحلوا في سوريا في اثناء الزمان الذي حلت فيه تلك الدولة بلاد وادي النيل ان لم يكن قبل ذلك « بسمع سنين » ومن اغرب الاتفاقات التي عثرت عليها ان الاحبرون او الخليل اليوم على ما ذكره

الاستاذ العلامة سايس كانت تسمى بلاد خيرى . وابن خلدون يقول نقلاً عن الطبري ما يفهم منه أن خيرى هو بطن من بطون عاد وان رئيسهم او احد امرأهم جلهمة ابن خيرى كان في جملة الوفد الذي ارساهم قوم عاد الى مكة في دوتهم الاولى للاستسقاء لهم وكانوا قد احتبس عنهم المطر ثلاث سنين فجاء الوفد ونزل على معاوية ابن بكر العادي بداعي أن هزيلة اخت معاوية هذا كانت عند نعيم ابن هزال احد الوفد . وبعد ان اقاموا اشهرأ في ضيافته انبعثوا ومضوا الى الاستسقاء وتحلف منهم لقمان ابن عاد ومروث ابن سعد . فلما رجعوا الى معاوية ابن بكر لقيهم خبر مهلك قومهم ومن جماتهم الخلعان ملكهم هلك بالريح فيمن هلك . قالوا كانت الريح من الشدة بحيث تقلع الشجر وترفع البيوت وكانت تدخل ايضاً تحت الرجل فتحمله الى الحياض وما زالت كذلك ثمانية ايام حسوماً حتى تقطع القوم وهلكوا عن آخرهم

واذا عارضنا هذا النقل بما ذكره العلامة سايس ترجح معنا الحكم ان سكان حبرون الحيريين هم قبيلة من القبائل العربية الجنوبية رحلوا في جملة من رحل للفتح ايام الدولة العادية الاولى واحتلوا حبرون وكانوا فيها معاصرين لملوك الرعاة وقد سبقوهم الى الاستيطان والتجارة في تلك الاصقاع (١)

ومثل ذلك في الغرابة والدلالة ان لم يكن اغرب وادل ان بلد امير هي من بلاد اليمن والمشابهة ظاهرة بين اميريين أي من بلاد اميره وبين الاموريين اشهر قبائل كنعان القديمة الذين اورث الله ديارهم ومساكنهم لبني اسرائيل . وكذلك نقول في حورة مدينة كندة القديمة او الحوار مدينة الاصجيين من حمير فان المشابهة تامة بين المنسوين الى احد هذين البلدين وبين الحوريين سكان ادوم وجبال الشراة قديماً قبل ان نزل عليهم عيسو ابن اسحق بن ابراهيم الخليل* على ان ما ذكرناه في شأن الاموريين والحوريين والخيريين هو على وضوحه مبني على الظن فان تكشف لنا بلاد اليمن عن كتاباتها بالخط المسند بما يرجح هذه الظنون او يثبتها فيه والا فتبقى اقرب الى القبول من غيرها من الظنون والا قويل التي عثرنا عليها الى الآن

(١) جاء في سفر العدد ان حبرون بنيت قبل صوعن بسبع سنين . فاذا فرضنا وهو المرجح ان قبيلة خيرى العادية كانت من جملة القبائل التي جاءت مع الملوك الرعاة وانها اخذت حبرون داراً لها فتكون حبرون ضرورة اقدم من صوعن لار صوعن عاصمة الرعاة لم يتخذها هؤلاء عاصمة لهم الا بعد حرب سنين لا تقل عن السبع في الراجح اخضعوا في انشائها سكان البلاد من حبرون وجنوبي حبرون الى صوعن وهذه الاشارة ظاهر دلالتها كل الظهور وتؤيد القول ان الحيريين سكان حبرون (على ما ذكر العلامة سايس) هم احد قبائل الملوك الرعاة كما ان القول في اصل الحيريين على ما سرفيه تمثيل ظاهر وبرهان واضح على صحة هذه الاشارة التاريخية

يبقى علينا من شعوب كنعان الفينيقيون اهل التجارة والاستعمار في العصور الاولى قبل التاريخ المسيحي . الشعب الذي لم يبق مثله في همتِه ونشاطِه واقدامِه وميله الى الرحلة والاستعمار في كل من نعرفهم من الشعوب القديمة بل كل منصف يتردد في تفضيل شعب آخر عليه الى الآن وان كان شعب بريطانيا العظمى . وعندى ان بني بريطانيا اهل الاستعمار اليوم واهل التجارة والسود انما يحركهم اليه من التوسع في التجارة والاستعمار بقايا ما ورثوه من هؤلاء الفينيقيين العظام فانهم اعني الفينيقيين في الراجح استعمروا كثيراً من بلاد الانكليز واختلطوا باهلها قبل العصر المسيحي . اني اقول ما اقله الان الا كما يقول المؤرخ او الاثري الثقة بل كما يقول الخطيب على سبيل التهويل لسكن في تهويله شيئاً من الصحة والحقيقة او شبه منهما

من اين جاء هذا الشعب العظيم الى سواحل سوريا واين كانت المواطن التي توطنها هؤلاء التجار المستعمرون قبل ان بنوا صيدون العظيمة وصور ملكة البحار وتاجرة العالم * ان لغتهم من لغة الفرع الارامي اعني لغة الذين شيّدوا بابل وارك واكد وكنة . ولكي لا ارجح انهم جاؤوا من بين النهرين من حيث جاء اسباطهم العبرانيون والعمونيون والموابيون واعني بالنسب هنا النسب في اللغة لا في الآباء . فمن اين جاؤوا اذن . ان اليونان ينقلون عن مواطن الفينيقيين الاولى خبراً لا نعلم ممن اخذوه ولكنهم جدير بالقبول وهم يقولون انهم جاؤوا من خليج فارس من بلاد البحرين . وبلاد البحرين على ما تعلمون جزء طبيعي من بلاد العرب . هناك اي في بلاد العرب كانوا اولاً . وفي بلاد البحرين على شواطئ خليج العجم من القطيف الى شرجة ورأس منصدم حيث جزيرتا كشم واورمز كانت مساكنهم الاولى . وارجح انهم ارحلوا من هناك اولاً الى صور وصيد في عمان واليمن . ولولا مخافة ان يقال اشتط هذا في رأيه لقلت ان القوم غزوا في ارضهم . غزاهم احد الملوك الاقدمين كما غزاهم يختصر من بعد في بلاد الشام واشتدت عليهم وطأته ووطأة دولته من بعده فهاجروا فرقة بعد اخرى فذهب من هاجر الى صور في بلاد عمان ومنهم الى صيد في جنوبي اليمن بين زبيدة ومخا كما مرّ ثم من هناك الى الدلتا في مصر اذا صح ما يقال ان في الدلتا آثاراً منهم . ثم من هناك الى شطوط فينيقية . والذي اراه بناء على ما ذكرت ان صيدون تصغير صيد باللغة الارامية او نسبة اليها فان كان الاشتقاق من التصغير فهم سموها مدينتهم بهذا الاسم اي سموها البلد الذي تزلوه اولاً باسم البلد الذي كانوا فيه وفرّقوا بينهما بالتصغير طبقاً للواقع لان البلدة التي بنوها كانت اصغر من التي هاجروا منها . وان كان الاسم من النسبة فالتسمية كانت من القوم الذين تزلوا بينهم كما يسمّى

من هاجر صيدا الى قرية من قرى مرج عيون او لبنان مثلاً بالصيداوي وهو معروف شائع من الوف سنين الى الان . فان قيل لم زعمت انهم هاجروا اولاً الى عمان وجنوبي اليمن . قلت لانه في بلاد عمان اسم صور ولا يزال في جنوبي اليمن شمالي باب المندب اسم صيدٍ لبلدٍ ووادٍ وجبلٍ وثقلٍ (اي طريق صسر تكاد لا تسلكه الدواب) ولا يزال قوم يعرفون بالصيّد اي من اهل صيد متفرقين في غير مكان من بلاد اليمن . وهذه الاسماء عريقة في القدم مثل كل اسماء البلاد العربية ولا يخبرنا التاريخ ولا التقليد ان اهل هذه الاماكن رحلوا اليها من بلاد اخرى بخلاف صور وصيدا في فينيقية فانا نعرف من التقليد المتواتر ان لم نقل من التاريخ ان اهل صور وصيدا جاؤوا اليهما من البلاد العربية . والذي نعرف عن العرب (وعن غيرهم من الامم ايضاً) انهم اذا استجدوا داراً وعمروا فيها مدناً سموا تلك المدن باسماء مدنهم الاولى التي كانوا فيها . ولا يزال كثير من مدن اسبانيا التي استجدها العرب شاهداً على ما ذكر فانهم سموها باسماء مدن الشام التي كانوا فيها اولاً

فان قيل ان لغة الفينيقيين هي من الفرع الآرامي فكيف مع هذا رجحت انهم جاؤوا من بلاد العرب . قلت ان مواطنهم الاولى كانت في البحرين على الخليج الفارسي . وهذه المواطن ابدأً يتنازعها الفرعان الساميان العربي الى الجنوب والغرب والآرامي الى الشمال واكثر ما كان النفوذ الغالب فيها النفوذ الآرامي . ومن المتواتر على لسان العرب ان اهل البحرين بنط استعربوا . ويؤخذ من هذا انهم كانوا يعلمون ان النبطية اي الآرامية كانت الغالبة في الازمنة الاولى على ارض البحرين . وفي هذا تعليل مقبول على ان اهل صور وصيدا هاجروا من بلاد العرب وكانت مع ذلك لغتهم من الفرع الآرامي بقي علينا الاحباش على العدوّة الثانية من البحر الاحمر فان فريقاً منهم يتكلمون لغة هي اقرب الالهجات السامية الى اللهجة العربية وهم الغالا (على ما ارجح) وفريق آخر وهم الامهريون يتكلمون لغة تداخلت فيها اللغة السامية ولكن كثرتها لغة الاقوام الاصليين وهي لغة حامية محضة حتى غلبت عليها فلا يظهر فيها العرق السامي الا بعد الروية وامان النظر . واذا نظرنا الى اولئك الذين يتكلمون الحبشية العربية رأينا انهم قلائل عدداً بالنسبة الى الامهريين وبالنسبة ايضاً الى بقية امم الحبشة وافريقيا الذين هم من اصل حامي . ولا يعلى ذلك تعليلاً يقبله العقل الا بان العرب في زمن بعيد جداً تزحّت منهم نازحة كثيرة العدد فحفظت لذلك لغتها عن ان تغلب عليها لغة الحاميين الافريقية . لكن نشط من هذه النازحة ناشط او جاء هذا الناشط من البلاد العربية رأساً فسكن بلاد

الاماهرة وكان له عليهم الغلبة والسودد لارتقائه في سلم المدنية ثم امتزج مع الاهلين على عادة الساميين. ولقلة عدده كثرة القوم ففرقت لذلك لغته وملاحة في لغة الاماهرة وملاصحتهم حتى لا يكاد يبين. ومثل ذلك يقال في لغة مصر القديمة فان اهل الثقة من علماء اللغات يرون في لغة وادي النيل عروفاً او تكييفات احدثتها قبانة او ممازجة من اللغة السامية فيها ولا يعمل ذلك الا بان هذا الجنس يمثل المدنية الاولى في العالم كانت له غلبة يوماً على مصر وهذه الغلبة في الراجح اقدم من غلبة دولة الرعاة بكثير. ثم تلا هذه الغلبة غابات. منها غلبة الهكسوس المعروفة في التاريخ والناطقة بها آثار مصر. ومؤرخو العرب مع اختلاط اخبارهم وكثرة التشويش فيها يشف كلامهم ونقولهم عن غير غلبة للعرب على بلاد الفراعنة. من ذلك غلبة او غابات في ايام الدولة العادية وغلبة في ايام الدولة الحيرية او السبائية او النوبية وخلاصة القول ان اللغة السامية المنتشرة كانت يبلاد العرب مهدها الاول الذي نشأت فيه قبل الفتح الاسلامي بين الفراتين وخليج العجم شرقاً وشمالاً والنيل والبحر المتوسط غرباً وبحر العرب جنوباً مع ما ياجئ بذلك من شواطئ شمالي افريقية. فبلاد العرب هي اذن مهد الجنس السامي ومنشأ المدنية الاولى ولا يزال فيها على رغم ظواهر الانحطاط والتأخر البادية عليها كل مقومات تلك المدنية ولا يمنع من ظهورها الا ضغط عليها من الخارج لا يلبث ان يزول عنها حتى تسطع شعلتها للمرة الثالثة كما سطعت المرة الثانية ايام الفتوحات الاسلامية



اصل النبط في البتراء

بين البحر الميت (بحيرة لوط) وخليج ايلة (العقبة) منخفض من الارض يبلغ طوله نحواً من مئة ميل : وهذا المنخفض يعرف بالفور وقد يطلق عليه وادي العربية بال او بدونها. وعرض هذا الوادي بين اربعة اميال واربعة عشر ميلاً : وهو قفر بالغ قليل النبات شديد الحر . والى شرقيه سلسلة جبال ادوم المعروفة قديماً بجبل سعيّر وتعرف اليوم بجبال الشراة وجبال الشوبك

في هذه الجبال في منتصف المسافة تقريباً بين البحر الميت وبين خليج العقبة موقع مدينة بترا (البترا) وهي مدينة سالع القديمة عاصمة الادوميين قبل ايام نبوخذ نصر وتعرف خرائطها اليوم باسم وادي موسى

ان المسافر من الشام الى العربية جنوباً يصل الى هذه المدينة ولا يراها بل لا يرى الا الجبال المحيطة بها . وفيما هو لا يرى الا تلالاً تحييه وتلالاً تذهب يقع بينها - وكانما بقعة على مطمئن من الارض اذا بلغ مظاهرها وقع على سلع او شق او شج بين هذه الجبال وهذا السلع تعلوه الصخور عن جانبه كالجدار الى ما يبلغ نحواً من ثلاثمئة قدم او يزيد احياناً . وعرضه لا يتجاوز في كثير منه بضعة امتار وطوله نحو من الف متر الى الفين وخمسمئة فاذا انتهى المسافر الى آخر هذا السلع انكشف امامه مطمئن او قاع من الارض تعلوه الجبال من جميع جهاته . واتساع هذا القاع شرقاً غرب ينحرف الى الشمال نحو من ثلثي ميل وشمالاً بجنوب ينحرف الى الغرب نحو من ميل ونصف الميل . في هذا القاع كانت سالع الادومية او بترا النبطية مدينة الغنى والتجارة مئات من السنين

لمن كانت هذه المدينة اولاً

قلنا ان موقع المدينة في منبسط من جبال الشراة وهي الجبال المعروفة في التوراة بجبل سعيّر . وكان يسكنها قديماً قوم يعرفون بالحوريين والظاهر ان سعيّر كان اميراً على اولئك الاقوام وبه سمي الجبل سعيّر . اما من كان هؤلاء الحوريين ومن اين جاؤوا فارى انهم من القبائل العربية الجنوبية اهل اليمن وحضرموت وقد جاؤوا البلاد غازين مع من جاء من القبائل العديدة التي غلبت على سوريا ومصر وكان منها الدولة المعروفة بدولة ارام او دولة الهكسوس في بلاد مصر . فان هذه القبائل تغلبت كما ارى على معظم سوريا لذلك الحين كما تغلبت على مصر واقتسمت البلاد فنزلت كل قبيلة منها في ناحية كان لها السيادة

عليها على شاكلة ما كان في ايام الفتوحات العربية الاسلامية وارى ايضا ان اصل الحوريين من الين او من حضرموت من قرية او مدينة من مدن تلك البلاد فنسبوا اليها تمييزاً لهم عن غيرهم من بقية قبائل الين وحضرموت

وبعد ان استوطن الحوريون البلاد والامارة فيهم لا لسعير ولبنوا فيها حتى سميت الجبال باسمهم وعرفت البلاد انها بلادهم جاءت القبيلة العبرانية الشهيرة اعني قبيلة ابراهيم الخليل ونزلت البلاد غربي الاردن وكانت تتردد فيها من شكيم في الشمال الى يير سبع في الجنوب ولما كانت هذه القبيلة العبرانية دخيلة على من سبقها الى البلاد من القبائل العربية الجنوبية كان لا بد لها بحكم الضرورة والعادة من ان تحالف من كانت تنزل في جواره من الامراء والرؤساء وهكذا جاء النص صريحاً في سفر التكوين ان ابراهيم الخليل حالف عازر واشكول ومرا في حبرون وابيما ملك ملك الفلاستينيين في جرار على مقربة من يير سبع. وجاء ايضا في السفر نفسه انه اي ابراهيم اعطى عشرة من كل شيء لملك صادق ملك شاليم بعد ان رجع من محاربة كدرامور ملك عيلام. وبالاجمال كانت القبيلة في اول امرها كما يقول الكتاب غرباء ونزلاء لا يملكون في البلاد شبراً من الارض ولعل حقل المكفيلة في حبرون كان اول قطعة من الارض تملكوها بجوار المدين او القرى الكبيرة اشتراها ابراهيم من عفرون بن صوحر الحثي باربعمئة شاقل من الفضة مدفناً ليدفن فيه سارة زوجته

الا ان القبيلة لم تلبث كثيراً في البلاد حتى انقسمت الى قسمين انحاز احدهما الى لوط (ابن اخي ابراهيم) وبقي الآخر وهو اكبر القسمين في الراجح مع ابراهيم وتحت رئاسته فهد ذلك من ابراهيم وقت في ساعده حتى هم ان يعود الى مصر مخافة ان تخطفه امراء البلاد الكثيرون ولم تطمئن نفسه الا بعد ان ظهر له الله وطيب خاطره بان وعده ان يعطيه البلاد له ولنسله من بعده. ومع ذلك ترك البلاد في جهات نابلس حيث كان وارتحل الى الجنوب واقام عند بلوطات ممرا وربما كان ذلك بعد ان استوثق من عازر واخويه اشكول وممرا وهم امراء الديرة في حبرون وجوارها بحلف عقده معهم. وارجح ان ابراهيم فضل الإقامة بين حبرون ويير سبع بعد انفصال ابن اخيه عنه لما أنس في نفسه من الضعف بعد ذلك الانقسام ولان البلاد في جهات نابلس كانت اكثر ساكناً وامراء نخاف من ثم كثرة التقاضي على المرعى والجوار بكثرة الامراء بخلاف البلاد بين حبرون ويير سبع فانها كانت اقل ساكناً وامراء فضلاً عن انها اقرب الى البرية حصن اهل الخيام الذي يدفع عنهم تمدّي اهل المدن واطماعهم

والظاهر من سفر التكوين (وهو في رأي تاريخ لامراء هذه القبيلة ابراهيم واسحق

وبعقوب قصداً ومن كان له علاقة بهم كلوط وعيسو عراً كتيبه يوسف بعدان صار وزيراً لفرعون ومسلاً على ارض مصر ان لو طاً لما لم يبق له مطمع بالاستقلال مع الكنعانيين ورأى نفسه مكشوراً منهم مغلوباً لعصبيتهم سواء سكن المدن او الخيام اخذ الى الحضارة ووطن نفسه على مخالطة القوم والسكنى بينهم مقهوراً فسكن من ثم في سدوم مستضعفاً لا يقوى على حماية ضيفه من تعدي السفهاء ولا ان يدفع عنهم سفالة الغوغاء

واما ابراهيم فكان اشد شكيمه من ابن أخيه واكثر مالاً وتابعاً منه فلم ير مارآه ولا انكسر انكساره ففضّل من ثم سكنى الخيام على سكنى المدينة وبقي يتنقل في البلاد تارة ينزل في جهات حبرون واخرى في جهات بير سبع

وطالت غربته في كنعان وامتدت به الايام ولم يتغير عن عزه الاول في ارادة الاستقلال عن اهل البلاد وترك مخالطتهم ولعل السبب في ذلك انه كان اعرق في البداوة من اولئك الكنعانيين فكان من ثم لا تعجبه اطوارهم وبأنف من كثير من آدابهم وعوائدهم وفقاً لما رآه حتى الساعة من مجافي امراء البادية عن المدن وانفهم من كثير مما فيها وفي اهلها. ولعله فضلاً عن منصبه الديني كان يرى بيته وان كان نزيراً على الكنعانيين اكرم محمداً واعلى شرفاً من بيوتاتهم. وما زال هذا الفكر شديداً في نفسه الى ان مات سارة اميرة قومها وسيدة عقيلات القبيلة عن آخرهن

فبعد موتها اغضى شيئاً عن انفته السابقة وانكسرت حدة ما كان يراه من التفاوت بينه وبين الكنعانيين بدليل انه مال الى مصاهرتهم واخذ قطورا احدى بناتهم زوجة له. على انه وان يكن قد رضي ان يأخذ لنفسه زوجة من بنات كنعان لم يرض ان يأخذ منهم لابنه اسحق لانه كان يراه الوارث الشرعي لامارة القبيلة وفيه عزها وبقاء ميزها لان سيادتها كانت تحيط به من جانبيه دون بقية اخوته ولذلك ارسل الى عشيرته والى بيت ابيه فخطب له من هناك اميرة من بنات عمه رفقة ابنة بتوئيل بن ناحور اخي ابراهيم

وكبر بيت ابراهيم وكان له غير اسمعيل واسحق اولاد كثيرون من قطورا ومن حجين او رعوة على قول بعض المؤرخين (انظر ابن خلدون جزء ٣ وجه ٣٨ و٣٩). وحدث فيه من الفرق ما يحدث عادة في امثاله من بيوت رؤساء القبائل الشرقية فذهب اسمعيل في جهة ومعه قسم من القبيلة في الراجح وابناء قطورا في جهة اخرى ومعهم قسم آخر وكذلك ابناء رعوة او حجين. الا ان معظم القبيلة بقي مع اسحق في جهات بير سبع فانه كان يفضل الاقامة هناك في جوار الفلسطينيين كما كان ابوه يفضل حبرون وجوار بني حث. وعقد

اسحق حلفاً مع ابيالك ملك جرار وكان ابراهيم ابوه من قبل قد عقد حلفاً مع ابي ابيالك هذا على الارجح

قلنا ان ابراهيم كان يرى في اسحق الوارث الشرعي لرئاسة قبيلته وانه كان يربأ بنفسه عن مخالطة الكنعانيين ومصاهراتهم فارسل من ثم عبده الى بيت ابيه في ارام النهرين وخطب له ابنة عمه رفقة فولد له منها ولدان توأمان هما عيسو ويعقوب ولما كبر الولدان وقمت المغاربة والمنافسة بينهما على رئاسة القبيلة . وكانت الرئاسة لعيسو لانه البكر وكان اسحق ابوه يحبه ايضاً ويفضله على اخيه الا ان رفقة كان هواها مع يعقوب فعملت معه على كيد عيسو وبجيلتها صرفت عنه بركة ابيه فخر ذلك في نفسه واشتد الخلاف بينه وبين اخيه . وكان عيسو على ما ارى محبباً الى القبيلة وهواها معه فلما عظم الخلاف بينه وبين اخيه كما اشرنا اليه وبلغ الامر غايته تخوف يعقوب على نفسه وعلم ان لا بقاء له مع اخيه ورأت رفقة امه ايضاً حرج حالته فارسلته الى فدان ارام الى بيت خاله لابان

وبعد ان هرب يعقوب الى فدان ارام انفرد عيسو برئاسة القبيلة وكانت بير سبع حيث يقيم هو وقبيلته قريية من جبل سعين (جبال الشراة) فتعرف عيسو بامرائها من آل سعين وخطب منهم احدى بناتهم واسمها اهو لييامة فزوجوه وحالفوه فترك بير سبع ونزل عليهم في ديارهم فاشتملوا عليه واختلطت القبيلتان ومع الايام كثر آل عيسو آل سعين وغلبوا عليهم حتى تموسي امر الحوريين واصبحت البلاد خالصة للادوميين وتسمت باسمهم ايضاً ولم يبق من اثر لامراء آل سعين الحوري الا الحيل ما زال يعرف باسم امرائه الاولين مثاث من السنين بعد انقراضهم ولا يزال علماء الكتاب والتاريخ يعرفونه بهذا الاسم وهو اشهر عندهم من الشراة لحد هذه الساعة

ظهر لنا مما مر ان البلاد كانت اولاً للعرب الجنوبيين المعروفين باسم الحوريين وانهم كانوا من جملة القبائل التي غزت سوريا ومصر في ايام دولة الرعاة المشهورة في مصر ثم غلبهم عليها الادوميون نحو ١٥٠٠ قبل المسيح . والادوميون هم ابناء عم اليهود كالعرب الاسماعيليين الا انهم اقرب اليهم من هؤلاء فانهم اخوتهم من اسحق ابن ابراهيم وسارة والاسماعيليون ابناء عمهم اسمعيل ابن ابراهيم من هاجر جارية سارة كما هو المتعارف والمشهور

كم من الزمان بقيت جبال سعين ودينتها الحصينة سالم (البزاة) في يد الادوميين

بعد ان خرج الاسرائيليون من مصر وبقوا المدة المشهورة في التيه جاؤا اخيراً الى قادش فارسل موسى من هناك رسلاً الى ملك ادوم يقول فيها

« هكذا يقول اخوك اسرائيل قد عرفت كل المشقة التي اصابتنا . ان آباءنا انحدروا الى مصر واقفنا في مصر اياماً كثيرة واساء المصريون الينا والى آباءنا فصرختا الى الرب فسمع صوتنا وارسل ملاكاً واخرجنا من مصر وها نحن في قادش مدينة في طرف تخومك دعنا نمر في ارضك » الخ

وظاهر جلياً من هذه الرسالة ان الادوميين كانوا لذلك الحين قد استولوا على البلاد ولم يبق معهم اسم للحيوريين ولا ذكر لامرائهم من آل سعيرواصبحت البتراء (سالم) قرية من قرايم او مدينة من مدنها لكن لم يتم هذا الاستيلاء للادوميين الا بعد ان جرت بينهم وبين اخوانهم حروب شديدة كانت الدائرة فيها اخيراً على آل سعيرو فانجلبوا عن البلاد وغادروها ملكاً لآل عيسو يتولاهاملك منهم يرجع اليه امر بقية الامراء والرؤساء ويدينون له بالطاعة . كل ذلك تم وابناء عمهم آل يعقوب كانوا لا يزالون في مصر (انظر سفر التثنية ص ٢ : ٢١ و ٢٢)

وخرج الاسرائيليون من مصر وجاؤا بلاد كنعان فخابروا الاموريين وغيرهم من القبائل الكنعانية شرقي الاردن وغربيه ولم يتعرضوا اولاً لانسباهم من القبائل العبرانية اعني الادوميين والموايين والمعمونيين وكانوا لذلك الحين قد رسخت قدمهم في البلاد واقتطعوا لهم نصيباً معيناً فيها

والذي اراه ان هذه القبائل التي ذكرناها كان ضاعها مع الاسرائيليين لما يعرفونه لهم من القرابة في النسب ولما كان بينهم وبين جيرانهم القبائل الكنعانية من الحروب والعداوات (راجع تثنية ص ٢) . واستمر الادوميون في بلادهم لا ينازعهم منازع في ارضهم ولا يطمع في اخضاعهم احد من جيرانهم الموايين والاسرائيليين الى ايام شاول اول من ملك على بني اسرائيل . فلما ملك وانضوى اليه الاسباط الاثنا عشر — وكانوا من قبل قد تفرقت كلمتهم وانخفضت شوكتهم — أدى ذلك الى التحكك بالقبائل المجاورة ومن جملتهم الادوميون (انظر صموئيل الاول ص ١٤ : ٤٧) فجرت مناوشات بينه وبينهم ولا يبعد ان يكون سبب ذلك ان الادوميون انتصروا للمالقة على شاول او انهم تعدوا على حدود الاسرائيليين الجنوبية حيث تناس تخوم سبطي يهوذا وشمعون بتخوم الادوميين ومهما يكن من سبب تلك المناوشات التي اجراها شاول فلخرج انها كانت من قبيل الدفاع عن التخوم دفعاً لعادية الادوميين لا من قبيل الطمع في اخضاعهم فانهضى من ثم ملك شاول ولم يكن كبير امر بين اسرائيل وادوم

فلما ملك داود واجتمعت اليه كلمة الاسباط الاثني عشر واخذ اورشليم عنوة من

اليوسيين وجعلها داراً للملك راع ذلك الامم المجاورة ولا سيما الفلسطينيين وتحوفوا عاقبته عليهم فناصروه العداءة وفتحوا عليه ابواب حرب شديدة الا انها لم تغلق الا بعد ان ذلوا وتركوا له ما كانوا استولوا عليه من بلاد اسرائيل في ايام شاول وما قبله ايضاً

وكان الادوميون من جملة الامم الذين حاربوا داود ولا نعلم ماذا كان سبب تلك الحرب الا ان يكون المزاحمة التجارية والظاهر ان الادوميين ضايقوا داود اولاً بدليل ما ورد من الاشارات في منظوماته ومن تلك الاشارات ما جاء في المزمور ١٠٨ فانه يقول فيه من يقودني الى المدينة المحصنة من يهديني الى ادوم اليس انت يا الله الذي رفضتنا ولا تخرج يا الله مع جيوشنا اعطنا عوناً في الضيق فباطل هو خلاص الانسان . بالله نصنع لباس وهو يدوس اعداءنا »

ولاشك انه يشير بالمدينة المحصنة الى سالع (البتراء) وهي من احصن مدن البلاد وقل ان تكون مدينة احصن منها --- كما يتبين من اللوحة التي وصفنا بها موقعها في أول مقالتنا هذه --- الا ان الغلبة كانت اخيراً لداود فأنه التقى بالادوميين في وادي الملح الى جنوبي بحيرة لوط وقد جمعوا له قواتهم عن آخرها فسير اليهم ابشاي بن صروبة اخته وكان من نخبة قواده ونشبت بينه وبينهم معركة من اعظم المعارك واشدها هولاً فأسفرت عن ثمانية عشر ألفاً قتلى من الادوميين وهذه المعركة هي المعركة الوحيدة التي في تاريخ داود انه نصب لها تذكاراً وكان من نتيجتها ان الادوميين ذلوا لداود واستعبدوا له فوضع له محافظين في ادوم كلها وضرب عليهم جزية ما زالوا يؤدونها له ولا عقابه الى ان قام يهورام ابن يهوذا فطاعهم عصوا يهوذا في ايام هذا الملك ورجع اليهم استقلالهم مدة الى ان اخضعهم امصيا احد ملوك يهوذا لانهم عادوا الى استقلالهم وما زالوا على ذلك الى ايام نبوخذ نصر ملك بابل الذي افتتح اورشليم وسبي معظم اهلها الى عاصمة بلاده في اوائل القرن السادس قبل المسيح

وخلاصة ما ذكرناه ان سالع (البتراء) بقيت في حوزة الادوميين مدة تزيد عن الالف سنة قام في اثنائها ملوك كثيرون على ادوم وكثيرون من هؤلاء ملوكوا في ادوم قبل ان يملك ملك على بني اسرائيل . وامتد نفوذ الادوميين في اول امرها وفي آخره قبل غزوة نبوخذ نصر الى يهوذا وفلسطين فبلغ الحجاز ونجداً شرقي المدينة (بئر) وشمالها وكانت طريق القوافل تمر عليها من العربية السعيدة جنوباً وخليج فارس شرقاً فكثرت بذلك غنى اهلها وعظم جاههم فاشتدت كبرياؤهم ولا سيما على اليهود جيرانهم وابناء عمهم في اورشليم واليهودية فحز ذلك حتى في نفوذ الانبياء منهم وانذروهم بسوء المصير . قال ارميا النبي

يخاطب الادوميين . قد غرك تخويفك كبرياء قلبك يا رسا كن في محاجىء الصخر الماسك مرتفع الكمة . وان رفعت كنسر عشك فن هناك احدرك يقول الرب وتصير ادوم عجباً كل مار بها يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها (ارميا ص ٤٩)

وقال حزقيال — هكذا قال السيد الرب من اجل ان ادوم قد عمل بالانتقام على بيت يهوذا وأساء اساءة وانتقم منه لذلك هكذا قال السيد الرب وامد يدي على ادوم واقطع منها الانسان والحيوان واصيرها خراباً من التيمن والى ددان يسقطون بالسيف (حزقيال ص ٢٥ : ١٢ و ١٣)

وقال حزقيال ايضاً . هكذا قال السيد الرب هانذا عليك يا جبل سعيير وامد بدي عليك واجعلك خراباً مقفراً . اجعل مدنتك خربة وتكون انت مقفراً وتعلم اني انا الرب لانه كانت لك بغضة ابدية ودفعت بني اسرائيل الى يد السيف في وقت مصيبتهم وقت اثم النهاية لذلك حي انا يقول السيد الرب اني اهيئك للدم والدم يتبعك . اذا لم تكره الدم فالدم يتبعك فاجعل جبل سعيير خراباً ومقفراً واستأصل منه الذاهب والآثب (حزقيال ص ٣٥)

وفما نقلته شاهد لا يرد على ان الادوميين كانوا سكان جبل سعيير الى ايام حزقيال وارميا وان ذلك الجبل كان فيه غير مدينة من جملتها صالح (البترا) وان الادوميين كانوا متبسطين فيها وراء جبل سعيير وان البلاد من تيمان الى ددان كانت خاضعة لهم او على الاقل كانت تمر بها قوافلهم وتجاراتهم لا يعارضها اهل البلاد من العرب اما لحلف كان لهم معهم او رهبة من سطوتهم وخيفة من انتقامهم

اما تيمان المشار اليها في حزقيال فواقعة الى الجنوبي الشرقي من البتراء ولعابها هي تيماء الحالية الى شمالي مدائن صالح. واما ددان فارجح انها دد التي يشير اليها الشاعر العربي بقوله
كان حُدُوج المَالِكِيَةِ غَدْوَةً خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوْاصِبِ مِنْ دَدٍ

ودد موضع بسيف كاظمة من ارض البحرين والالف والنون فيها مزيدتان للنسبة كما في عبادان ومهلان وجيران ومحمدان وزبادان وعمران وخالدان وعبد الرحمان نسبة الى عباد ومهلان وجبير ومحمد وزباد وعمر وخالد وعبد الرحمان على طريقة البصرة

بقي علينا في مقالتنا الحاضرة سؤال نسأله ونحيب عليه تأسيساً لما بينى عليه كلامنا في المقالة التالية التي تأتي فيها على ذكر الانباط واصلهم تمة للبحث الذي نحن فيه والسؤال هو من هي القبائل او الامم التي كانت تسكن سوريا وجبال الشراة في ايام نبوخذ نصر. والجواب ما يأتي

- (١) الاراميون في دمشق وتوابها وفي أيلة على البحر الاحمر
- (٢) اليهود اعني سبطي يهوذا وبنيامين ومن بقي في البلاد من بقايا الاسباط العشرة
- (٣) السمرة في نابلس وجوارها
- (٤) العمونيون
- (٥) الموافيون
- (٦) الادوميون
- (٧) الدينيقيون اهل صور وصيداء والمالحقات بهما
- (٨) الفلسطينيين في غزة وعسقلان واشدود
- (٩) العرب

(١٠) اخلاط من الكنعانيين على اختلاف قبائلهم

هذه هي الشعوب التي كانت في البلاد عند ما غزا يوحنا نصر سوريا وارض كنعان وافتتح اورشليم . وسرى في المقالة التالية اسم الانباط والنبطيين زيد على هذه الاسماء المارة وعرف في ايام خلفاء الاسكندر ونذكر اذ ذاك ما يتعلق باصنامهم والبلاد التي جاؤوا منها قامت الدولة الاشورية الثانية وغلبت على البلاد البابلية كما غلبت عليها الدولة الاولى من قبل فصارت بابل مدينة ولاية لا عاصمة مملكة وحاولت غير مرة أن تسترد استقلالها فلم تفجح . وقسا عايتها ملوك اشور سرجون وسنجاريب واشور بانديال ولاسيما سنحاريب فانه ذلك اسوارها الى اساساتها وهدم قلاعها واحرق المدينة بالنار لم يشفق على شيء ولا رعى حرمة شيء . وان كان مقدساً بل حرق وهدم حتى المعابد والهيكل فلم يبق ولم يذر . ومع ذلك أعيد بناؤها في ايامه فعادت إلى العظمة التي كانت لها بعد زمن قصير . ثم اخذت الدولة الاشورية تضعف . واسباب ضعفها معلومة فاتها الظلم والعنف وهو الامراء والكبراء وانهم كره في المعاصي والشهوات ودوسهم الشرائع وكل ما هو مقدس تحت اقدامهم . فبشر الغاللين الغناء الباغين ان استدراجهم لا يدوم ولا بد أن يبلغ الكتاب أجله

كان نبو بلاسر والياً على بابل من قبل ملوك نينوى ورأى ماصاروا اليه من الانهماك في المناسي والشهوات كما رأى ذلك امراء مادي وفارس فهدم حلفاء على اكتساح الممالك الاشورية فشققوا عصا الطاعة وزحفت جنود البلادين على نينوى ومازالوا على حصارها حتى اقتتحوها عنوة وعادوا عنها وقد فلقوها وزرعوها ملحاً واقسموا ملحقاتها فوقعت البلاد غربي انفرات للبابليين

إلا ان شعوب سوريا وفلسطين كانت تطمع في عود استقلالها اليها او شيء منه وكانت

مصر أيضاً قد انتبهت من خولها وقام عليها ملوك فيهم همة ولهم مطامع ومنهم فرعون نخو
 قطع هذا في استرداد ما كان للفراعنة من النفوذ في بلاد الشام واقطع قسم كركيش
 على الفرات . والظاهر ان شعوب سوريا وفلسطين من ادوميين وموآبيين وعمونيين
 واراميين انحازوا اليه إلا بوشيا ملك يهوذا فانه بقي على ولائه للاشوريين فتصدى لمعارضة
 نخو إلا انه قتل في مجدو في جهات الجليل . وعاد نخو من ارض ربة في حماه فر على
 اورشليم وعزل يهوآحاز الذي كان قد ملك مكان أبيه وارسل به اسيراً إلى مصر فمات
 هناك وملك اخاه يهوآقيم بدلاً منه وغرم الارض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب
 ولما رأى نبو بلاسر ما رأى من تحالف ممالك الشام وانحيازهم الى جانب الفراعنة عقد
 اللواء لابنه نبوخذ نصر وجعله قائداً اكبر للجنود البابلية فسار نبوخذ نصر حتى جاء الى
 كركيش حيث كانت جنود المصريين فاشتبهت بينه وبينهم معركة هائلة فاز فيها نبوخذ
 نصر فوزاً مبيناً وارتنو نخو منهزماً لا يولي على شيء فوضع نبوخذ نصر يده على كركيش
 وجعل فيها حامية من قبله ثم تعقب المنهزمين الى سوريا وفلسطين

والظاهر ان اغلب شعوب هاتين البلادين انخلعت قلوبهم بعد واقعة كركيش فاذعنوا
 بالطاعة لنبوخذ نصر لم يبدوا كبير مقاومة الا صور لشدة ما كان بينها يومئذ وبين المصريين
 من استحكام علائق المودة والمصافة . فان فرعون نخو هذا على ما يذكرون قرب
 السوريين اليه وجعل منهم رؤساء لعمارة له طافوا فيها حوالي افريقيا فقرأوا برأس الرجا
 الصالح ثم داروا من هناك شمالاً حتى وصلوا بوغاز جبل طارق ومنه الى السويس . وفوق
 ذلك كان هذا الملك وصل بترعة بين السويس والبحر المتوسط وحول الى السويس تجارة
 الهند واليمن وشواطئ افريقيا على البحر الاحمر وكل شواطئ الزنج من باب المندب الى
 الموزمبيق فمات بهذا التحويل تجارة ايلة وعاش السويس فأنحصرت من ثم ارباب هذه
 التجارة الواسعة بين المصريين والصوريين ولذلك يهمهم ان تكون الغلبة لمصر او اقله
 يبقون على استقلالهم وتبقى علائقهم مع المصريين على ما كانت عليه

وجاءت جنود نبوخذ نصر اول مرة الى اورشليم فلقاهم اليهود بالطاعة والاذعان
 ونبذوا عنهم ولاء المصريين إلا أنهم بعد ارتداد الحيوش الكلدانية الى بابل واشتغال
 نبوخذ نصر عن الشام باطفاء بعض الثورات الداخلية عادوا الى ولاء مصر وطعموا
 بنصرتها فاتقصوا على نبوخذ نصر فبعث هذا غزاة من الكلدانيين انضاف اليهم غزاة
 من الموآبيين والعمونيين والادوميين والاراميين فضايقوا اليهود . ومات في تلك الاثناء
 ملكهم يهوآقيم وملك ابنه يهوآكين مكانه فلم يلبث إلا ثلاثة اشهر ثم استسلم هو وامه

وعبيده ورؤساؤه وخصيائه لنبوخذنصر . وسبى نبوخذ نصر كل اورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس وجميع الصناع والاقيان لم يبق إلا مساكين شعب الارض وملك عليهم صدقيا عم يهوياكين

وعاد نحو في ايام صدقيا الى مراسلة اليهود واغرائهم بالعصيان وان يكونوا يدأ واحدة على ملك بابل ومال الى جانب المصريين اكثر الامم المجاورة لليهود ايضا . وكان في اليهودية حزبان احدهما لنبوخذ نصر واشهر رجاله ارميا النبي وحزب آخر للمصريين كان فيه اكثر العظماء والرؤساء فغلبوا على الملك صدقيا فلم يبق على مخالفتهم فيما لو اراد واشتدت الفتنة في السنة التاسعة للملك وجهروا بالعصيان فعاود نبوخذ نصر الكرة عليهم ونزلت جيوشه على اورشليم وشددوا عليها الحصار . وكان الملك وحزبه ينتظرون من حين الى آخر قدوم المصريين لمساعدتهم فخابت آمالهم وعضهم ناب الجوع والفشل فلم يبق فيهم قوة للمدافعة واخذ كثيرون يتسللون الى الكلدانيين

وعلى ما يظهر لي من مراجعة سفر ارميا ص ٣٨ و ٣٩ ومن مراجعة خبر حصار اورشليم وافتتاحها في سفر الملوك الثاني ان حزب ارميا النبي قوي في آخر مدة الحصار حتى ان صدقيا الملك كان يحدث نفسه بالانضمام اليهم ولكنه كان ضعيف الهمة متردداً لا عزيمة له وما زال يسوف الامر حتى خرج من يده وغلب حزب ارميا وفتحوا المدينة للكلدانيين فلم يشمر صدقيا إلا ورؤساء ملك بابل في المدينة في الباب الاوسط فلما رأهم صدقيا هو وكل رجال الحرب هربوا وخرجوا ليلا من المدينة في طريق جنة الملك من الباب بين السورين وخرج هو في طريق العربى ولكنه أدرك في عربات أربحا واخذ من هناك الى ربلة في ارض حماة حيث كان نبوخذ نصر فحاكموه امامه وحكموا عليه ان يقتل بنوه على مرأى منه ثم تقفأ عيناه ويقتل بساكتين ويرسل الى بابل

والظاهر ان حزب ارميا كان يطمع بنجاة المدينة اذا هم سلموها للكلدانيين فتسلم من الحريق والتخريب اقله بيوتهم واموالهم ولكن بدا لنبوخذ نصر قاهر بدك اسوار المدينة وهدم هيكلها وما فيها من القصور والبيوت ونحرقها بالنار وارسل من قبله نبوزرادان رئيس الشرط لينفذ فيها امره فجاء هذا الى اورشليم في الشهر الخامس في سابع الشهر -- وكانت المدينة اخذت في الشهر الرابع في تاسع الشهر -- فاحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت اورشليم وكل بيوت العظماء أحرقتها بالنار وجميع أسوار المدينة مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط ولكنه ابقى

من مساكن الارض كرامين وفلاحين (انظر الملوك الثاني ص ٢٥)
وأوصى نبوخذنصر ملك بابل على ارميا نبوزارادان رئيس الشرط قائلاً خذ
عينك عليه ولا تفعل به شيئاً رديتاً بل كما يكلمك هكذا افعل معه . فارسل نبوزارادان
رئيس الشرط ونبوشربان رئيس الخصيان ونزجل شراصر رئيس المجوس وكل رؤساء ملك
بابل ارسلوا فاحذوا ارميا من دار السجن واسلموه لجديا بن اخيقام بن شافان فسكن بين
الشعب (انظر ارميا ص ٣٩)

وعدرؤساء الجيش الذين كانوا من حزب ارميا ممن سلموا المدينة ان مافعله نبوخذنصر
من احراق المدينة وبيوتهم في جملتها غدرأ واخلاقاً فضعفت ثقتهم بارميا وبالكلدانيين
ولذلك لما قام بعضهم وهو اسمعيل ابن ثنيا من النسل الملوكي وقتل جديا بن اخيقام الذي
ولاه نبوخذنصر على بقية الشعب لثلاثة أشهر من ولايته تنكر الباقون وخوفوا ان يتهموا
بملاأة اسمعيل على قتله ويؤخذوا بتيمة فعلته فحولوا وجوههم وجهة مصر واسكنهم أرادوا
ظاهراً أن يستشيروا ارميا قبل ان يمضوا لما قصدوا اليه واليك ماجاء في سفره في شأن
هذه الاستشارة قال :

فتقدم كل رؤساء الجيوش ويوحانان بن قاريح ويزنيا بن هوشعيا وكل الشعب من
الصغير الى الكبير وقالوا لارميا ليت تضرعنا يفع امامك فتصلي لاجلنا الى الرب الهك لاجل
كل هذه البقية -- فيخبرنا الرب الهك عن الطريق الذي نسير فيه والامر الذي نفعله --
وقالوا لارميا ليكن الرب بيننا شاهداً صادقاً وأميناً انا نفعل حسب كل أمر يرسلك به
الرب الهك الينا - وكان بعد عشرة أيام إن كلمة الرب صارت إلى ارميا فدعا يوحانان بن
قاريح وكل رؤساء الجيوش الذين معه وكل الشعب من الصغير إلى الكبير وقال لهم :
ما خلاصته البقاء في البلاد على ولاء الكلدان

ولما فرغ ارميا من خطابه لجميع الشعب - قال عزريا بن هوشعيا ويوحانان بن قاريح
وجميع الرجال العتاه لارميا انك متكلم بالكذب والرب الهنا لم يرسلك قائلاً لا تنطلقوا الى
مصر لتتقربوا هناك بل باروخ بن نيريا مهييجك علينا لتدفعنا ليد الكلدانيين ليقتلونا وليسبوننا
الى بابل الخ (انظر ارميا ص ٤٣)

وظاهر من جوابهم هذا حقدهم على الكلدانيين وتخوفهم من غدرهم وظاهر ايضاً
ان ثقتهم بارميا وصلت الى منتهى الضعف حتى اتهموه بالكذب في وجهه وانه آله في
يد باروخ بن نيريا . ولعلمهم في تلك الاثناء وصلتهم رسائل من مصر او من احلافهم في
صور فردتهم الى رايهم القديم من المحازبة والولاء للمصريين ومن ثم قاموا وذهبوا الى مصر

وأخذوا ارميا معهم بالرغم عنه ولم يسمعوا له وته. وفي التقاليد اليهودية انهم قتلوه في مصر. ولعلمهم لما اكثر هناك من ملامتهم وقرفهم بمعاصيهم وما كانت تأتيه نساؤهم من النذور والتقتير وسكب السكائب للملكة السماء اجتروا عليه فانكروا نبوته واستخفوا بكنهوته واتهموه كما اتهمه شمعيا النحلاحي من قبل انه مجنون منبيء وداعي فتنة وسجس فشكوه إلى فرعون او أحد عماله بالخيانة والتحزب للبابليين فامرهم به قتلوه

انا لانعلم تفاصيل اخبار نبوخذ نصر واعظم ما حفظ لنا منها انما هو المذكور في سفر ارميا وفيه يظهر ان الرسل كانت تردد بين صدقيا ملك يهوذا وبين الملوك المجاورين اعني الادوميين والمؤابيين والعمونييين وملك صور وملك صيدا وكذلك كانت تردد الرسل والمراسلات بين الذين كانوا سبوا الى بابل من يهوياكين وبين الذين بقوا في اورشليم وغاية كل هذا التراسل انما هو الفتنة وحمل اليهود على العصيان. والظاهر من رسائل ارميا الى المسيبيين ان كان انبياءهم يمنونهم بقرب العودة من السبي. واليك صورة رسالة منه الى المسيبيين ارسلها قال فيها : هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل لكل السبي الذي سيبيته من اورشليم الى بابل ابنوا بيوتا واسكنوها واغرسوا جنات وكلاوا ثمرها خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا ولا تقفوا واطلبوا سلامة المدينة التي سيبتكم اليها وصلوا لاجلها الى الرب لانه بسلامها يكون لكم سلام لانه هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل لا تغشكم انبياءكم الذين في وسطكم وعرفوكم ولا تسمعوا لاحلامكم التي تتحملونها لانهم انما يتنبأون لكم باسمي بالكذب انا لم ارسلهم يقول الرب (ارميا ص ٢٩)

واعجب من ذلك ان حنينا بن عزور النبي (او المتنبى) يكلم ارميا في بيت الرب امام الكهنة وكل الشعب بما يأتي : - هكذا تكلم رب الجنود اله اسرائيل قائلاً قد كسرت نير ملك بابل في سنتين من الزمان ارد الى هذا الموضع كل آية بيت الرب التي اخذها نبوخذ نصر ملك بابل من هذا الموضع وذهب بها الى بابل وارد الى هذا الموضع يكتنبا بن يهوياقيم ملك يهوذا وكل سبي يهوذا الذين ذهبوا الى بابل يقول الرب لاني اكسر نير ملك بابل - وقال ارميا النبي امين هكذا ليضع الرب . ارميا ص ٢٨

والذي أراه من تكرار عصيان اليهود ان أقوال هؤلاء الانبياء المشار اليهم والاماني التي كانوا يمنون بها الشعب لم تكن عن مجرد هوس وتكهن لاسند له بل لا بد لذلك من سبب ولعل السبب كان اشقياءك نبوخذ نصر بحروب العميلاميين والعرب وتغلغله في صحراء العربية القليلة المياه وجبالها العسرة المسالك فكانوا يظنون ان الدائرة ستدور عليه هناك

فيتغير الملك وتتغير السياسة بتغيره . وفيما جاء في آخر سفر ارميا وآخر سفر الملوك الثاني ما يستدل به على ان كان موالاته وتحالف بين اويل مرودخ بكر نبوخذ نصر وبين يهوياكين ملك يهوذا فان اويل هذا - وكان قد سجن في ايام أبيه حيث كان يهوياكين مسجوناً - لما تولى منصة الملك بعد أبيه رفع رأس يهوياكين وأخرجه من السجن وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل وكان دائماً يأكل الخبز أماًه كل ايام حياته. فلا يبعد ان تكون هذه الموالاته هي الاس الذي بني عليه حنانيا بن عزور نبوته التي نقلناها آنفاً دعنا نسأل هنا لماذا سجن اويل مرودخ وهو بكر نبوخذ نصر . انه لا يعمل عن سبب سجنه تمليلاً اقرب الى القبول وينطبق على ماضعه ليهوياكين حال تسنمه اريكه الملك وفي الوقت نفسه يوافق ايضاً آمال اليهود المشار اليها في سفر ارميا إلا ان اويل مرودخ (وكان مسفياً غراً على ما نقل من اخباره) أغري بخلع أبيه والاستيلاء على عرش المملكة دونه أثناء غيابه في غزواته وان يهوياكين وامراء يهوذا المسيبين كانوا ممن دخل معه في هذه المؤامرة ان لم يكونوا هم الذين حملوه عليها وحسنوها له ومنوه بانحياز أمتهم وأحلافها الى جانبه فوعدهم انه اذا تم له الامر يردهم الى بلادهم ويكونون من جملة أوليائه وأعوانه في غربي الفرات . واتصل طنين هذا الوعد بهؤلاء المتنبئين فهتفوا به إلى اخوانهم في اليهودية وحركوهم الى الفتنة والعصيان ووافق ذلك غرض المصريين وأشياعهم ملوك صور وصيدا وادوم ومواب وبني عمون فتغلب حزب الفتنة على حزب ارميا حزب السلام والخضوع للبابليين

ولا يبعد ان حزب نبوخذ نصر كتبوا اليه بحركة الافكار هذه واطاعوه على ما يدور من التراسل بين المسيبين واخوانهم في اليهودية وبين هؤلاء وبين المصريين وأحزابهم أيضاً وان نبوخذ نصر بحث فوجد مجالا للظن في ابنه فسجنه ومازال في السجن الى أن توفي ابوه ثم وجه نبوخذ نصر بأسه على اليهودية ومدن فينيقية اما اورشليم فاستمرت سنتين تحت الحصار واما صور العظيمة فقالوا انها لم تؤخذ إلا بعد حصار ثلاث عشرة سنة وبسقوطها دانت له البلاد غربي الفرات من كركيش الى العريش وأصبحت كلها ولايات كلدانية ليس فيها لامة ولا مدينة استقلال أدلا ولا شبه استقلال .

ويحني في مقالتي هذا ان أسأل لماذا ياترى تشدد نبوخذ نصر كل هذا التشدد على صور حتى بقي على حصارها ثلاث عشرة سنة الجرد الطمع بما كان فيها من الغنى وانتفاس ما اظن . فان نبوخذ نصر كان يعلم ما بين صور وقرطاجنة من أواصر القرى والعلاقات الخاصة وكان يعلم ان الصوريين لا يسلمون اليه مدينتهم قبل أن تقل مراكبهم كل ما فيها

من أموالهم ونفائسهم الى قرطاجنة حيث لا تصل يده الى شيء منها . وكانوا مع ذلك لا يترددون ان يقتدوا منه مدينتهم بالاموال الطائلة فيما لو أراد بشرط ان يتركهم على ما كانوا عليه من استقلالهم في مدينتهم ومجاراتهم فتشده في الحصار وتشدهم في الدفاع كان اذن لغير مجرد النهب والسلب على ما قد يزعم وان كان يصح ان يكون من جملة الاسباب ايضاً والسبب الرئيسي على ما أرى هو ان نبوخذ نصر كان ملك مدينة تجارية وشعب اشتهروا بالتجارة من قديم الزمان وزاحوا فيها غيرهم من الأمم فلذلك لم يرض من الصوريين ان يقتدوا منه مدينتهم بالمال والحزبة السنوية وتبقى مدينتهم سيدة التجارة تفتح أبوابها لمن تشاء وتغلقتها في وجه من تشاء . على عاداتها بل أراد ان تكون بابل هي سيدة التجارة ومركزها وان تكون صور ميناء لها لا تعارض تجارتها ولا تجارها على ما هي عليه كاتون والاسكندرية وغيرها من مدن التجارة في الشرق بالنظر الى مدن اوربا التجارية في الوقت الحاضر وهذا ما كان يأباه الصوريون ويرونه موتاً لتجارهم الواسعة وبالتالي موتاً لعظمتهم وغناهم ولذلك اشتد دفاعهم وطالت مدته كما ألعنا واشتد صبر نبوخذ نصر وعزمته حتى كان له الفوز اخيراً . فتم له ما أراد واصبحت صور فرضة لبابل ولتجار بابل يحملون اليها ومنها تجاراتهم غير معارضين

عند مقارب نهر الفرات والدجلة على بضعة ساعات الى الجنوب من مدينة بغداد الحالية على عدوة الفرات كان موقع مدينة بابل عاصمة شععار او بلاد الكلدان . وهي بلاد جيدة الهواء والماء والتربة وتكاد تكون من اخصب بقاع الدنيا فان غلة المد المزروع من الحنطة لا تنقص عن مئة ضعف وقد تبلغ الاربعماية . ومساحتها لا تقل عن اربعين الف ميل مربع كان الفرات والدجلة يسقيان كل شبر من الارض فيها . والى الشمال الغربي من شععار ارض الجزيرة وهي اكبر منها مساحة وفيها بقاع لا تقل عنها خصباً والى شرقيها مملكة ايران الحالية والى غربيها صحراء السماوة حتى تبلغ سوريا وشطوط المتوسط والناظر الى الحارطة يرى الفرات والدجلة اقرب طريقين واسهلها للتجارة يصلانها أي بابل بالبلدان المجاورة الى مسافة مئات من الاميال شمالاً وشمالاً غريباً واما الى الجنوب فيصلانها بخليج فارس بخليج عمان فبحر الهند والعرب ثم باب المندب والبحر الاحمر والمتأمل ايضاً يرى كل طرق البلاد الى الشرق والغرب والشمال والجنوب تنصب اليها او تتفرع منها . وبالأجمال يقال ان موقعها كان في قلب الممالك القديمة ونقطتها من احسن النقط التجارية في ذلك الحين . وقيل ان الذين أسسوها انما أسسوها ابتداء للتجارة فلم تلبث ان صارت اعظم مدن الكلدان ومركزاً الدين والادب ايضاً شأن كل المراكز

التجارية المهمة في العصر الحالية . ومضى على تأسيسها نحو من ثلاثة آلاف سنة وهي مركز دين وأدب وتجارة لا يضاهاها في ذلك مدينة من جميع مدن آسيا من المتوسط إلى اطراف خراسان وبلاد السند غرباً وشرقاً ومن البحر الاسود الى سواحل حضرموت شمالاً وجنوباً . وقد اشتهر أهلها بالصناعة والتجارة شهرة لا تقل عن شهرة السوريين والصيدونيين وغيرهم من الأمم الفينيقية المعروفة والمشهورة

لما قام نبوخذ نصر الكبير وكان يعلم ما لمدينة من حسن الموقع التجاري ويعلم ايضاً ما للتجارة من الدخل في عظمة الملوك والممالك توجهت خواطره لجعلها مركز تجارة العالم . وكان فرعون نحو معاصره قد حول طريق تجارة الهند والبلاد العربية من ايلة الى السويس فأراد هو ان يصرف هذا الطريق الى بابل . ولما رأى ان ذلك لا يتم له على ما يريد إلا باخضاع العربية واقامة المستعمرات التجارية الكلدانية فيها وجه غزواته الى ارض البحرين وعمان فاحضعها لسلطته وأقام فيهما المستعمرات التجارية لقومه وهم المعروفون بالنبط فنصت البلدان بأهل سواد العراق وما زالوا هم الغالبون على ارض البحرين ومعظم أهلهم منهم الى بدء التاريخ المسيحي

ووجه ايضاً غاراته الى نجد والحجاز وممالك حاصور فاحضع جميع البلاد لسلطوته من الابله شرقاً الى ايلة غرباً ومن ايلة شمالاً الى المهجيم جنوباً والمهجم مدينة على وادي مردد غربي صنعاء عاصمة اليمن واحتل النقط التجارية على البحر الاحمر ما بين هاتين المدينتين اعني ايلة والمهجم فتوارد اليها تجار بلاد الانباط وانتشروا في البلاد وسكنوا هناك واختلطوا بتجار العرب وبقي لهم بينهم النفوذ الاول الى ما قبل أيام بمبيوس القائد الروماني الشهير بعقد او بعض عقود من السنين

ولنرجع الآن الى الادوميين فانهم كانوا في اول ما غزا نبوخذ نصر اليهودية يملكون طريق التجارة من ايلة الى الخليج الفارسي فلما غزا ابناء عمهم وافتتح عاصمتهم وخرب بلادهم وسبي عظامهم وقتل مقاتلتهم ولم يترك في البلاد إلا المستضعفين والمساكين من اهل الفلاحة والزراعة شتموا بمصيبتهم وحدثوا أنفسهم بضم اليهودية الى املاكهم ولم يعلموا ما كانت الايام وتداير نبوخذ نصر تعده لهم . وفيما هم في شماتهم وأحلامهم بضم بلاد اليهودية الى بلادهم اذا بجنود الكلدان واعلامهم تحف على العربية جنوباً وغرباً فدوخوا نجد والحجاز واستلحموا بني عدنان حتى كادوا يفنؤهم فتهاربوا منهم في جميع الجهات الى حضوراء وتهاجم وجنوبي اليمن واتبعهم الكلدانيون وغطت خيولهم ورجلهم البلاد من الابله الى ايلة . فابن ذهب الادوميون؟ لاشك انهم تهاربوا من امام الكلدانيين

الى جهات عاصمتهم سالع او البتراء فلما نزلت جنود الكلدان عليها أصاب اليهود اي هرب اهل القرى والازراع وكثيرون من اللاجئين من الاطراف الى الامم المجاورة وبقي من بقى في المدينة تحت الحصار وصبروا على شدته مدة ثم لما لم يروا بداً من التسليم سلموا للمنتصر فقتل من قتل وسبي من سبي وابقى من ابقى اما المدينة فلم يفعل بها ما فعله بأورشليم من الهدم والتحريق بل ابقى عليها وجعلها محطة لقوافل عاصمته فانتقل اليها كثير من التجار ان لم يكن هو فاعلمهم وجعل على المدينة والياً من قبله فصارت مدينة بابلية أي النفوذ والسيادة فيها للانباط وان كان اهلها خليطاً من الفريقيين اعني الادوميين والبابليين وما زالت كذلك كل أيام نبوخذ نصر وأيام خلفائه من ملوك بابل الى ان قامت الدولة الفارسية وورثت ممالك الكلدان ومدن تجارتهم فكانت من جملتها مدينة سالع ولم يتعرض الفرس لهم بشيء وتركوهم على لغتهم وتجارتهم واكتفوا منهم بالخضوع والجزية ولضعف المدنانين وممالك حاصور بما قتل منهم نبوخذ نصر اصبحت البلاد المجاورة لسالع تبعاً لها وما زالت تتقوى سنة بعد سنة لما لها من المنعة الطبيعية وبما كان يتدفق اليها من غنى التجارة كل ايام دولة الفرس الى ان قامت دولة اليونان فاذا بهامدينة قوية غنية ذات نفوذ في الحجاز ونجد الى خابج فارس ومن ايله الى جنوبي جدة على ساحل البحر الاحمر وبعبارة اخرى اذا بها مدينة نبطية يلنف حولها كل النقط التجارية في الحجاز وتهامة ونجد والبلاد التي كان دوخها نبوخذ نصر تأمناً للتجارة بين عاصمته وبين شواطئ البحر المتوسط والبحر الاحمر عن طريق شمالي العربية . فهذا هو أصل النبطيين في البتراء واية الذين ذكرهم لنا التاريخ عند اول قيام الدولة اليونانية . وقد اعتمدت على الاختصار والاجمال في حروب نبوخذ نصر مع العرب لان الكلام طال

عن حروبه في اليهودية

كنت أقدر أني أنهي هذه المعالة في العدد الماضي من المقتطف ولكن الكلام تغفل بي الى اكثر ما قصدت اولا فاستهوتني حروب نبوخذ نصر في اليهودية الى ذكر مسائل كثيرة رأيتها تستنتج من كتابات ارميا النبي التي راجعها في اثناء كتابتي القطعة المارة . وقد راجعها لالاها كتابات مقدسة فقط بل لأنها ايضاً كتابات رجل معاصر فينبغي الاعتماد عليها والوثوق بها كما يعتمد على الآثار المخطوطة في الاجر البابلي بل هي من بعض الوجوه اخرى بالوثوق من كتابات الاجر التي سطرها ملك بابل عن نفسه او سطرها له قوم من مؤرخيه لان هؤلاء كانوا يترلفون الى مرضاته باعظام شأنه والاطراء له على ما أتى به سواء كان ما أتى به يستحق الاطراء او لا يستحقه على حين ان النبي ارميا لم يدفعه الى

كتابة ما كتبه من اخبار الملك شيء من هذا ولذلك هي كما قلنا اخرى بالوثوق من كتابات المعاصرين من اهل بابل أيًا كانوا ومهما كانت صفتهم

كانت بابل في أيام عظمتها الاولى متقدمة على نينوى فلما تهدمتها نينوى عظم عليها ذلك وحاول ملوكها أو ولايتها أو اهلها مراراً أن يرجعوا بها الى سابق عهدهما من العظمة والسودد فلم يفاعخوا الى أن قام نبوبلاسر فاستغنى فرصة انحطاط الاشوريين وحالف الماديين عليهم على أن يكون هو وارث عز اشور وولاياتها في الجزيرة العراقية وجميع البلاد غرب الفرات بل في مصر وبلاد العرب ايضاً فترجع بذلك بابل الى عزها ومكاتها الاولى قبل أن بلغت نينوى ما بلغت في أيام ملوكها العظام الذين كانوا من كبار قادة العصور الحالية

فلما كانت موقعة كركيش واتصر نبوخذ نصر ذلك الانتصار العظيم على فرعون نخو وجيوشه رأى في انتصاره ما يحقق له تلك الاماني التي كانت تجول في خاطر ابيه فشرع لتحقيقها وما زال يحارب حتى رأى عاصمته مدينة العلم والغنى والدين والسلطان وبعبارة اخرى اعظم مدينة في تلك الايام فانه اخضع لسلطانها الجزيرة العراقية والديار الشامية من كركيش الى غزة بما فيه بادية الشام من الابل الى ايلة وجعلها كلها ولايات بابلية تدين بطاعته وتؤدي اليه الجزية

وحارب العرب ايضاً في بلادهم فوطىء نجداً والحجاز واستاعم اهلها من العرب العدنانيين ودوخ تهامة واليمن وجعلها من ولاياته واسكن قومه من تجار البابليين والكلدان في قلب اليمن في مخلاف جهران وحقل قتاب وفي اكثر الفرض البحرية من المهجم الى ايلة فضلاً عن انه اخضع عمان وارض البحرين . وكانت آخر بلاد حاربها مصر فتغلب على اهلها واذلهم لسلطوته ورجع من هناك بالاسلاب والغنائم الكثيرة

ومما هو محقق لا يرتاب فيه انه حارب الادوميين وخرب جبلهم سيمير . وقد مر بنا اشارة النبيين ارميا وحزقيال الى الادوميين وما توعداهم به من الخراب والدمار عن يد نبوخذ نصر . فتم هذا الوعيد وكانت جبال عيسو خراباً وميراثه لذئاب البرية في أيام ملاحى (انظر هذا السفر الاصحاح الاول)

لم تطل ايام نبوخذ نصر بعد ان دوخ مصر حتى مضى في سبيله ولكن لم يقم بعده مثله على بابل وربما لم يقم قبله من هو اعظم منه إلا ان يكون الملك همورابي وكذلك لم تطل مدة الدولة البابلية بعد وفاته إلا نحواً من ثلاثين سنة . غزا الفرس بعدها بابل تحت قيادة كورش فافتتحوها المدينة وافتتحوها بافتتاحها كل الولايات البابلية التي كانت لنبوخذ نصر لان هذه جميعها خضعت للفرس من غير ان يرمي عليهم سهم واحد في

كل عبر النهر حتى الصوريون كانوا يأتون بخشب الارز من لبنان حسب إذن كورش ملك فارس لهم (انظر سفر عزرا الاصحاح الثالث)

وبقيت لغة الدواوين في الدولة الفارسية على عهد هاني أيام نبوخذ نصر أي اللغة الارامية فكانت القيود والسجلات والمعارض تكتب فيها وترجم اليها ايضاً. وقد ذكرنا ما ذكرناه توطئة للقول ان هيئة البلاد في فلسطين وشمالى العربية لم تتغير في أيام الدولة الفارسية عما كانت عليه في أيام نبوخذ نصر بل بقيت على حالها نسخة واحدة الى ان قامت دولة اليونان ولما قام الاسكندر الكبير وغزا مملكة فارس خضعت له امم سوريا وفلسطين التي كانت خاضعة للفرس لم تقم امة منها في وجهه إلا الصوريون ثم مات الاسكندر واقتسم قواده البلاد . وكان من حملتهم انتيغونوس وابنه ديمتريوس وعلي عهد هذين نحو ٣١٦ ق . م ذكرت مدينة البتراء وكانت حينئذ مدينة قوية ذات غنى ومجارة تجاسردون غيرها من المدن على مقاومة ديمتريوس بن انتيغونوس وكان اهلها يعرفون بالنبطيين وكانوا متميزين عن سواهم من بقية الامم اعني الادوميين والموابيين والعمونيين والعرب واليهود . وواضح مما ذكرناه سابقاً انهم أي النبطيين لم يكونوا في البلاد أيام الفتح البابلي ولا استجدوا فيها على عهد الدولة الفارسية فلم يبق لنا إلا القول انهم نزلوا البتراء في أيام نبوخذ نصر وانهم جاءوا من بابل وجوارها لان لغتهم كانت اللغة الارامية

وننظر الآن فيما يؤيد هذا المدعي ولا بد في تأييده من الاستناد على سند تاريخي وهذا السند لا نعدمه في اسفار المكابيين فان السفر الاول من هذه الاسفار يذكر لنا الانباط في أيام يهوذا المكابي واليك ما جاء لصاحب هذا السفر قال في الاصحاح الخامس والعدد ٢٤ و ٢٥ مانصه

واما يهوذا المكابي ويوناتان اخوه فعبرا الاردن وسارا مسيرة ثلاثة ايام في البرية فصادفا النبطيين (النباطيين) قتلوهما بسلام وقصوا عليهما كل ما اصاب اخوتهما في ارض جلعاد وان كثيرين منهم قد حصروا في بصرة وياصر وعالم وكسفور ومكيد وقرنايم وكلها مدن حصينة عظيمة وانهم ايضاً محصورون في سائر مدن ارض جلعاد والقوم مستعدون لمحاصرتهم غداً في الحصون والقبض عليهم وابادتهم جميعاً في يوم واحد — الى ان يقول فارس يهوذا رجالاتا يكشفون امر الجيش فاخبروه قائلين ان جميع الامم التي حولنا قد انضمت اليهم وهم جيش عظيم جداً وقد استأجروا العرب بظاهروهم ونزلوا في عبر الوادي وجاء ايضاً في الاصحاح ٩ والعدد ٣٣ — ٣٥ وبلغ ذلك يوناتان وسمعان اخاه وجميع من معه فهربوا الى بركة تقوع ونزلوا على ماء جب اسفار وارسل يوناتان يوحنا اخاه

بجماعة تمت قيادته يسأل النبطيين اولياءه ان يعيروهم عدتهم الوافرة
والذي يظهر من الاعداد التي ذكرناها . اولاً ان النبطيين كانوا اولياء ليهودا المسكابي
واخوته . ثانياً انهم أمة غير العرب وغير الموايين والعومنيين والادوميين . ثالثاً ان
مركزهم كان يبعد ثلاثة ايام في البرية شرقي الاردن من حيث عبر المسكابي بقرب اريحا .
رابعاً ان قدكان عندهم عدة وافرة يمكنهم الاستغناء عنها واعادتها . وكل ذلك يشير الى
انهم كانوا في البتراء قرب بصرى او باصر لان هذه المسافة أي ثلاثة أيام لا تنطبق على مدينة غير
البتراء ويشير ايضاً الى انهم كانوا تجاراً لان عندهم كثير آمن الاساحة يستطيعون ان يعيروها
ومن يراجع سفر المسكابين في الاصحاح الخامس يرى ان اول مدينة وصلها يهوذا
واخوه بعد ان تركها اصحابهم النبطيون كانت مدينة باصر او بصرى ثم انصرفوا من هناك
الى المصفاة وهذا لا يدع مجالاً للشك ان النبطيين كانوا في البتراء لان باصر او بصرى اقرب
مدينة اليها اذا توجه اليها جهة البرية

ثم يظهر لنا من مراجعة تاريخ يوسفوس انه كان يعتمد على سفر المسكابين وقد تابعه
حرفاً محرف ومآل هذه المتابعة انه كان يعرف النبطيين المشار اليهم وانهم قوم متميزون
عن الادوميين والعرب والعومنيين وكتاباته صريحة ان البتراء كانت مدينتهم وانهم مازالوا على
استقلالهم عن العرب الى أيام اسكندر جانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هرقاتوس ابن
سمعان اخي يوناتان ويهوذا المسكابي فانه بعد وفاة هذا الملك اليهودي ورد اول ذكر يفهم
منه ان الانباط او النبطيين في البتراء خضعوا للعرب وكان لارمياص ملكهم قصر فيها أي
في البتراء . ومن ذلك الحين فما بعده اخذ ملوك العرب الاريتاسيون (أي الذين اسما
ملوكهم اغلبها اريتاس او حارثة) يلقبون بملوك النبط ويطلق عليهم تارة لقب ملك العرب
وأخرى ملك النبط ومع ذلك كان ظاهراً جلياً ان الجنسية مختلفة بين العرب والنبط وان
كان الملك واحداً . وما زال الامر كذلك الى ان انقرض ملك هؤلاء من البتراء وجعلت
ولاية رومانية سنة ١٠٥ بعد المسيح

، اذا يعرف مؤرخو العرب عن النبط

يعرف العرب ومؤرخو العرب ان النبط غير العرب وانهم كانوا يسكنون أرض البحرين
وسواد العراق وأن كان منهم قوم يعرفون بالنباط الشام وانهم كانوا في عمان ايضاً وفي قلب
البلاد اليمنية في حقل قتاب واعالي جهران اما في عمان فاستعربوا وأما في أرض البحرين
فمع ان العرب أزالوهم من هناك وسكنوا مكانهم في هجر البحرين وذلك في بدء التاريخ المسيحي

او قبله بمدة غير معروفة إلا انها ليست طويلة عاد الانباط فكثروا في أرض البحرين حتى غلبت نبطيتهم على عروية العرب وعليه المثل المشهور المتواتر عند العرب اهل عمان نبط استعربوا واهل البحرين عرب استنبطوا . وفي اول الفتوحات الاسلامية كانوا يسمون الموالي ايضاً وكانوا في سواد العراق من البصرة الى السكوفة

وكان اكثر اصحاب المصانع وارباب التجارة هناك منهم واشتهر بعضهم بالبخل وقرض الاموال بالرباء لرؤساء القبائل العربية واشتغل بعضهم بالعلم والفقه وكان منهم كثيرون من علماء النحو واللغة واستقضى منهم جماعة منهم نوح بن دراج . وكانوا يعيرون بجهل انسابهم وعليه يروى الحديث عن الامام عمر بن الخطاب لا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن نسبه قال انا من بلد كذا . وبالاجمال نقول ان العرب يعرفون الانباط معرفة تامة لا اشتباه فيها منذ اوائل التاريخ المسيحي الى اليوم وليس منهم يشبهه عليه الفرق بينهم وبين العرب . لكن ليس من ينكر ايضاً ان الانباط هم والعرب من الفصيلة السامية فان العرب يرجعون الى سام عن طريق يقطان بن عابر بن شالح بن ارفكشاد والنبط يرجعون اليه رأساً فانهم اولاد آرام بن سام وقد اختلف هؤلاء الاراميون من عهد بعيد جداً بالعرب وامزجوا بهم في الديار البابلية فانقلب العرب هناك انباطاً وانقلب النبط في شبه جزيرة العرب عرباً . قيل ويرجح هذا القول ان الكلدان في عهد نبوخذ نصر كانوا عرباً سكنوا بلاد بابل ويظن البعض ان لفظ الكلدان محرف عن بني خالد قبيلة لانزال عرباً الى حد هذه الساعة في تلك الجهات قرب الحفير وما يجاوره

عود على بدء

قام نبوخذ نصر على عرش بابل نحو سنة ٦٠٧ قبل المسيح فوجه غزواته الى الحجاز ونجد واستلحم العدنانيين هناك حتى كادوا يفتنون وضرب الادوميين وخرب جباهم سعيماً واخذ منهم مرا كزهم التجارية التي كانوا اقاموها بين ايلة وخليج فارس وكان قبل ذلك حارب ابناء عمهم في اليهودية وأجلا قسماً كبيراً منهم الى بلاد بابل وهرب كثيرون ممن بقي الى ارض مصر فقل الساكين في بلادهم وكانت أخصب بالطبع من اكثر اراضي ادوم فانتقل كثيرون من الادوميين وسكنوا في جنوبي يهوذا الى مدينة حبرون المعروفة اليوم بالخليل ولما اشتد عليهم نبوخذ نصر وأخذ مدينتهم سالح (البتراء) وما سواها من المراكز التجارية في تيماء والحجر تهارب كثيرون من وجهه وسكنوا في اليهودية ايضاً وخذت بلادهم من كثيرين منهم . وقد ألحنا ان نبوخذ نصر كان تاجراً وملك قوم تجار وانه قصد

ان يحول وحول طريق التجارة عن ايلة والسويس الى عاصمة بلاده . فمن المستحيل اذن ان يخرب المراكز التجارية بين خليج فارس وشواطئ المتوسط فلا بد ان يكون بعد حروبه في شمالي العربية قد اسكن هذه المراكز اقواماً لا يخاف عاديّتهم ومن غير العرب الذين حاربهم ايضاً وكاد يفنيهم وليس من يقوم بهذه المهمة قياماً احسن من قومه التجار من بابل وجوارها فجاءوا واستوطنوا تلك الجهات ومن جعلتها الحبر وتبوء والبراء وغير هذه من المراكز التجارية البرية وعلى سواحل البحر الاحمر وخالطهم في جميع هذه المراكز ضعفاء الادوميين اصحابها الاولين وبعض العرب ولعل الادوميين كانوا اكثر عدداً او يماثلون النبط إلا ان العز والصولة كانا للنبط لان الدولة منهم والتجارة في ايديهم . وما زالوا كذلك كل ايام نبوخذ نصر وَايام خلفائه الى ان قامت الدولة الفارسية فلم تتعرض لهم وتركتهم وشأنهم وحكمهم حكم غيرهم من الامم الخاضعة لهم . بل كان الفرس من جهة خيراً لهؤلاء المستعمرة من النبط من نفس دولتهم البالية لان الفرس لم يكونوا تجاراً فلم يزاخموهم على تجارتهم وضعفت تجارة بابل بما كان من انتقال دار الملك عنها فقلت مزاحمة اهلها لهم واصبح قسم عظيم من التجارة ينقل رأساً الى محطاتهم التجارية من غير ان يمر على بابل اي رأساً من خليج فارس فكثرت غناهم مع الايام وعلى نسبة ذلك زاد من قوتهم واصبح العرب حملة لتجارتهم ومصرفين بأمرهم . وانتقل اليهم عز الادوميين وسلطتهم واصبح كثير من قبائل العرب ينفرون على صراخهم اذا استصرخوهم وبقوا على ذلك نحواً من ٢٠٠ سنة ولما احتك بهم القائد اليوناني انتيغونوس وابنه ديمتريوس بعد موت الاسكندر وجدهم على ما وجدهم عليه من القوة ووجد ألوفاً من قبائل العرب حواليم ينفرون معهم اذا استنفروهم وبقوا على عزهم هذا حقبة من الدهر إلا ان الايام لاتدوم على حالة واحدة فان البطالة قاموا في مصر واصبحت تراثاً لهم فوجهوا عنايتهم الى البلاد فازدادت ساكناً وازدادت علماً وصناعة وتجارة فاصبح كثير من مواني البحر الاحمر في ايديهم وغيروا خطة التجارة شيئاً عما كانت عليه فتحول قسم كبير من التجارة عن البراء وكذلك اضطربت الاحوال في بابل والجزيرة وخليج فارس وكثرت الحروب والخاصات هناك وقامت سلوكية تراحم بابل على التجارة فضعف شأنها نوعاً عما كان عليه قبلاً . وفوق ذلك انشأ ملوك سوريا في انطاكية خطاً تجارياً من العراق الى مدينتهم فقلل هذا شيئاً من اهمية البراء وقل غناها على نسبة ذلك فقلت قوتها . وعادت العرب فكثرت في البلاد حولها في بلاد مواب وبني عمون وما بين غزة وجبال الشراة والظاهر ان كثيرين من عرب اليمن وحضرموت من قبائل قضاة هاجروا في بداية المثة الاخيرة قبل المسيح الى جهات

فلسطين وسوريا فاصبح لهم شأن وشوكة واجتمعت حولهم كلة العرب لما اعتاده العدنانيون من الانقياد اليهم فاضعف ذلك من سطوة البتراء ونفوذ تجارها ورؤسائها وخاط رؤساء العرب هؤلاء اهل البتراء لانهم اهل حضارة مثلهم وعمرؤا قصورهم في مدينتهم فكانوا يقولون سنة بعد سنة ويكثرون واولئك باقون على ما كانوا عليه إن لم نقل أنهم كانوا يضعفون وما زالوا كذلك حتى كثر العرب النبط واصبحوا ذوي السؤدد والرئاسة دونهم وانتقل اليهم الامر فاصبحوا ملوكاً عرفوا بملوك النبطيين في البتراء ولا يبعد أنهم كان لهم ملك خاص قبل ان استولوا على البتراء وجعلوها عاصمة لهم في ايام اريتاس معاصر بيمبوس القائد الروماني المشهور بل لا يبعد أنهم استولوا على هذه المدينة قبل زمن بيمبوس فكان لهم رئاسة وسؤدد فيها ولكن لم يكن لهم ملك على شاكلة ما كان لهم في ايام اريتاس هذا ومن جاء بعده الى ان انقرض ملكهم في سنة ١٠٥ قبل المسيح كما المعنا

وخلاصة ما نتج به بحثنا هذا ان الانباط خليط من الادوميين وتجار من السكلايين والبابايين الذين جاءوا الى البتراء في ايام نبوخذنصر وانضم اليهم من حين الى آخر من تحضر حوالهم من العرب العدنانيين اولاد اسماعيل ثم انضاف الى هؤلاء كثيرون من مشايخ ورؤساء القحطانيين من بني قضاة الذين هاجروا من اليمن وحضر موت في اول المئة الاولى قبل المسيح او ما قبل ذلك بمدة قصيرة . ولا يبعد ان يكون انضم اليها ايضاً كثيرون من اليهود كانوا يسقطون عليهم من حين الى آخر لتجارة تارة وللأحماء بهم تارة اخرى فان الذين سكنوا المدينة وجهات خير وكثروا هناك لا يستبعد عليهم ان يسكنوا في البتراء ايضاً فامتزجت كل هذه القبائل معاً في مدينة البتراء وعرفوا بالنبط إلا اني ارجح مما مر ان الدم الغالب فيهم هو دم العشيرة الارامية عشيرة ابراهيم الخليل . ومن البتراء انتقلوا الى مكة والطائف ومنهم نشأت بيوت من اعظم بيوتات العالم كما سنين ذلك في المستقبل ان شاء الله

قيدار وممالك حصور

استلغات نظر اصحاب الانسكلويدات ومعاجم الكتاب

في اثناء بحثي عن اصل الانباط في البتراء راجعت ما كتب في سفر ارميا النبي عن غزوات نبوخذنصر (او بختنصر) وهي كتابة يعتمد عليها لان النبي كان من معاصري نبوخذنصر ومن ثم فالوارد عنه في سفره هو من اصح وأثبت ما جاء عن هذا الملك لايدانيه في الصحة شيء الا ما ورد في الاجر البابلي مما كتبه بختنصر نفسه او احد معاصريه فوجدت ان من جملة الامم التي حاربها بختنصر الفيداريين وممالك حصور . اما القيداريون فمن وصفهم لا يشك محقق انه يعني بهم العرب العدنانيون في الحجاز وشمالى العربية . واما ممالك حصور فلا يزال فيها رأي لباحث

راجعت الانسكلويدا البريطانية فلم أر فيها أدنى اشارة الى هذه الممالك ومثلها الانسكلويدا الاميركانية فقلت دعني انظر في تفسير الكتاب للعلامة بوتلر وهو من احدث كتب التفاسير ومن اشهرها فنظرت فلم اجد فيه ما يشفي فانقلبت الى معاجم الكتاب فراجعت احدها عهداً واشهرها فلم أر فيها ما يزيد عما في غيرها مما اطلعت عليه . الا ان العلامة هيستون في معجمه الشهير المطبوع سنة ١٨٩٨ — ١٩٠٢ اشار الى رأي العلامة كونور فقال في آخر ما ذكره عن لفظ حصور نقلا عن العلامة المومل اليه انها مكان غير معروف في بلاد العرب يذكر مع قيدار وان نبوخذنصر حارب اهله . والاشارة في غاية الاختصار لا تزيد عن السطرين وقد ذكرت معناها على ما بقي في ذهني لا ترجمتها الحرفية فمن شاء فليراجع معجم هذا العلامة في باب حصور

كان في ذهني من قبل ان بلاد اليمن من جملة البلدان التي حاربها نبوخذنصر فحدثت ان ممالك حصور هذه هي بلاد اليمن او قسم منها لان اشارة ارميا النبي — اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن ياسكان حصور الخ — لا تنطبق على حصور مدينة يابن بقرب بحيرة الحولة فانقلبت الى كتب التاريخ العربية ابحت عما يقوم دليلاً على صحة ما حدسته فراجعت العلامة ابن خلدون والمسعودي فرأيتهما في حروب نبوخذنصر في بلاد العرب يقرنان ذكر بني حضورا بالعرب العدنانيين كما يقرن ارميا النبي بممالك حصور بالقيداريين والمستنتج من ذلك لا يكاد يشك به على ما ارى اي ان بني حضورا وممالك حصور هما اسمان لمسمى واحد كما ان قيدار والعرب العدنانيين اسمان ايضاً والمسمى واحد ولا سيما اذا

اعتبرت المشابهة اللفظية الواضحة بين حاضور و حضور. فبقى عليّ تحقيق موقع حضور او حضورا في اي نقطة هو من البلاد العربية
فقلت اراجع الهمذاني صاحب وصف جزيرة العرب فلعله يذكر شيئاً عن ذلك فراجعته
فاذا به يذكر ما احب ان يذكره. واليك النقول الالائية عن كل من هؤلاء الائمة الاعلام

عن العلامة ابن خلدون

قال هذا العلامة في الجزء الثاني من تاريخه المشهور طبعة بولاق صفحة ١٦٠ وبمختصر
هذا الذي غزا العرب وقتلهم واستباحهم. قال هشام بن محمد اوحى الله الى ارميا النبي يأمر
بمختصر ان يفرق العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم ويستبيحهم بالقتل. قال فوثب بمختصر
على من وجده ببلاده من العرب المعيرة فحبسهم ونادى بالغزو وجاءت منهم طوائف مستسلمين
فقبلهم وانزلهم بالانبار والحيرة. وقال غير هشام ان بمختصر غزا العرب بالجزيرة وما بين ايلة
والابلة وملاها عليهم خيلا ورجالا ولقيه بنو عدنان فهزمهم الى حضورا واستلحمهم اجمعين.
وقال وجه ٢٣٧ من الجزء المذكور. يقال في مبدل كونهم هناك ان بمختصر لما سلطه الله
على العرب — قتل اهل الورد بناحية عدن اليمن نبهم شبيب بن ذي مهدم — فاوحى الله
الى ارميا بن حزقيا وبرخيا ان يسيرا بمختصر الى العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم وان يقتل
ولا يستحي ويستلحمهم اجمعين ولا يبقى منهم اثر — وسار الى الدرب وقد نظم ما بين ايلة
والابلة خيلا ورجلا وتسامع العرب باقطار جزيرتهم واجتمعوا للقائه فهزم عدنان اولاً ثم
استلحم الباقين ورجع الى بابل وجمع السبايا فانزلهم بالانبار ثم خالطهم بعد ذلك النبطة
وقال ايضاً وجه ٢٣٩ من الجزء المذكور. وغزا بمختصر العرب واستلحمهم وهلك
عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً. قال السهيلي وكان رجوع معداً الى الحجاز بعد ما دفع الله
بأسه عن العرب ورجعت بقاياهم التي كانت بالشواحق الى مجالاتهم بعد ان دوخ بمختصر
بلادهم وخرب معمرهم واستأصل حضورا وأهل الرس التي كانت سطوة الله بالعرب من اجالهم
وقال وجه ٢٤٣ من الجزء المذكور. ومن كعب بن زيد الجمهور ويلقب كعب الظلم
ابناء سبأ الاصغر بن كعب واليه ينتهي نسب ملوكهم التبابعة ومن زيد الجمهور بنو حضور
ابن عدي بن مالك بن زيد وقد مر ذكرهم وتقول الين ان منهم كان شبيب بن ذي مهدم
النبي الذي قتله قومه ففزا بمختصر فقتلهم. وقيل هو حضور بن قحطان الذي اسمه في
التوراة يقطان ومنهم ايضاً بنو ميثم وبنو إحالة ابني سعد بن عوف بن عدي بن مالك اخي
ذي رعين. وعوف هذا اخو حضور واخوه أحاطة وميثم بنو حراز بن سعد

عن العلامة المسعودي

وقال العلامة المسعودي في كتابه مروج الذهب الجزء الاول وجه ٢٢٦ وكانت (اي بنو حضورا) امة عظيمة ذات بطش وشدة فغلبت على كثير من الارض والممالك وقد تنازع الناس فيهم فمنهم من الحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سميوا ومنهم من رأى انهم من ولد يافث بن نوح وقيل في انسابهم غير ما ذكر من الوجوه . وقد كان بعث الله عز وجل اليهم شعيب بن ذي مهديم بن حضورا نبياً ناهياً عما كانوا عليه وهذا غير شعيب بن نوفل ولما بعث الى حضورا واشتد كفرهم جد نبينهم شعيب بن ذي مهديم في دعائهم وخوفهم وتوعدهم فقتلوه فاباحى الله الى نبي كان في عصره وهو برخيا وكان من سبط يهوذا — ان يأتي مختصراً وكان بالشام — فيأمره ان يغزو العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم فلما أتى برخيا ذلك الملك قال له الملك صدقت لي سبع ليال أومر في نومي بما ذكرت وانادي بمجيئك الي وأبشّر ويقال لي ما امرتني به وانا انتصر للنبي المقتول المظلوم . فسار اليهم في جنوده وغشي ديارهم في عساكره وصاح بهم صاح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عم الصوت جميعهم . فلما سمعوا ذلك علموا ان الامر قد نزل بهم فانقضت جنودهم وتفرقت جموعهم وولت كتائبهم واخذهم السيف فقصدها اجعين .

عن العلامة الهمداني

جاء لهذا العلامة في كتابه وصف جزيرة العرب طبع لندن سنة ١٨٨٤ وجه ١٠٦ ما نصه قال

مخلاف حضور وهو حضور بن عدي بن مالك من ولده شعيب النبي بن مهديم بن المقدم بن حضور عليه السلام وهو الذي قتله قومه ويقال قتله اهل حضوري وعربايا وكان بعث اليهم . فسافله حضور يثاغ وشم وماضخ وصايح والانيوم وبريش ومنهم بحرا وعلمسان فهذه سافله حضور . وبحضور الصيد وهم يتهمدنون ويقال انهم من حمير وهم غير صيد همدان . وعالية حضور واضع والمعلل وحقل سهان . انتهى

ترى مما ذكره الهمداني صراحة ان هذا المخلاف هو في منتصف بلاد اليمن على مقربة من صنعاء وانه نسب الى حضور بن عدي بن مالك وابن خلدون يصرح ان حضور هو من نسل زيد الجمهور الذي ينتهي اليه نسب التبابعة وعليه فبنو حضورا كانوا التبابعة في ايام نبوخذ نصر وكان لهم ملك اليمن وتهامة معاً . وهذا مما تناسبه عبارة المسعودي — اي

أنهم كانوا امة ذات بطش وشدة وقد غلبت على كثير من الممالك
ثم اذا صدقنا قول اهل اليمن عن انفسهم في تواريخهم او تقاليدهم علمنا ان شعيب بن
ذي مهديم كان من امراء آل حضور فان هذه الاضافة — اي ذي مهديم — تشعر بذلك
ولها نظائر عندهم كذي السكلاع وذي يزن وذي شجر الخ فانها كلها اسماء امكنة اضيف
اليها كما صرح المسعودي بذلك . وشبيه بها عبارة مؤرخي المولدين في قولهم مثلاً صاحب
صور وصاحب طرابلس وصاحب الشوبك وصاحب سيجر وامثال ذلك كثيرة واعلمهم اتبعوا
اصطلاح من سبقهم اما ابدلوا ذي بعمها اعني صاحب . وعليه فهم اسم البلد التي كان
ابوه اميراً عليها . والمهديم ولا شك يراد بها مدينة المهجم الحالية وهي من امهات مدن
تهامة اما المشابهة الانطية فواضحة فان الحليم والدال يقرب لفظ احدهما من الآخر بل
كثيرون لا يلفظون الحليم الا دالا فاذا قلت لهم قولوا مهجم قالوا مهديم . واما المشابهة في الصفة
فان خلدون يقول كما نقلنا عنه ان اهل الوبر في ناحية عدن اليمن قتلوا نبهم شعيب ابن
ذي مهديم واهل تهامة كانوا ولا يزالون لحد هذه الساعة اهل وبر والمهجم من امهات مدنها
وربما كانت ايضا عاصمتهم في ذلك الحين فالوصف الذي ذكره ابن خلدون منطبق عليها
دعنا الان نذكر محصل ما جاء عن نبوخذنصر في سفري ارميا وحزقيال وسفر الملوك
الثاني اما النبيان فكانا معاصرين لنبوخذنصر واما صاحب سفر الملوك فكان بعده بقليل .
وربما عاصره مدة على الراجح . ثم محصل ما جاء عنه في تواريخ العرب وتقاليدهم على ما
رأيت في النقول التي نقلنا وبعد ذلك نتظر في مقابلة المحصلين احدهما بصاحبه فان في الواحد
ما يفسر بعض ما في الآخر من الابهام كما ستري : - -

في اواخر ملك يوشيا ملك يهوذا صعد فرعون نحو بحبوشه يقصد كركميش على الفرات
شمالى حلب فاعترضه يوشيا ملك يهوذا في بقعة مجدو فاصابه الرماة بسهم فجرح جرحاً مميتاً
ونقله عبيده من المركبة التي كان يحارب فيها متنكراً الى مركبته الثانية ورجعوا به الى
اورشليم فمات هناك ودفن في قبور آبائه وملك اليهود ابنة يهواز بدلا منه . الا ان فرعون
نحو عاد من كركميش بعد ثلاثة اشهر ومرو باورشليم فمزل يهواز واخذ اسيراً الى مصر
ونصب مكانه اخاه الياقم بعد ان ضمن له ما غرم به الارض من وزنات الفضة والذهب
وسماه يهوياقيم .

وبعد اربع سنوات من موت يوشيا كانت موقعة كركميش التقت فيها جيوش نبوخذنصر
بجيوش المصريين فكانت حرباً هائلة دارت فيها الدائرة على جيوش نحو وفاز البابليون على
المصريين فوزاً كبيراً فارتد هؤلاء الى بلادهم مهزومين وتعقبهم نبوخذنصر حتى جاء الى اورشليم

فلم يكن من يهوياقيم ادنى مقاومة فقيده نبوخذنصر ليذهب به الى بابل الا انه عاد فاستبقاه كاملاً له وما زال يهوياقيم عبداً لنبوخذنصر ثلاث سنوات ثم عصى عليه وعاد الى موالة المصريين الى ان مات في السنة الحادية عشرة من ملكه وملك ابنه يهوياكين بدلاً منه وفي اواخر ملك يهوياقيم جاءت جيوش البابليين الى اليهودية وبعد ثلاثة اشهر من ملك يهوياكين شدد نبوخذنصر الحصار على اورشليم فلم يعد يهوياكين يقوى على المدافعة فاستسلم هو وامه وعبيده ورؤسائه وخصيانه لنبوخذنصر فاخذهم الى بابل وسبى معهم سبعة آلاف من اقوياء الارض واصحاب البأس فيها فضلاً عن الابطال اهل الحرب وفضلاً عن الصنائع من التجارين والحدادين

ولم يذكر في سفر ارميا ولا في سفر حزقيال ولا في سفر الملوك ما السبب في عصيان يهوياقيم على ملك بابل بعد ان استعبد له ثلاث سنوات . على ان ارميا النبي يشير الى اسم القبائل العربية ددان وتيماء وبوز وكل ملوك العرب وكل ملوك الفيف الساكنين في البرية وكل ملوك زمري وان هذه الامم كلها كانت عند موقعة كركميش او بعدها بقليل حرباً لنبوخذنصر ومن جملتهم قيدار وممالك حاصور وان نبوخذنصر كان يعد لحرب هؤلاء عن آخرهم . وهذه عبارته في شأن ممالك حاصور قال « اهربوا انهزموا جداً تمعقوا في السكن يا سكان حاصور يقول الرب لان نبوخذنصر ملك بابل قد اشار عليكم مشورة وفكر عليكم فكراً »

وجاء في سفر الملوك انه لما عصى يهوياقيم على نبوخذنصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين ارسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الاراميين والعوميين والموابيين ولم يذكر نبوخذنصر ولا جيوشه حينئذ وانما ذكره في ابتداء ملك يهوياكين فلماذا لم يأت نبوخذنصر او على الاقل لماذا لم يرسل جيوشه لحرب من عصى عليه بعد ان واثقه على الطاعة ولماذا اخر غزوه والاقتصاص منه اربع سنوات تقريباً . ثم لما تحرك نبوخذنصر وسار بجيوشه على اورشليم يقول صاحب سفر الملوك هذه العبارة يعترض بها اعتراضاً « ولم يدملك مصر يخرج من ارضه لان ملك بابل اخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر » كل هذا مما يحتاج الى تفسير ولا يفهمه الا حروب ملك بابل في حاصور على ما ارى فلتقدم اذن لذكر محصل ما يفهم من النقول التي نقلناها آنفاً عن ابن خلدون والمسعودي والهمداني يتحصل منها ان بني حضورا وهم ممالك حاصور كانوا ملوك اليمن في ذلك الحين وان عاصمتهم كانت صنعاء او مدينة أخرى بقرب صنعاء ولعالمها مدينة حاز في خلاف حضور فان الهمداني يذكر انها مدينة قديمة وفيها آثار جاهلية وكانت تهامة تابعة لهم . ويتحصل ايضاً ان

شعيب نبي بني حضورا وابن صاحب المهجم كان من اشياح نبوخذنصر وحكمه في قومه كحكم ارميا في اليهود فلما قتله قومه من اهل الوبر في تهامة استنجد اهله او حزبه بمختصر وكان حينئذ في اليهودية وجهاتها يفكر في غزو العرب وبلاد اليمن ليلتحقها باملاكه كما فعل من سبقه من ملوك اشور وقوادها العظام فसार اليهم ليثار منهم بدم النبي المقتول. وكان مسيره بعد ان مر باورشليم في الرابعة من ملك يهوياقيم . وهنا نقول انه لاقى من الصعوبات في غزو هذه البلاد اشد مما لقيه الرومان في اوائل التاريخ المسيحي في ايام اوكتافيوس قيصر ذلك لان هؤلاء لم يحتاجوا الى قطع الصحراء الشمالية لانهم ساروا بالسفن من مصر حتى بلغوا الحوراء فنزلوا عليها ومن هناك دخلوا تهامة واليمن واما هو فاضطر الى قطع الصحراء ومحاربة العدنانيين او قidar اولا وبعد ان استأخمهم استمر على غزوته خلفهم الى تهامة وحضورا. وعليه فقد لاقى من المشقات اضعاف ما لاقاه الرومان ولا سيما ان المصريين كانوا عليه لا معه ومن اشد خصومه ايضا ولا يبعد انهم انجدوا اهل حضورا وامدوهم بالمال والرجال . ولا يبعد ايضا بل هو مما يجوز لنا ترجيحه ان قد توجهت عليه غلبة او غلبات احيانا فاشيع خبر انغلابه في سوريا وفلسطين اشاع ذلك خصومه المصريون فارتد بذلك كثيرون من الشعوب عن طاعته ومن جملتهم اليهود . وهذا مما يفسر لنا سبب عصيان يهوياقيم على بمختصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين على ضعف سياسته وتفرق قلوب اهل مملكته عنه. ويفسر لنا ايضا ما جاء به صاحب سفر الملوك من انه لما عاد يهوياقيم فتمرد على بمختصر ارسل عليه الرب غزاة السكلدانيين والاراميين ولم يقل جيش السكلدانيين ولا بمختصر ملكهم لانه لم يكن حينئذ يستطيع ان يحضر بنفسه ولا ان يرسل اليهم جانباً كبيراً من جنوده لانه كان منهمكاً بحروبه في اليمن وتهامة وكانت الحرب شديدة لا تؤذن له ان يوجه جيشاً كبيراً منظماً ليقترض من اليهود فارسل من ثم شراذم غزاة فالتف عليهم قوم من الاراميين والموابيين والعمونيين اعداء اليهود وكان من هم هؤلاء الغزاة مضايقة اليهود واعانتهم بالغزو على اطراف بلادهم وقطع السابلة على تجارهم وقوافلهم الى ان يكون فرغ بمختصر من حرب العرب . ومما يستوجب الفكرة أن لم يكن بين هؤلاء الغزاة على يهوياقيم احد من الادوميين ولعل ضامهم كان مع اليمنيين على بمختصر كما كان ضلع من خلفهم من الانباط مع اهل اليمن على الرومانيين

وقد استمرت هذه الحرب على ما يظهر نحواً من ثلاث سنين خرج منها بمختصر مظفراً غالباً ودانت له عند نهايتها البلاد كلها من نهر مصر الى نهر الفرات وفرغ حينئذ لحرب اليهود فلم يلبث ان استسلم اليه يهوياكين ملكهم بعد ثلاثة اشهر من الحصار كما ذكرنا

هذا ما خطر لي في التحقيق عن ممالك حاصور ولا اشك ان من يقابل كما قابلت ويراجع ما راجعته يتبين له كما تبين لي وخلاصته ان قidar هم العرب العدنانيون وان ممالك حاصور هم بنو حضورا تابعة اليمن في ذلك الحين وان حروب مختصر معهم استمرت نحواً من اربع سنوات من السنة السابعة ليهو يقيم الى السنة الحادية عشرة من ملكه وهي السنة التي مات فيها . ويظهر له ايضاً ان التبابعة بني حضورا كانوا منقسمين الى حزين حزب مع المصريين وآخر وهو حزب شعيب بن ذي مهدم مع البابليين وان هذا الانقسام والحزب لنبوخذنصر هو الذي مكن هذا الملك البابلي من اجتياح بلادهم وايقاعه بهم حتى كاد يفنيهم مما لم يسبق لملك قبله ولم يتأت مثله لمن بعده . وقد بقي خبر هذه الغزوة لشدها محفوظاً في تقاليد اليمن لحد هذه الساعة دون غيرها من غزوات المصريين والاشوريين والرومانيين . ومما يؤيد صحة هذه الغزوة على ما ذكرنا ايضاً وجود الانباط وهم سكان بابل في حقل جهران وحقل قناب في قلب اليمن قال الشاعر على لسان احد التبابعة

فسكنت العراق خيار قوي وسكنت النبط قرى قناب

انظر الهمداني وصف جزيرة العرب وجه ١٠٤ . وفوق كل ذي علم عليم



الاحتفال بالدستور

لقد كان لاعلان الدستور في البلاد العثمانية اعظم وقع في نفوس العثمانيين فمقدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع الملا مجلدات كثيرة . وقد اخترنا من ذلك خطبة وقصيدة رأيناها من أدل ما انشيء في وصف انالة الحاضرة . والخطبة وموضوعها « نحن والدستور » لحضرة الاستاذ جبر صومط من أساتذة المدرسة الكلية الاميركية في بيروت

نحن والدستور

كنا منذ بضعة اسابيع بل منذ اقل من ذلك يناجي احدنا نفسه ولا اقول اصدقاءه بسوء ما صرنا اليه ويخاف على نفسه مغبة تلك المناجاة . يخاف ان يبدو على وجهه شيء من امارات ما يحول في خاطره فيؤخذ بقبعة ذلك الخطر ويساق الى السجن او المنفى . وان كان ممن يؤبه له فربما سيق الى القتل او الكورك ومن يجسر أن يدفع او يقول رفقاً . وربما كان عقاب الشافع او طالب الرفق اشد من عقاب المتهم

منذ بضعة اسابيع كان كثيرون من اعيان العثمانيين واشدهم محبة واخلاصاً في رفع شأن العثمانية يخاف ان تنفث من صدره زفرة او يباغته تهد فينفل عنه خبر تلك الزفرة او ذلك التهد جاسوس عاينه من المتظاهرين بصداقته او ممن هم في خدمته بل ربما نقل عنه الخبر احد بنيه او امرائه وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى

منذ بضعة اسابيع ايها السادة كان تألم المتألم منا سراً علي ما وصات اليه العثمانية وعلى ما صار اليه العثمانيون ذنباً من اكبر الذنوب وكان احدنا يخاف ان بعض اهل الشر والنذالة يدس في بيته او بين كتبه كتاباً او بعض وريقات بصورة كتاب الى احدهم او مقالة لجريفة فكان ذلك يكفي لان يحسب من اكبر المجرمين والخونة المارقين ولو كان صدره يغلي بحب العثمانية والعثمانيين

وخلاصة ما يقال انا كنا منذ بضعة اسابيع والظلمة تغشانا والخاوف تهدد كل عثماني حر منا نزيه في نفسه صادق في عثمانيته مخلص لامته . واربذ بالاخلاص الاخلاص الحقيقي المبني على العلم والحكمة والامانة لا هذا الاخلاص المدعى زوراً المتافق فيه بهتاناً الذي كان كثيرون يضعونه على وجوههم السمجة والسنتهم الكاذبة

كنا منذ بضعة اسابيع والصدور ضائقة بما فيها والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها والعقلاء انزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون وكأنما اطبقت عليهم السماء وسدت عليهم منها منافذ الرحمة اوضفت عليهم الارض حتى رضتهم رضاً فألصقتهم بالتراب اودفعتهم الى مخارم الجبال وبطون الغيران وظلمات الكهوف وقد حصرت صدورهم وساءت او كادت ظنونهم تسمى بالعناية الالهية . بينما نحن في هذه الظلمة المدهمة وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلاً ولا آباءنا الاولون سطع علينا بفتة نور القانون الاساسي فاشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية

ما بين غفلة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال
واذا عظمت النعمة فامس بازائها الا الشكر . فاشكر الله ثم الشكر له . وبعد الشكر لله لا يسعنا الاغضاء عما فعله امراء جنديتنا العثمانية البواسل نيازي وانور والوف امثالهم وكلهم في الشرف والهمة والاستبسال في سبيل العثمانية نيازي وانور
وبعد فوضوعي مؤلف من كلتين الاولى منها « نحن » والثانية « الدستور » ولا بد لي من تحديد ما يراد بهاتين اللفظتين وابدأ بلفظة الدستور أولاً واعني كل دستور عموماً ودستورنا العثماني خصوصاً

ما هو الدستور ؟ هو القوانين المسنونة وفقاً للاختبار والحكمة ليعامل بموجبها افراد الامة اسعاداً لهم من حيث هم افراد واسعاداً وتعزيراً لهم من حيث هم امة اي مجموع افراد وللأفراد كل الحق والحرية ان يتفاضوا المعاملة بموجب نص تلك القوانين صراحة او ضمناً وللأمة ايضاً ملء الحق والحرية ان تحتاط لحفظ هذه القوانين وصيانة حرمتها من يتخوف منه الاعتداء عليها او اهل العمل بها

هذا تحديد شبيه بتحديد المناطقة ولكني لا اضمن انه جامع مانع كما اني لا اضمن ان يكون موافقاً تمام الموافقة لتحديد فلاسفة العمران او المشرعين ولكني اقول انه تحديد فيه من الصحة القدر الذي اريده لبيان اهمية كل دستور وعظم قيمته الحقيقية على انه يجوز تعدد التعاريف اذا كان المعرف متسعاً كما هي الحال في الدستور لانه يجوز ان يكون الحد او التعريف صفة من صفاته او غاية من غاياته كما يجوز ان يكون بياناً لكيفية حصوله والعوامل التي اثرت في كيانته تدريجاً وما اتفق في سبيل ذلك من القوى المعنوية والمادية حتى بلغ ما بلغ اليه

الدستور ايها السادة هو نتيجة محاربات الخير والشر اجيالاً الله يعلم كم هي تدهر ويعبارة اخرى هو مجموع ما استفادته الانسانية من غلبات الخير على الشر في اثناء العراك

الهائل الذي قام بينها من اول عهد الانسان الى الآن هو نتيجة غلبات العدل على الجور والعقل على الحيوانية والعالم على الجهل في اثناء مئات من الاجيال هو ثمرة عقل كل عاقل في المجتمع الانساني وحكمة كل حكيم واستقامة كل مستقيم وصبر جميع هؤلاء على المجاهدة المستمرة مدى الحياة اثناء الاجيال التي غبرت . هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل سيف استل في نصرة العدل والحق والاستقامة منذ قام عادل وعارف بالحق ومستقيم بين افراد الانسانية لحد هذه الساعة

الدستور العادل المرعي الاجراء عند كل أمة متمدنة هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل لسان تكلم بالحق انتصاراً للعدل واذلالاً للجور كما انه غاية ومجموع نتائج كل ما خطه براع حكيم عالم وكاتب فاضل انتصاراً للانسانية على الحيوانية وللعلم على الجهل وللحكمة على السفاهة ولكل ما هو شريف وعادل على ما هو خسيس وجائر

بل الدستور العادل المرعي الاجراء هو عند التحقيق مظهر لارادة الله في المجتمع العمراني واثار مما علم به وجاهد له الانبياء والمرسلون ومن اقتفى خطواتهم واهتدى بهديهم من العلماء الراسخين والاولياء الصالحين والوعاظ اهل الغيرة المتقين

ايها السادة هذا هو الدستور العادل على الاطلاق ودستورنا العثماني دستور خاص يشتمل على كل ما يشتمل عليه دستور عام ويتناول كل ما قلناه عن الدستور العادل من الصفات والمقومات وزيادة ايضا شأن كل خاص فانه يشتمل على العام وزيادة . هذه الزيادة هي تعريض نفوس نحو من اربعمئة الف رجل من رجالنا العثمانيين للموت في حرب اهلية طاحنة . ولولا حكمة امراء هذا الجيش ومن نصرهم من خيرة اعيان العثمانيين بالرأي والمال . ولولا اقتناع جلالة مولانا السلطان بان ما عرض من الطلب على جلالته بواسطة جنديتنا الباسلة انما هو صوت الامة - لولا ذلك كله لكانت الدماء الآن تسيل انهاراً والاموال تنفق جزافاً في سبيل الحصول على هذا الدستور

فهذا هو دستورنا العثماني الذي احرزته لنا سيوف اجنادنا العثمانيين بمعاودة احرارنا المتحدين من امراء ووزراء وقادة جند باسل وعلماء اعلام وفقهاء عظام واهل حل وعقد من اعيان الامة ووجهائها في سائر انحاء المملكة فانهم كلهم رضوا به وحلفوا بالايمان الرهيبة على مراعاته والاحتفاظ به كما يحتفظون باموالهم واعراضهم وانفسهم وكلهم امضى على وجوب الطاعة له والعمل به فاصبح من ثم مجد الامة وقوتها وملك كل فرد من افرادها يتمتعون ببركاته في حياتهم ويورثونه لمن يخلفهم من ابنائهم بعد مماتهم . فليحي هذا الدستور مجد الامة وحياتها وعزاها وليحي القائمون بنصرته والعاملون به

ترون ايها السادة مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحنا به هي صبيانيات تافهة ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكريمة له ولحماته تهوسات ضارة بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جذب اهميته ومقدار قيمته . واي قيمة اعظم من قيمة الحياة حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد وحياة العزة والقوة والتوازن والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فيلقل ليحيي الدستور العثماني والقائمون به ومن اراد الموت موت الذل والصغار والاستعباد فلا رحمه الله ولیمت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرة

ايها السكرام فرغت الآن من الكلام علي الدستور وهو احد كلتي موضوعي وبقي علي الكلام علي الكلمة الثانية منه وهي كلمة « نحن » فارجو ان تعيروني إصغاءكم في بيان المراد منها وما اليه فان هذا البيان الثاني لا يقلل في الاهمية عن البيان الاول ان لم يكن اهم منه قلت ما محصله ان دستورنا العثماني هو بحسب ارادة الامة العثمانية العادلة الخيرة وهو ملك افرادها اليوم وميراث ابناءها غداً . وقد نعمنا الارادة بالعادلة الخيرة والافلاستبداد ارادة وحكومة الظلم والجور والبغي ارادة ايضاً . وارادة الامة العثمانية (وكل امة) هي ارادة مجموع افرادها او من ينوب منابهم من المتبوعين واهل الجاه الذين يقولون عن اتباعهم ويقطعون من دون استشارتهم ومراجعتهم

لكن ربما يستنتج من قولنا ان الدستور هو بحسب ارادة الامة ان قيامه او سقوطه متوقفان علي ارادة الامة فاذا ارادت اقلته قام اي روعيت احكامه وعمل بها واذا ارادت اسقاطه سقط اي اهمات احكامه وعمل باحكام منافضة لها . وظاهر هذا الاستنتاج صحيح ولكنه ظاهر مموه مشوب بكدورة من النظر الفاسد . والحقيقة هي ان قيام الدستوراي مراعاة احكامه والعمل بها دليل علي ان في الامة ارادة خيرة عادلة غالبية والدستور هو بحسب تلك الارادة . واما اذا سقط فلا يكون سقوطه دليلا علي ان الامة ارادت اسقاطه بل هو دليل علي ان الامة ميتة لا إرادة لها كأمة لا كفراذ . وبعبارة اخرى لما كانت الامة هي مجموع الافراذ كان لنا ان نقول ان قيام الدستور واستمراره مرعياً دليل علي ان هذا المجموع حي مرید ارادة خيرة عادلة اما سقوطه اي اهمال العمل به فدليل علي ان هذا المجموع (لا الجميع) ميت جبنأً او جهالة كجموع لا كفراذ اذ لا تخلو الامة من افراد لهم ارادة خيرة تعضد الدستور العادل ولكنهم كثيراً ما يكونون مضعوفين مغلوبين علي ارادتهم كما كان الحال عليه بيننا منذ بضع سنين بل منذ بضعة اشهر ولزجج الان بعد هذا الاستطراد الي بيان المراد بكلمة « نحن » فمن نحن ؟ يجوز

لي ان اعم في الجواب وان اخصص فان عمت قلت نحن من العثمانيين الذين لهم ارادة وارادتهم جزء من ارادة الامة العثمانية . وان خصصت قلت نحن جماعة اكثرهم من اللبنانيين قاموا باحياء هذه الليلة الزاهرة لتحية الدستور والاقرار بالمنة علينا لحناته من امراء جنديتنا البواسل . ومعظم هذه الاكثرية من قضاء الشوف وهم من اعيانه واهل الوجاهة فيهم ممن يجوز ان تمثل ارادتهم ارادة الاهلين كلهم او اكثرهم . لكن يا ترى اذا مثلت ارادة هؤلاء السراة الحاضرين الآن ارادة اكثر اهل قضاء الشوف فهل تمثل ارادة اللبنانيين كلهم . وهب انها مثلت ارادة كل اللبنانيين فهل تنطبق ارادتهم على الدستور العثماني الذي هو مجسم ارادة مجموع الامة العثمانية العادلة المقدسة

جائز ان يكون الجواب من قبيل الجواز او من قبيل القطع بالحكم . اما انا فاقول ان ارادتهم ايها السراة العثمانيون التي تمثل ارادة اهل قضاء الشوف كلهم على الارجحية الغالبة ولعلها ايضاً تمثل ارادة كل اهل لبنان لا تنطبق على ارادة الامة العادلة تمام الانطباق الواجب الا مع الاخلاص . فان كنتم مخلصين في ارادتهم واتفاقكم المتبادل فارادتهم منطبقة على الدستور وهي جزء من ارادة الامة . اما اذا لم يكن اخلاص وكان هناك اهواء واغراض ذاتية خاصة فحسبكم ان مثل هذه الاغراض كانت فيما مضى سبباً لكل الويلات التي مرت بنا . الويلات التي لا نذكرها بل لا تمر في خواطرنا الا وتتقبض صدورنا اشد الانقباض من مجرد ذكرها بل من مجرد مرورها في البال . مرور المسرع فانا اتقدم اليكم بالشرف العثماني وبشرف جنديتنا الباسلة ان تراجعوا ضائركم وتفظنوا لحفايا النفس وتفقدوا خباياها فاعل هناك هوى يلون للارادة حب الذات بلون محبة الامة والشرف ويصور لها الغرض الخاص بصورة الغرض العام والمصلحة الذاتية بصورة المصلحة القومية العمومية

ايها الوجهاء من كان منكم يحب الظهور وبعد الصيت — ولا عار ولا غشاضة على احد بسبب ذلك — فليراجع نفسه وشرفه العثماني قبل ان يحزم ارادته بما هو في سبيله من الوسائل التي تؤدي به الى غايته هذه فان هذه المحبة قد تنقاد للهوى والهوى في جانب الباطل دائماً وعلى عدا مع الدستور المقدس

ان المناصب في خدمة الامة على اختلاف انواعها وتفاوت درجات شرفها واهميتها جائزة لكل عثماني كفاء لها ومباح له طلبها والسعي في احرازها بل والتنافس في ذلك ايضاً الا ان الشغب بالترفع في المناصب قد يباينه الاخلاص احياناً كثيرة ويداخله الهوى ولذلك ففيه ما فيه من الخطر الذي قد يسوق صاحبه الى الجري في خطة القوم السالفين

خطة التزلف الى من في يدهم الامر والنهي والعزل والتنصيب . فمن كان يرغب في المناصب فليحاسب نفسه وليتق مغبة التزلف الى من انقذوا الامة من الحالة التي كانت فيها قبلا الى الحالة المجيدة الشريفة التي هي عليها الآن . فما اوصلنا الى ما وصلنا اليه سابقاً الا اطاع واغراض وحب وجاهة وتفوق في غير موضعها او في غير الحق فحزت كل هذه او بعضها الى التزلف . والمتزلف قل ان بصور الامور الا في غير صورتها الحقيقية . فالاناة الاناة والاخلاص الاخلاص ايها العثمانيون والاشعث بنا الاعداء وكثير ما هم . أما والذي نفسي في يده اني لافضل ان تضرب عنقي على ان آتي ما فيه معرة او غص من شرف عثمانيتنا الجديدة فانها تجلت للملا اجمع للصدوق والعدو نقيّة من كل دنس ومن ثم فأقل هفوة منا نحن مرديها تظهر على يياضها التي لطخة سوداء شائنة يتألم لها قاب الحب وتصفّر نفسه ويطير لها فرحاً قاب العدو وتدفع نفسه الحبيثة للتشنيع والمذمة ويطل رأسه كبراً بعد ان كان اخنسه صغاراً وجنباً — ومع اني اشعر هذا الشعور وانا صادق فيه نظير كل واحد منكم — مع ذلك لا آمن من بدوات النفس واهوائها الخفية المنحرفة ان تفسد اخلاصي ان لم اكن على أشد الحذر منها والانتباه لها — اخاف هذا مع بعدي عن التدخل بما يسمونه سياسة او حزباً وانصراف نفسي عن الوظائف جملة بما انا راض به تمام الرضى من خدمة العلم والمتعلمين

على ان الاخلاص وهو من مقومات العثمانية وأهم اركان هذا البنيان الجديد الشريف الذي شرع فيه احرار العثمانيين لا يكفي وحده ان لم يصحبه العلم والخبرة فكم من هبة جهل وتسرع من اخلاص المخلصين افسدت رأياً كان فيه مجد العثمانية وقوتها وحياتها لم يكن يطمع في افساده اعدى اعدائها . والعلم نتيجة الفكرة والتروي والتدبر فلا بد لنا اذن من كل هذه قبل العمل . وربما الحق بنا المخلص المتسرع من الضرر في ساعة اضعاف ما يلحقه بنا اتفاق في ساعات بل في اشهر

تأملون ايها السادة ان يومنا الذي نحن فيه يوم تأسيس لا تزيين وهو يوم له ما بعده فان كان الاساس من ثم راسخاً ثابتاً فكلامنا يبني عليه فيما بعد يكون شديداً به ويكون لنا ايضاً والا فانتم ادرى مني بمصير بنيان تسرع في تأسيسه . وعليه فنحن اليوم احوج الى التروي والفكرة من كل الايام التي مرت بنا ومن كل الايام التي ستمر بنا بعد ان تستتب امورنا ويرسخ اساس عثمانيتنا الجديدة الحرة

فيا ايها الذين تسرعون في آرائكم ولا تفكرون في عواقب ما تراءون ولا في مغبة اعمالكم لم توفق الى الرأي الصائب دعوا التسرع جانباً فان تسرعكم لا يفيدنا الان وان كنتم

اخلاص المحاصنين واغراهل الغيرة الحققة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . لانا في حاجة الى المحاصنين اصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتديرنا ولا اعني باصحاب العلم والخبرة الثنارين المكثرين من فضول الكلام كما اني لا اعني بهم من يستظهرون آداباً ويكتبون اقوالاً ويحملون في ذاكرتهم اسفاراً او ينظمون ويشثرون مدحاً وهجاء بل اعني باصحاب العلم الذين نحتاج اليهم اليوم اصحاب الرأي الاصيل والتدبير المحكم الذين يعرفون اهواء الامة ويعرفون امراضها ومواضع الخلل فيها ثم يعرفون كيف يصرفون تلك الاهواء على مقتضى العقل والحكمة وكيف يداوون تلك الامراض ويسدون ذلك الخلل ولا بد ان يكون واحدهم عارفاً ايضاً بمجمل احوال الامة العثمانية وما بينها وبين بقية الدول من المعاهدات والمتاجرات ويعرف ايضاً ما لتلك الدول من الخطط والتقليدات

هؤلاء هم الرجال الذين نريدهم في الوقت الحاضر وهم من المرادين بقولنا «نحن» في موضوعي «نحن والدستور» ثم لا بد ان يكون هؤلاء الرجال من مساعدين على شاكلتهم في الاخلاص والنزاهة والعلم والخبرة . واما الرجال الذين نريدهم مع الايام فلا مجال الآن لذكرهم وتعريفهم وما نطلبه من كل واحد منهم . وآخر ما اختم به مقالتي أنا نريد بلفظة «نحن» العثمانيين المحاصنين النزاهة اهل العلم والخبرة اهل الحكمة والتدبير الذين يقولون قليلاً ويفعلون كثيراً . نريد بلفظة «نحن» المحاصنين من اهل النجدة والفتوة هؤلاء البواسل الذين يبذلون نفوسهم دون الامة ودون انفاذ مآل دستورها او قانونها الاساسي العادل ويجعلون سيوفهم رهناً لاشارة اهل العلم والرأي والحكمة والتدبير من غير لفظ ولا قلقلة ولا دعوى . يمثل هؤلاء بحيا الدستور ويعظم شأن الامة فليحيوا وليحيي الدستور الذي هو مجسم ارادة الامة ارادتها العادلة الخيرة ولتحيي الامة وليحيي ابناءؤها هؤلاء الاجناد البواسل وكل اصحاب الارادة الحرة والاخلاق الشريفة الفاضلة وليحيي ايضاً رأس الامة العثمانية المجيدة الذي اصبح يرى ويحسب نفسه اباً وافراد امته اولاداً والسلام



البلدان العربية

واهمية اللغة العربية فيها

اعني بالبلدان العربية في المملكة العثمانية الولايات والمتصرفات التي يتكلم اهلها اللغة العربية فقط او يتكلمونها مع لغة أخرى ولكنها اي العربية هي اللغة المعمول عليها في كتابات الاهلين ومخطباتهم ومعاملاتهم على سبيل الاجمال ثم هي فوق ذلك لا تنازعنا فيها السلطة دولة أخرى اجنبية بسبب من الاسباب او لا يحق لها ذلك . فيخرج بالشرط الاخير كل البلدان العربية في القارة الافريقية (عدا طرابلس الغرب) وبعض البلاد في شبه جزيرة العرب ويبقى لنا الولايات والمتصرفات الآتي ذكرها

(١) ولايتا بيروت وسوريا ويلحق بهما متصرفيتا لبنان والقدس

(٢) ولاية حلب

(٣) متصرفية الزور

(٤) ولاية الموصل وقسم كبير من ولاية ديار بكر

(٥) ولاية بغداد

(٦) ولاية البصرة ويلحق بها الكويت والاحساء.

(٧) شمر والقصيم

(٨) الحجاز

(٩) عسير

(١٠) اليمن وتهامة

وهي بلاد كبيرة واسعة الاكتاف ويقال عنها اجمالا انها (ما عدا الحجاز) من اخصب بلدان الدنيا على اعتدال في هوائها وطباع اهلها فضلا عن انها كلها في وسط المعمور تقريباً وعلى طريق التجارة بين الشرق والغرب. وكانت قديماً ويمكن ان تكون في ما يأتي من الزمن بلاد الزراعة والصناعة والتجارة ومركزاً للعلم والادب ايضاً. اما عدد سكانها ففيها على سبيل التقريب اثنا عشر مليوناً من النفوس على التعديل المتوسط وربما بلغوا الخمسة عشر مليوناً او ما يقارب ذلك بحسب تعديل بعضهم. واكثر هذا العدد من الحضرة سكان المدن والقرى وفيهم الاعراب سكان الخيام الذين يسرحون بانعامهم وماشيئهم من مرعى الى آخر ولكن عددهم لا يتجاوز الثلاثة ملايين في الارجح وعلى اعلى تعديل ايضاً

اما ولايات سوريا وبيروت وحلب ومتصرفية القدس ولبنان فمعروفات عند جمهور القراء. واما الموصل وديار بكر ومتصرفية الزور فانها وان تكن من البلدان العربية الا انها متنجحات نوعاً عن أم البلدان العربية أعني جزيرة العرب ومتاخات للفرس والارمن والاكراد والأتراك ولاسيا ولاية ديار بكر وعليها بعض الصبغة من هذه الامم ولا يفهم من قولي هذا ان هذه البلدان تنزع في اميالها ومشاربها واغراضها وتقاليدها الى الأتراك او الأكراد او الارمن اكثر مما تنزع الى العرب ولا اظن ايضاً ان في الواقع شيئاً من هذا فان الذين يتكلمون لغة من اللغات تكون نزعاتهم في اميالهم ومشاربهم وتقاليدهم واغراضهم السياسية والاجتماعية الى جانب اهل لغتهم وان بعدوا عنهم اكثر مما هي الى جانب اهل لغة أخرى وان هم قربوا منهم في الجوار حتى وفي الجنسية البعيدة ايضاً

على ان بعد هذه البلدان الثلاث وتمحيها عن صميم البلاد العربية ووجود بعض الصبغة في سكانها ممن جاورهم من الاجناس الاخرى كل ذلك ما كان ليمعني من التكلم عنها فيما لو كنت استطيع ان افيد القراء فائدة تذكر ولهذا تركت القول هنا كما تركته في اهل الولايات الاولى

ولايता بغداد والبصرة

وهما من أمهات الديار العربية قبل الاسلام وبعده اما قبل الاسلام فلأن الحلة كانت داراً لملوك العرب من ايام جذيمة الابرش الى آخر من ملك من المناذرة. واما في الاسلام فاخضعت البصرة والكوفة في ايام عمر بن الخطاب وما زالتا مدينتي العرب احيالا ولما قام المنصور العباسي اختط بغداد وبقيت داراً للخلافة الاسلامية العربية الى ان قدم هلاكو اليها سنة ٦٥٦ هجرية وقتل الخليفة المستعصم بالله واستباح المدينة اربعين يوماً قيل فبلغ القتل اكثر من مليون نفس ولم يسلم الا من اختفى في بئر او قنطرة

اما عدد السكان في هاتين الولايتين فيبلغ على ما جاء في الاحصاءات الحديثة نحواً من مليونين وهو عدد كادت تبلغه مدينة بغداد وحدها في ابان عزها. والبلاد لا ينقصها خصب ولعالمها من اخصب بلدان الدنيا ولاسيا بقعة مدينة بغداد وما حواليلها فانها تصلح للزرع والضرع وقد جاء في الانسكلوبيديا البريطانية انها قد تغل اربعمئة ضعف. وربما بلغ طول ساق النخلة في بساتين بغداد والبصرة نحواً من ثمانين قدماً وطول سعوفها اثنتي عشرة قدماً ويقول زويمر صاحب كتاب مهد الاسلام ان احد كبار التجار الانكليز في البصرة يقدر غلة النمر سنوياً بنحو من مئة وخمسين الف طن او ستمئة الف قنطار شامي ولا يبعد ان هذه

الغلة قد تضاعفت من عشرين سنة الى الآن . والعارف بالبلاد وبنسبة بساين التمر الموجودة الآن الى ما يمكن ان يكون منها لا يشك ان غلة التمر يمكن ان تضاعف الى عشرة امثال ما ذكره زويعر في خلال عشرين سنة من الآن اذا وجد الامن المطلوب وامن الفلاح الظلم والاعثات

وأهل البلاد خبيرون بتربية النخل منذ القدم ولا يزالون الى اليوم وهو من المواد الاولية في معاشهم وليس في شجرته شيء الا وله منفعة واستعمال عندهم . والشائع على اللسنة ان لشجرة النخل الف منفعة ومنفعة ويكفي من منافعه ان المرأة على ما يقولون تطعم اهل بيتها كل يوم لو نأ من التمر غير الذي اطعمتهم اياه بالامس على مدى ثلاثين يوماً والبلاد ايضاً كما هي بلاد نخيل هي كذلك بلاد حبوب وقطاني وبلاد صوف وقطن وصنع ورب السوس . ذكر زويعر ان معدل اثمان صادرات الصوف من ولايتي بغداد والبصرة بلغ سنة ١٨٩٧ نيفاً ونصف مليون من الجنيهات الانكليزية

ولقد كانت بغداد والبصرة من اكبر المراكز التجارية في العالم في ايام زهو العباسيين فانصببت اليهما تجارة الشرق كله برأ وبحراً فكانت العوافل تأتي بغداد من اقصى الشرق والشمال والمراكب تأتي البصرة من كل الفرض التجارية في افريقيا والهند وسيلان وبحر الصين . وفي هذه البقعة كانت أشهر المدن التجارية قديماً فبابل وسلوقة واكتريفون كانت في هذه البقعة وقد فاقت عليها كلها بغداد وكذلك كانت اور والاسار وأرك وكلنة وفاقت عايتها كلها البصرة . وشوشن القصر وهي عاصمة الدولة الفارسية في ايام داريوس الكبير ومن خلفه هي في مركزها التجاري على حسنه دون مركز البصرة او بغداد الآن

بغداد اخصب بقعة في العراق . دجلة والفرات طريقان مائيان عظيمان ينصبان اليها من الشمال الاول رأساً والثاني بما يوصل من الترع بينه وبين دجلة . ودجلة يوصلها بالبصرة اتصالاً لا ينقطع ثم البصرة توصلها بخليج فارس بخليج عمان فباليبحر الكبيرة . فاي مركز اذن يفضل مركزها ليتأمل متأمل موقعها الجغرافي ثم ليحكم بنفسه لنفسه

قبل ان اترك هاتين الولايتين لا بد لي من ان اذكر ما ذكره زويعر في كتابه مهد الاسلام « انه في سنة ١٨٩٧ خرج من ميناء البصرة اربعمئة وواحد وعشرون مركباً شراعياً وخمس وتسعون باخرة محموها ١٣١٨٤٦ طناً ومن الخمس والتسعين باخرة احدى وتسعون » لبريطانيا العظمى . ولا يجهل عثماني عرف بغداد من موظف وتاجر ما لقتصلاتو بريطانيا من الاهمية في بغداد . الاهمية التجارية والسياسية . وكلنا لم ننس بعد الازمة السياسية في وزارتنا العثمانية التي احدثتها شركة للنس الانكليزية هناك في بدء السنة الرومية الحالية

تابع ولاية البصرة

قلنا ان الكويت والاحساء تابعتان لولاية البصرة ونقول ان المرحوم مدحت باشا قدم اليه ايام كان والياً هناك عبد الله بن سعود يستنصره على اخيه سعود واجلت سياسته حينئذ عن ان ألحق الكويت والاحساء بولاية البصرة وشكل منهما متصرفية سميت بمتصرفية نجد. اما الكويت فعلى ان يكون عبد الله المذكور قائماً عليها كل ايامه تحت حماية العثمانيين فدخلت الكويت والاحساء تحت حمايتنا من نحو ثلاثين سنة ولم ينازع منا في ذلك وتشكلت متصرفية الاحساء كما المعنا ولا تزال الى الآن يعين لها المتصرفون من قبلنا ومعهم من الجند والضابطه ما تقتضيه الحاجة السياسية والمدنية . ولا شك ان الجزيرة المعروفة بالبحرين كان ينبغي ان تكون تابعة للمتصرفية ولكن الاهمال من جهة وبعد الشقة من جهة اخرى والجهل باهمية موقع الكويت وموقع الجزيرة معاً كل ذلك جعل المتصرفين بغضون النظر عن الكويت والجزيرة ويتركون لرؤساء القبائل فيهما ان يتصرفوا بالبلاد والعباد كما يشاؤون كما هم مستقلون في المكانين المذكورين

موقع الكويت والاحساء

الى الجنوب بميلة الى الغرب من مصب الفرات ودجلة في خليج المعجم على جون كير واسع يضرب في رمال جزيرة العرب على بقعة من صميم تلك الجزيرة هناك مدينة الكويت الحالية وهي مدينة نظيفة بالنسبة الى البصرة او غيرها . ويبلغ عدد سكانها اثني عشر ألفاً او يزيد ومينائها واسع امين من احسن مرافئ شرقي جزيرة العرب بل احسنها. ويقال انها ستنتهي فيها السكة الحديدية البندادية فاذا تم لها ذلك اصبحت محطة من اكبر واقرب محطات الهند والشرق الاقصى

والكويت في فلاة قاحلة ليس لها ما تعتمد عليه الا التجارة . وتجارها متسعة مع شمر ونجد والحجاز ومنها ترسل الخيول الى البندر الهندية وهي اذا ما اتجهت منها جنوباً ما زلت في رمال قاحلة لا ماء ولا مرعى الى ان تصل القطيف فاذا وصلت القطيف وصلت واحة من اخصب الواحات في بلاد العرب وتستمر هذه الواحة جنوباً حتى تبلغ قطر وهي أي قطر شبه جزيرة كثيرة الرمال قليلة النبات قل ان ترى فيها شيئاً اخضر وهي تابعة لمتصرفية نجد أيضاً

والبلاد بين قطر والقطيف تعرف قديماً بأرض البحرين وتعرف اليوم بالחסا او الاحساء

وربما أطلق هذا الاسم في الخارطات على كل البلاد من قطر الى البصرة. وبين شبه جزيرة قطر والقطيف جزيرة البحرين ومياها كثيرة عذبة وبمضا ينبع في البحر وعدد سكانها نحو ستين ألفاً. وهذه البقعة اي بين رأس قطر والقطيف مفاس من أحسن مفاوص اللؤلؤ في العالم كانت ولا تزال الى اليوم . وسكان قطر وجزيرة البحرين كلهم يشتغلون بالغوص مدة خمسة أشهر كل سنة من حزيران الى تشرين الاول

قلنا ان البلاد من البصرة الى شبه جزيرة قطر تشكلت متصرفية من نحو اربعين سنة وتشتمل على ثلاثة اقصية قضاء قطر وقضاء القطيف وقضاء نجد وعدد سكان هذه المتصرفية يبلغ مئتين وخمسين ألفاً. ومن مدنها بدعة وهي مدينة قطر والعقير وهي ميناء هناك والحسا وتسمى الحفوف ايضاً وهي بحر القديمة المعروفة بكثرة تمرها. والمبرز. والقطيف وهي ميناء ايضاً. وأهمية هذه المتصرفية انما هي لانها مفتاح العربية من جهة الشرق وطريق تجارتها مع الهند وبلاد فارس وفوق ذلك فالحسا هي المحطة الاولى على طريق القافلة من خليج فارس الى مكة وجدة والمدينة

وقبل ان انتقل من هذه المتصرفية لا بد لي من القول ان البحرين وهي جزيرة اللؤلؤ هي الآن تحت حماية الدولة البريطانية وقد تداخلت في نصب حاكم لها منذ سنة ١٨٩٧ فانها في تلك السنة نصبت عيسى بن علي حاكماً أو سلطاناً على الجزيرة بعد ان عزلت اياه عن كرسي الحكم. ومنذ بضع سنين اصبحت تدعي ان لها حق الحماية او الوصاية على الكويت ولها فوق ذلك من النفوذ في كل خليج فارس ما لا يسمع احداً من ساسة العثمانيين ان يجهره فانها هي المسيطرة معنوياً على كل الحركات التي تجري على شواطئ هذا الخليج الغربية والشرقية في بلاد فارس وفي بلاد العرب وفي يدها متى شاءت ان تثير الحواطر او تسكنها فان عمالها هناك اهل ادراك ويقظة لا تفوتهم حركة ولا سكتة تنتفع بها امتهم او يزاد بها نفوذ دولتهم بوجه من الوجوه . اما معنى الحماية البريطانية فتح معاونة تجارتهم ومنع بيع الرقيق علناً حيث لهم معتمد خصوصي ثم ترك الحكم وشأنهم والقضاء وشأنهم يظلمون او يبدلون ويرتشون أو يعفون فاذا تجاوزوا ذلك الى مخابرة سياسية او اظهروا شيئاً من الاستقلال في تصرفاتهم مع دولة أخرى فحينئذ تظهر الحماية البريطانية ويظهر أثرها بالمنع وفي ما عدا ذلك لا أثر لها الا ان يكون ذلك مرتباً سنوياً تدفعه الدولة البريطانية للشيخ او الامير عن حماية التجارة او منع بيع الرقيق او تألفاً له

شمر والقصيم

شمر بلاد او واحة واقعة بين اجا وسلمى جبلي طيء وعاصمتها حائل وهي مدينة ابن الرشيد وكبرسي امارته والى جنوبها القصيم العليا والقصيم السفلى وفيهما غدةيز وبريدة مدينتا نجد (نجد الحجاز). وشمر والقصيم بلاد طيبة الهواء جيدة التربة. وبلغريف يقول ان حائل لا أثر فيها للبعوض والذباب ولا للقمل والبراغيث. ويقول ايضا ان الجزيرة لا رائحة لها واللحم لا يخر هناك. وسماؤها غاية في الصفاء ونسبات اسحارها لا اعل ولا انفس منها حتى نسبات اعالي لبنان فانها تقرب منها ولا تماثلها. وقد تغيرت الشؤون على حائل من ايام بلغريف الى الان فكانت في ايامه تابعة لرياض تعترف بسيادتها عليها

فلما وقع الخلاف بين ابني فيصل الوهابي سعود وعبد الله ودارت الدائرة على عبد الله حتى لجأ أخيراً الى مدحت باشا ضعف شأن رياض. وعندها استقلت حائل وما زالت بعدها تنازع رياض السيادة فتارة لها وتارة عليها. وكان ضامع ولاتنا في بغداد والبصرة مع حائل وكثيراً ما جعل بعض امراء بيت الرشيد حماة لطريق الحج من قبل العثمانيين ومن ثم فهم يعترفون بسيادتنا عليهم ان لم يكن فعلاً فاسماً وأقل ما للعثمانيين من الحقوق. على حائل بل ورياض ايضا الحماية التي هي أشبه بالحماية البريطانية. على كثير من اجزاء الجزيرة العربية في جهات اليمن والشحر او في جهات الخليج الفارسي

وهذا الحق يتصل اوله باستفحال امر الوهابية في رياض وامتداد سلطتهم وما ترتب على ذلك من الفتوحات المصرية العثمانية تحت امره محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا فان كل الولايات السعودية الوهابية وتشمل نجد واليمامة والعارض ووشم والسدير والقصيم وشمر وعسير اليمانية كل هذه دخات حينئذ في حوزة العثمانيين واصبحت تابعة لهم من ذلك الحين واكد هذه التبعية سنة ١٨٧١ التبعاء عبد الله بن فيصل الى العثمانيين واعترف امراء حائل لهم بالسيادة العامة ومثلهم امراء رياض من بيت سعود اثناء المنازعات التي وقعت بين امراء هذين البيتين من حوالي اربعين سنة الى الان

اما رياض والبلاد النجدية التابعة لها ففيها واحات كثيرة وكبيرة ايضا وهي أخصب تربة وأطيب هواء وأجمل مناظر من بلاد شمر ولعلها على ما يقول بلغريف من اجمل بفاع الدنيا وأعدلها هواء ينسب عندها جمال لبنان وتتضاءل مناظر ايطاليا لدى محاسنها المتنوعة. وعلى ذكر نجد اقول ان نجد هي قلب البلاد العربية ومحمد العرب المدنانية وكانت ولا تزال منفزلاً لشعرائهم واليا منزع افئدتهم وقلوبهم فاذا أبعدت النجعة اعراها عنها لا يزالون

في شوق وحنين الى ان يرجعوا اليها واشمارهم فيها غاية في الرقة وجمال الوصف. ويحضرني منها قول بعضهم

اقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ورياً روضه بعد القطار
واهلك اذ يحل الحلي نجداً وانت على زمانك غير زاري
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

وقال آخر وهو الصمة بن عبد الله بن طفيل

قفا ودعاً نجداً ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الارض ما اطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا
ولست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر اعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنّ نرعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم اسبلنا معا
تلافت نحو الحمى حتى وجدتني وجعت من الاصفاء لينا وأخذعا
واذكر ايام الحمى ثم اثني على كبدي من خشية ان تصدعا

ونجد تجمع القصيم والوشم والعارض واليمامة وفالج وربما بلغ عدد سكانها اليوم ما يزيد عن المليونين من النفوس وفيها من المراعي في الجبال والنجد والاراضي الخصبة الزراعية في الشعاب والاوادية ما يماثل مراعي سوريا واراضها الزراعية من جنوبي فلسطين الى ما وراء انطاكية شمالاً ومن البحر المتوسط غرباً الى البادية بادية سوريا وفلسطين شرقاً. ونجد كثيرة الآبار وقد لا يكون اعماقها اكثر من خمس عشرة قدماً والمرجح ان فيها ايضاً معادن غنية من الذهب والفضة والنحاس والحديد على انه ان لم تكن غنية في المعادن فهي غنية بطيب الهواء وجاك المناظر وكثرة الزرع والضرع واذا اجتمعت كلها الى كلمة العثمانيين واصبح يخفق فوقها العلم العثماني الدستوري كما هو يخفق الآن على ربوع الشام كان في ذلك من القوة للعثمانيين ما لا توازيه كل قوة ولاياتنا الاوربية في الراجح ولا يضرنا فقد الهرسك والبوسنة ومثلها من الاملاك الاوربية اذا انضمت اليها نجد وجعلت نصيبها مع نصيبنا كما سنين ذلك ان شاء الله

ولاية الحجاز

الحجاز ولاية كبيرة شاسعة الاطراف طولها من الشمال الى الجنوب نيف وخمسة ميل وعرضها يتراوح بين الستين والمئة وخسين ميلا ويمر فيها من الشمال الى الجنوب طريق الحاج الشامي والمصري وليس فيها اثر للعمارة حتى تصل الى العلا. ويقال بالاجمال ان الحجاز بلاد شظف وسوء عيش في اكثر اقسامه إلا ما كان من جبل قرى الى الجنوب الشرقي من الحرم فان البلاد هناك ذات زرع وضرع وفيها المياه الجارية عددا لا تتقطع وتربها خصبة وهواؤها طيب معتدل ويقدر عدد الاهلين في هذه الولاية بين المليونين والثلاث ملايين

وشهرة الحجاز اليوم ان فيها مدينتي الاسلام مكة والمدينة وهذا وحده مما يحمل الحجاز اهم ولاياتنا العثمانية واسباب ذلك لا تخفى على احد فان حماية الحرمين وحماية الطريق الموصل الى مكة وتسهيل فريضة الحج على المسلمين ينظر اليها امراء المسلمين في كل الاقطار الاسلامية من اقرب القربات الى الله وللسلطان المتولي ذلك المقام الاول والمنزلة الاولى بين سلاطين المسلمين ومهما عظم ملك غيره وكثر جنده وتوفر غناه فهو بمرتبة دون مرتبة من وكل اليه حماية الحرمين

واما شهرة الحجاز قبل الاسلام فكانت من حيث هو طريق التجارة بين مصر والعراق وبين الشام واليمن . وكانت مدينته العظمى مكة حجاً للعرب ومركزاً لتجارهم ولا سيما الاعراب منهم قبل الاسلام بمئات من السنين. ويتلوا في الاهمية المدينة واسمها القديم يثرب قلت ان عرض الحجاز شرقاً بغرب يتراوح بين الستين والمئة والخمسين ميلا وارجح انهم قالوا ذلك لانهم جعلوا حد الحجاز شرقاً النفود. على ان النفود الكبير الشمالي الذي فيه تيماء والحجاء والجوف اولى ان يكون من الحجاز . والحجاز كثير الحار كحرارة المواهب وحرارة خيبر وحرارة بني سليم والحرارة الدنيا والحرارة الرجلاء والحرارة القصوى وحرارة ليلي وحرارة النار وغيرها من الحار . والحرارة هضبة بركانية ذات حجارة سود نخرة وربما علت الحرارة مئات من الاقدام على ما يجاورها من الارضين . وهواء الحار اجبالا طيب للغاية يقوي الاجسام ويشدّها صيفاً وشتاءً

على ان القاء في الاذهان هو ان هواء الحجاز شديد الحر شديد البرودة ايضاً ولا يصح هذا الحكم الا على بعض اقسام الحجاز ويانه ان الحجاز منه غور ومنه نجد ومنه اودية الى البحر تتسلط عليه رياح الغرب ومنه اودية الى الشرق وتتسلط عليه رياح الصبا الشرقية

فالنور وما قابل البحر من الاودية واسناد الجبال كل ذلك يكثر فيه الحر والرطوبة ومناخه كمناخ جدة او سواكن وغيرهما من مرافئ البحر الاحمر المعروفة واما غيره ففي هوائه من الطيب والاعتدال ما يحبيه الى اهله . واليك ماجاء في كتاب وصف جزيرة العرب للهمداني المشهور طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٨٨٤ وجه ٤٨ قال ما نصه . ان جبل السراة وهو اعظم جبال العرب واذكرها اقبل من قمره اليمن حتى بلغ اطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لانه حجاز بين النور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غريبه الى أسياف البحر من بلاد الاشعرين وعك وحكم وكنانة وغيرها ودونها الى ذات عرق والجحفة وماصاقها وغار من أرضها النور غور تهامة وتهامة تجمع ذلك كله وصار مادون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد الى أطراف العراق والسماء وما يليها نجداً ونجد تجمع ذلك كله وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز وصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر الى ناحية فيد وجبلي طيء الى المدينة وراجعاً الى ارض مدحج من تليث وما دونها الى ناحية فيد حجازاً فالعرب تسميه نجداً وجلسا وحجازاً والحجاز يجمع ذلك كله . انتهى عن الهمداني

اذا تأمل متأمل وجد ان جبل السراة يمتد من اليمن جنوباً الى الشام شمالاً وبينه وبين البحر غور يعرف ما صالى منه الحجاز بغور الحجاز وتهامة الحجاز وتهائم الحجاز وكله حجاز ثم ان السراة اذا وصل الطائف مال شرقاً كأنما في زاوية وترك مكة (وهي مدينة الحجاز) بينه وبين البحر فاصبحت البلاد من جدة الى مكة الى ذات عرق كلها غورية او تهامية وتهامة كلها شديدة الحر رطوبة الهواء واما ظهر السراة وهو حجاز وما امتد منه شرقاً وعلا وكله حجاز كما رأيت ومن ولاية الحجاز ايضاً فهواءه او طباعه معتدل كنجدة ولاهله حنين وشوق اليه كالتجديين الى نجد وهم يفضلونه على العراق وعلى اطيب بقاعه اعني بغداد واليك من اقوالهم ما يشف عما ذكرنا قال بعض الاعراب:

تطاول ليلى بالعراق ولم يكن	علي باكناف الحجاز يطول
فهل لي الى ارض الحجاز ومن به	بعاقبة قبل الفوات سبيل
اذا لم يكن بيني وبينك مرسل	فرج الصبا مني اليك رسول

وقال آخر

سرى البرق من ارض الحجاز فشاقتي	وكل حجازي له البرق شائق
فواكبدي مما الاقي من الهوى	اذا حن الف او تألق بارق

وقال آخر

كنى حزناً أني ببغداد نازل وقلبي باكناف الحجاز رهين
اذا عن ذكر للحجاز استفزني الى من باكناف الحجاز حنين
فوالله ما فارقتهم قالياً لهم ولكن ما يقضى فسوف يكون

وقال بعض شعراء الاندلس

وما وجد اعراية بان اهلها خفت الى بان الحجاز ورنده
اذا ابصرت ركباً تكفل شوقها بنار قراه والدموع بورده
وان اوقدوا المصباح ظنته بارقاً بحبي فثبت للسلام ورده
باعظم من وجدي بموسى وأما يرى انني اذنبت ذنباً بورده

وغير ذلك من اشعارهم كثير مما يدل على ان ليس كل الحجاز جدة ومكة في شدة حرهما ولا كله قفار ورمال كمعظم طريق الحج حتى تصل مدائن صالح او تربة العلاء بل فيه من المرتفعات والنجود والادوية الحصية ما لا يقصر عن نجد في طيب الهواء وجمال المناظر وارتقاء العمران واغلب الذين زاروا الحجاز وخبروا جهاته يعرفون الطائف وجبل قرى وما في البلاد هناك من الجمال والاعتدال في الاهوية والاخلاق والذي اريد ان يبق في الاذهان وتتوجه اليه خواطر من يهمهم الامر ان الحجاز (والمحافظة عايمه واملاك قلوب اهله) ضروري لعظمتنا العمانية لا يعادله من هذا القليل ولاية ولا ولايتان حتى ولا ثلاث ولايات ايضاً ولو كن من اهم ولايات الدولة ومن اكثرها ساكناً وغنى واوسعها تجارة

متصرفية عسير

بلاد بين اليمن جنوباً وأرض الحرمين شمالاً وهي جبال وسهول أمّا الجبال فطيبة الهواء كثيرة المياه ولكنها عسرة المسالك وأمّا السهول فخصبة جيدة المراعي جيدة التربة ينبت فيها كل انواع الجبوب والقطاني . وسهول يشة الى جهة الشرق قد تستفي بمحصولاتها الطبيعية عموماً يرد الى الحجاز من الطعام عن طريق جدة والقنفدة على شواطئ البحر الاحمر او عن طريق الحسا والكويت على شواطئ الخليج الفارسي . والعرب يخصصونها باسم الحجاز فاذا اطلقوا التسمية فهموا منها هذا القسم جنوبي الطائف حتى تصل ولاية اليمن (انظر بركهارت - البدو والواهيون الجزء الثاني طبع لندن وجه ١٣٢) وهو ما يراد بمتصرفية عسير الآن

وعليه فولاية الحجاز تشتمل على ثلاثة اقسام القسم الاول الشمالي ويشمل البلاد الواقع فيها طريق الحج حتى تصل وادي القرى بقرب المدينة . والقسم الثاني المتوسط ويشمل البلاد بين مكة والمدينة ويعرف بأرض الحرمين أو بلاد الحرمين والثالث الجنوبي ويشمل البلاد بين ارض الحرمين وبين اليمن وهو متصرفية عسير

في هذا القسم اعني متصرفية عسير قبائل كبيرة كثيرة اشهرها بنو غامد وظهران وبنو سالم وبنو عسير وأشهر هذه الثلاث بنو عسير وبلادهم جبلية متوعدة وبهم سميت المتصرفية الآن وهؤلاء العسيريون فيهم ما يزيد على الاثني عشر بل والخمسة عشر الف محارب على ما ارجح . وكان ابو نقطة من شيوخهم المشهورين في ايام محمد علي باشا الكبير ثم كان بعده طعمة وهذا كان من كبار رؤساء الوهابيين من اعلامهم همّة وأكثرهم رجالاً في موقعة كُلاخ أو بصال وهي الموقعة التي انتصر فيها محمد علي باشا سنة ١٨١٥ على الوهابيين وقلّ جموعهم وكانوا ما يزيد على الخمسة والعشرين ألفاً ثابته من العسيريين . ثم تابع انتصاره هذا فقتلهم الى تربة وبيشة ومن بيشة توجه غرباً فاخترق جبال العسيريين واستولى على قلعهم المعروفة بقلعة طور بعد معركة شديدة وما زال حتى بلغ شطوط البحر الاحمر قرب قنفذة ثم رجع من هناك الى مكة . ولما كانت البلاد جبلية طيبة الهواء كان اهلها اشدّاء ذوي بأس ومجدة فقد حكى بوركهارت انهم وجدوا في موقعة بصال كثيرين من قتلى العسيريين وقد ربط كل منهم رجلاه الى رجل صاحبه كي لا يفرّوا وكانوا قد تعاقدوا على ذلك وحلفوا عليه بالطلاق فلم يحشوا . ورؤي عن اسلافهم مثل ذلك اثناء الحملة الرومانية التي وجهها الامبراطور طرايانس الروماني حوالي سنة ١٠٥ بعد المسيح لفتح البلاد العربية

وبالاجمال يقال ان هذا القسم من الحجاز ولا سيما بلاد عسير يشبه بلاد اليمن الجبلية في تربته وهوائه ومائه وشدة شكيمة اهله ولا يبعد انه يشبهها في طبقات ارضه وما يحتويه من معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد . ومتصرفية عسير كانت ولا تزال تابعة لولاية الحجاز ومن املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع ومن الضروري ان يحرص عليها ولا تنا وقواد جيوشنا فانها كاهل الحجاز وحصنه المنيع . الا ان الثورة الاخيرة قد فتحت فيها ثمة ولا يستبعد مع الاهمال وترك اليقظة ان يدخل منها داخل على حين غفلة فيدّعي بعدها بحقوق الحماية او مدّعي آخر يشوش علينا فيها سلامنا وحسن جوارنا ولاية اليمن

اليمن — وقد سماها اليونان والرومان قديماً العربية السعيدة — هي مهد الجنس السامي

في الراجح ومركز تمدنهم القديم ومنشأ الدول العربية العظيمة قبل الاسلام وقد شفت الآثار مؤخراً عما وجه خواطر كثيرين من اهل البحث ومن جماتهم الاستاذ سايس الى القول بأن اليمن سابقة في تمدنها على مصر وبابل وأنها هي بلاد بُسنت او فوط التي هاجر منها الى مصر اسلاف الفراعنة العظام وحملوا معهم اليها العلم والحكمة والزراعة والصناعة والتجارة ، ومنها ايضاً في الراجح كان اسلاف البابليين والاشوريين الذين حملوا في مهاجراتهم الى تلك البلاد ما حملوه الى مصر من العلم والصناعة كما أنَّ منها او مما جاورها من بلدان الجزيرة كان معظم الجاليات التي استعمرت شواطئ البحر المتوسط في سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان وايطاليا وفرنسا وشطوط افريقيا مما يقابل جبل طارق حتى تصل الى مصر والسويس. وبلاجمال لا يستبعد ان تكون شبه جزيرة العرب وبالاخص العربية السعيدة اي اليمن ام التمدن القديم في كل آسيا الغربية وأوروبا وأفريقيا

هذه البلاد هي الآن جزء من مملكتنا العثمانية وكان ممكناً ان تكون من اهم اجزائها وأفضلها وأغناها لأنها تجمع الى طيب الهواء وجودة التربة وكثرة المعادن والحجارة الكريمة اجمل المناظر الطبيعية وأخفها. جبال شاهقة من انغم الجبال وأغربها اشكالا وهيئات لا ينقص ارتفاع بعضها عن الاربعة عشر الف قدم فوق سطح البحر وأودية عميقة ولا اعمق منها. ولا اغرب وأعجب مما يجري فيها من المظاهر الجوية فانك ربما تنظر الى بعضها وأنت على اسناد جبالها فتراها مملوءة سحباً وترى البروق تتعمج تحت نظرك بين هذه السحب وتسمع قصيف الرعد ثم لا تلبث الغيوم ان تنقشع عن تلك الاودية فتراها تسيل مياهها يحمل تيارها الشجر والحجر ايضاً ولعل القائل اشار بقوله
كأنني حيث ينشأ الدُّجْن تحتي فيها انا لا أطلُّ ولا أجادُ

الى مثل هذه الظاهرة اليمنية الغربية والجميلة ايضاً

ليس جمال المناظر الطبيعية وان بلغ مهما بلغ ولا ارتفاع الجبال وان زادت على ارتفاع حملايا ولا عمق الاودية وان بلغ قرارة الهاوية — ليس شيء من كل ذلك بالامر الكبير لولا ان غنى البلاد الطبيعي في معادنها وزرعها وضرعها ونشاط اهليها ايضاً يناسب ما المعنا اليه من نخامة جبالها وجمال اوديتها وروعة جلالها

مساحة اليمن وأقسامها

لا تقل مساحة اليمن بما فيه تهامة فيما أرجح عن المئة وعشرين الف ميل مربع ولا يزيد في ما أظن عن المئة والخمسين الفاً منها بلاد جبال وخصب وهواء طيب ما يزيد عن

الثمانين الف ميل مربع في أقل تقدير والبقية بلاد رمال وحر شديد ووبالة الا بعض الواحات على جوانب أوديتها العظام مور وسردد وسهام ورمع وزبيد والنوشج والموزع وعديم وعاصان ورغادة ومنيف والصبيب ويافع وهي أودية تسيل ماء غزير أزمان المطر الا ان معظمها تنشربه رمال تهامة قبل أن يصل الى البحر . وتقسم اليمن اجمالاً الى قسمين كبيرين تهامة والجبال . وتهامة تهامتان تهامة الغربية وتهامة الجنوبية اما تهامة الغربية فتتمدد على موازاة شطوط البحر الاحمر بينه وبين الجبال وعرضها في الاكثر لا يزيد عن الثلاثين ميلاً ويتسع أحياناً فيبايع الحسنيين والستين وقد يبلغ ما فوق ذلك وهو نادر . ومن مواني تهامة هذه لهيّا والحديدة ومخا وأشهر مدنها زبيد على متوسط المسافة بين البحر والجبال وربما سميت باسم الوادي المبنية الى جانبه ومياهه عدل لا تنقطع وأما تهامة الجنوبية فتتمدد من بوغاز باب المندب على شواطئ خليج عدن ما يزيد عن المئتي ميل طولاً ويخالف عرضها بين الحسنيين والمئة ميل ومن أشهر موانئها عدن وهي الآن في يد الانكليز اختلفوا مع حاكمها سنة ١٨٣٩ فباغتوا حاميتها ودخلوا حصنها عنوة قرأوا معقلاً ولا احصن وموقعاً تجارياً ولا أهم فأدخلوها في عداد أملاكهم فأصبحت اليوم وحصونها من امنع حصون الدنيا ومينائها من احسن المواني وأوسعها فتحولت اليها من ثم معظم تجارة اليمن بعد ان كانت ترد الى مخا والحديدة . اما مخافات تجارتها واندرس عمرانها او كاد يندرس وأما الحديدة فانما ابقى على عمرانها انها مركز حكومة تهامة وميناء صنعاء الحربي وأن البلاد التي هي ميناء لها بعيدة أيضاً عن عدن بعداً شامعاً . ويقال في تهامة اجمالاً انها مرعى جيد أيام الشتاء والبرد الشديد في الجبال ولكنها في أيام القيظ تشوّر متوقد

وأما اليمن الجبال فتقسم الى اقسام كثيرة تعرف قديماً بمخالف اليمن كل قسم منها مخلاف وكان عليه في الغالب امير او شيخ يخضع لامير صنعاء اذا كان هو قوياً ذا حول وطول او يستقل عنه اذا وجد من نفسه قوة ومن متبوعه غفلة وضمناً . واليك المخاليف التي ذكرها الهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب نذكرها لك كما ذكرت في فهرست الكتاب مرتبة بحسب الحروف الالبجدية لا بحسب مواقعها الطبيعية: مخلاف آل ذي جرة . مخلاف اقيان . مخلاف الهان . مخلاف ذي جرة وخولان . مخلاف جيشان . مخلاف حراز . مخلاف حضور . مخلاف خولان . مخلاف ذمار . مخلاف ذي رعين . مخلاف رداع . مخلاف رداع وثات . مخلاف السحول . مخلاف شبام . مخلاف شبوة . مخلاف الشرف الاعلى . مخلاف عثر . مخلاف بني عامر . مخلاف العود . مخلاف لاعة . مخلاف مأذن

مخلاف مأذن وحملان . مخلاف مأرب . مخلاف المعافر . مخلاف الممل . والذي يرجح عندي ان هذه الخاليف هي المشار اليها في نبوة ارميا بمالك حاصور او « حضور » ولعل السيادة في ذلك الوقت كانت لمخلاف حضور وهو على مقربة من صنعاء ولا يبعد ان صنعاء كانت المدينة العظيمة في هذا المخلاف الذي كان فيه مقر السيادة او الامارة العظمى حيثئذ

صنعاء وما حوالها

موقع صنعاء شرقي الحديدة بميلة الى الشمال وشمالى عدن مع بعض الميل الى الغرب وتبعد عن الاولى مئة وخمسين ميلاً وعن الثانية مئتين وسبعين ميلاً . وهي قلب بلاد اليمن ومركز دائرتها موقعاً ونجارةً وسياسةً وهي مبنية على قاع متسع في غربي جبل تقم . وينشعب من هذا الجبل هضبة فارعة عليها قلعة او حصن يطل على المدينة ويتسلط عليها والمدينة ثلاثة احياء حي العرب والترك وفيه الاسواق ومركز الحكومة ويوت الاهلين وحي اليهود وهو منفصل عن الحي الاول بسيف من الارض القاحلة ويحيط به سور له على حدة وحي بير العصاب وفيه الجنائن وقصور الاغنياء من عرب وأترك ويحيط بهذه الاحياء كلها سور من الاجر المجفف بالشمس الا ان معظم الابراج والحصون على السور مبني من الحجر الصلد . والمدينة اربعة ابواب باب على كل جهة من الجهات الاربع وعدد سكانها على ما يرجح يبلغ نحواً من خمسين الف نسمة منهم عشرون ألفاً يهود (انظر كتاب هرس « رحلة في اليمن » طبع لندن سنة ١٨٩٣ وجه ٣١٢) والمدينة تعلو عن سطح البحر ما يزيد عن سبعة آلاف وأربعمئة قدم

قلنا ان صنعاء واقعة في قاب البلاد اليمنية عدن الى الجنوب وصعدة ونجران الى الشمال والحديدة الى الغرب ومأرب عاصمة بلاد سبا قديماً الى الشرق . وفي مأرب هذه السد العظيم الشهير المعروف بسد مأرب وعرض هذا السد او ثخنه مئة وخمس وسبعون خطوة وطوله نحو الميلىن على الاقل ويصل بين الجبلين على طرفي الوادي وأما علوه فكان يزيد على المئة والعشرين قدماً . وما زال قائماً نحواً من عشرين قرناً تقريباً . ومن اراد فليراجع وصفه في مروج الذهب للمسعودي فانه من أهول وأضخم وأنفع ما بناه الاقدمون وليس سد اصوان الحالي في جانبه الا ولداً صغيراً بالنسبة الى الجبار العظيم

جاء في شرح قصيدة ابن عبدون طبع ليدن وجه ٩٧ و ٩٨ -- وقد نقل الشارح

ما كتبه عن المسعودي — ما نصه

كانت بلاد مأرب جنة واحدة متصلة « وكانت الهارة فيها ازيد من مسيرة شهرين

للراكب المجد وكانوا يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة ستة اشهر وكانت المرأة اذا ارادت ان تجتني من ثمرها شيئاً وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشي تحت الثمار وهي تغزل او تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى ينجلي مكتلها مما شاءت من الثمر الذي يتساقط طيباً» هذه العبارات تشير الى العمران العظيم الذي كان للبلاد العربية اليمن ونجد والحجاز وأرض البحرين . ولا أشك ان العمران كان بحيث يجوز ان يوصف بمثل الوصف المار ذكره — اذا تسامعنا مع الكتاب ذوي الخيلة الذين كانت تحركهم محركات من الانفعالات عند ما كانوا يكتبون ما يكتبون — لان في الآثار الباقية من الأدلة ما يصدقك واليك منها (اولاً) السدود التي على شاكله سد ما رب فاتها كثيرة جداً تصادفها حيناً سرت في اليمن . قال الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب ما نصه

« ويحضب العلو على ما خبرني ابو غالب بن ابي العباس بن ابي غالب السفلي ثمانون سداً قد ذكرنا عنه في كتاب الاكليل كبارها وفيها يقول تبّع وبالربوة الخضراء من ارض يحضب ثمانون سداً تقلس الماء سائلاً »

(ثانياً) ما يرى من المصانع والكرف واحدها كريف وهي مخازن الماء منقورة في الصخر الصلد من اشهرها ما ذكره الهمداني في باب ما أثر اليمن قال « ومنها كريف يسمى الوفيت منقور في الصفا الاسود وعمقه في الارض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً والطول خمسون ذراعاً محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه وكريف درعاً يكون ستمئة ذراع في مثلها (الهمداني وجه ٧٨) اه . وهذه الكرف او البرك كثيرة جداً في اليمن تصادفها حيناً سرت

(ثالثاً) الخرائب القديمة واليك بعض ما ذكره الهمداني منها قال « ومنها خربة سلوق وكانت مدينة عظيمة بأرض خدير واسم بقعتها اليوم حيل الرية وهي آثار مدينة عظيمة فيها خبت الحديد وقطاع الفضة والذهب والحلي والنقد واليه كانت العرب تنسب الدروع السلوقية . ومنها جبل في مشرق وحاطة في رأس الجبل جثوة قصر منهدم لا يزال يوجد فيه الجوهر والذهب والناس يفزون كما يفزون خربات الجوف » (الهمداني وجه ٧٨ و ٧٩)

(رابعاً) كثرة المعادن فان في نجد وحدها من المعادن ما ذكره الهمداني صفحة ١٥٣ حيث قال « ومعادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب معدن الحسن والحسن قرن اسود مليح وهو معدن ذهب غزير . ومعدن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير . ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب . ومعدن الثنية ثنية ابن عصام

الباهلي معدن ذهب . ومعدن العوسجة من ارض غني فويق المغير بيطان المرдах. ومعدنا شام الفضة والصفرة . ومعدن تياس ذهب مخف بتياس . ومعدن العقيق معدن الحجة بين العمق وبين افيمية . ومعدن يشة . ومعدن الحجيرة . ومعدن بني سليم . فهذه معادن نجد انتهى والذي ارجحه ان المعادن من كل الانواع ولا سيما الذهب والفضة والنحاس والحديد هي في اليمن وحضرموت اكثر منها في نجد . وفيهما ايضاً اي اليمن وحضرموت الفحم الحجري والبترون وأنواع من الحجارة الكريمة

اذا احضر القاري كل ما ذكرناه في ذهنه لم يصعب عليه بعد ذلك ان يتصور امكان وجود العمران العظيم الذي اشار اليه المسعودي في كلامه عن سد مأرب وتقلنا تنفقه منه عن شرح قصيدة ابن عبدون ولا يصعب عليه ان يتصور ايضاً ان مثل هذا العمران يمكن ان يعود الى العربية السعيدة مع الايام فتصبح هي ونجد من افضل ولايات مملكتنا العثمانية الدستورية

عدد سكان اليمن

يقدر عدد سكان اليمن العثمانية بين المليونين والثلاثة ملايين والمرجح عندي ان بلاد مأرب ونجران غير داخيتين في هذا الاحصاء لان البلدين وان كانتا ضمن منطقة املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع الى الآن فان سلطتنا الفعلية الحقيقية لم تتجاوز صنعاء الى الشرق والشمال الا مسيرة يوم او ما لا يزيد عن الثلاثين ميلاً في الاكثر وأما ما وراء ذلك فكان ولم يزل تابعاً لنا بالقوة لا بالفعل ولا يعلم من احواله وعدد سكانه شيء الا على سبيل التخمين . والراجح ان في بلاد مأرب ونجران وأطراف اليمن ووادي دواسر (وكل هذه البلدان يجب ان تكون عثمانية ويمكن ان تكون عثمانية ولحد الآن لا تجسر دولة من الدول غيرنا ان تدعي بشيء من الحماية على شبر واحد منها) ما يزيد على المليون فوق ما يقدر عدد عليه فسكان اليمن العثمانيون يزيدون الآن على الاربعة ملايين واذا تم الامن وبطلت من بينهم الحروب والمجاولات المستمرة فلا يمر الا القليل من السنين حتى يتضاعف عددهم ثم يتضاعف ويتضاعف لان في البلاد من الغنى الطبيعي ما يقوم باللايين الكثيرة

سكان اليمن

اليمن بلاد حضارة قديمة العهد جداً ولذلك فأغلب أهاليه حضر يسكنون المدن والقرى ويمشون من الزراعة والصناعة . وهم اهل جد ونشاط في زراعتهم لا يفوقهم احد

في ذلك على ما ارجّح حتى ولا الانكليز او الالمان اهل الكد والنشاط
 انا نعجب من اهل لبنان ونشاطهم لانهم كما يقال ينقلون التراب نقلاً الى ما بين الصخور
 حيث يجدون مكاناً لنسبة من التين او الزيتون او غيرها من انواع المغروسات النافعة .
 ولا نعلم في ولايتي بيروت وسوريا عن نشاط كنشاطهم او كد ككدهم حتى اصبحوا مضرب
 مثل في كل سوريا من أقصاها الى اقصاها الا ان الذين شاهدوا اليمن من نيبوهر الى هرس
 وزويعر كلهم شاهدوا حيران شجرة البن قائمة بعضها فوق بعض ولا قيام صفوف المدرج
 (الامفيتاتر) وكلهم يشهدون بالنشاط والقوة اللذين يبذلها اليمنيون في عمارة اراضيهم —
 نشاط وقوة لو بذل الالبانيون مثل نصفها لكان كل لبنان جنة واحدة متصلة الاطراف
 من الجنوب الى الشمال ومن الشرق الى الغرب . ان اودية اليمن — واليمن الحبلية تكاد
 تكون كلها اودية — تراها كلها من اسفها الى اعلاها مدرجاً واحداً تغطي حيرانه شجيرات
 البن او غيرها من الاشجار ذات النسر والتمر . ولقديسونا الجدران الحجرية القوية بعالون
 بها الى العشر الاقدام ويعلو منها تراباً ليربحوا ما لا يزيد عرضه من التربة على خمس اقدام
 او ست . قال هرس عدت مائة وسبعة وثلاثين حائراً من هذه الحيران يعلو الواحد منها
 فوق الآخر (الحائر والحير بمعنى الجبل في لغة اهل لبنان) وكلها مبنية جدرانها بالحجر
 الصلد بناءً محكماً لا يقل ارتفاع جدرانها عن التسع الاقدام

لو كنت مصوراً لرسمت هنا للقراء احد الرسوم التي رسمها هرس في كتابه «رحلة في
 اليمن» فان نظرة واحدة اليها تنقل الى اذهانهم مقدار ما يبذله اليمنيون من النشاط والكد
 في زراعة اوديتهم وغرسها ولعل استاذي لا يبخلان على القراء بنقل الصورة المرسومة
 على الصفحة الثامنة من الكتاب المذكور الى المقتطف فتكون ذخيرة لهم يغنيهم النظر
 اليها عن كثير من الوصف او يفهمون الكثير من الوصف بمجرد النظر اليها

طرق اليمن ومواقع مدنه

لو كان في الامكان ان انقل الى المقتطف الاغر او ينقل اليها هو رسمين آخرين من
 رسوم هرس وهما مقابل صفحة ١١٠ و ٢١٨ من كتابه الذي اشرنا اليه قبيل الآن لا غنتنا
 هذه الرسوم عن صفحات من الوصف ولتقلت الى الذهن بالجملة اثرأ صحيحاً عن طرقات
 اليمن ومواقع مدنه وقراء القائمة على شرفات الجبال وعواتقها المطلة على اوديته . قري كثير
 منها ان لم نقل أغلبها وكثات نسور لا يصعد اليها الا على طريق واحدة منقورة درجاً في

الحجر الصلد فيستطيع العشرة فيها ان يمنموا المئة من الوصول اليها والمئتين والمئة ان تمنع الالف والالفين

ولتر هرس ذهب سنة ١٨٩٢ من عدن الى اليمن مكاتباً من قبل جريدة التيمس فسار الى صنعاء عن طريق لحج وذمار وخربة جران في حديث يطول شرحه وبعد ثلاثة اسابيع وصل الى صنعاء . ثم رده من هناك مخفوراً احمد فيضي باشا قومندان المعسكر السابع وكان ارسل لكبح الثائرين بعد ان كان اشتد امرهم على حامية صنعاء وضيقوا على الاهلين الخناق فوصل هذا القائد الباسل الى عاصمة اليمن في نفس الشدة ففرج حالاً عن حاميتها وأهلها وأرسل القواد الى بقية الجهات لاسترداد المواقع التي كان الثوار قد استولوا عليها وفيما هو كذلك اذا بالمستر هرس هذا امام دار الحكومة . ورأى القائد الباسل احمد فيضي باشا ان مقتضى الحال والمصاحبة يفيضي بارجاعه الى حيث أتى فأرسله الى الحديدة عن طريق مناخة . وقد اخترت تلخيص ما كتبه هذا الكاتب الشاعر عن طريقه من صنعاء الى مناخة الى الحجيلا . والحجيلا بلدة في آخر بلاد الحيال من جهة صنعاء وآخر بلاد تهامة من جهة الحديدة وقد فعلت ما فعلت لانقل على أخصر طريق الى ذهن القارئ شيئاً من جمال جبال اليمن وأوديتها وشيئاً آخر من مواقع قراها وصعوبة مسالكها

قال المستر هرس ما محصله . قمنا من صنعاء صباحاً فوصلنا قهوة متنة حوالي نصف النهار فخططنا لتتعدى الظهر ونستريح قليلا ومن ثم سرنا حتى وصلنا بوان والطريق تأخذ كلها صعداً . ومن بوان اغذذنا الشير فوصلنا الى سوق الخميس مساءً ونمنا هناك . ولما باغنا اعلى العقبة قبل ان وصلنا الى سوق الخميس بقليل كنا على علو عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر

ثم اخذ بصف الطريق بين بوان وسوق الخميس وقد اخترت هنا الترجمة الحرفية تقريراً قال « الطريق بين بوان وسوق الخميس عقبة في رأس جبل تشرف شمالاً على واد كبير عمقه نحو من بضعة الف قدم . ويا له من واد ما اجمله وأنفه واد تملأه اشجار البن ويزخر زخراً بأصناف النباتات الزاهية البهية المحببة ومن بينها اغراس الموز بأوراقها الكبيرة الخضراء تهز رؤوسها تهباً وادلالاً . وكنا نرى القرى بين هذه الخضرة الناضرة تتعلق بحفاف هذا الوادي ولكل قرية برجها . وكأما كل قرية وكنة نسر تقوم على هضبة خلقت من صخرة واحدة . وكثيراً ما كنت اقف بعض دقائق لا ملاً نظري واعجابي من هذا المنظر الساحر الى ان تهور النهار فتصاعدت حينئذ الغيوم من الوادي اغتبية رقيقة غطت ما امامي من اسناد الوادي وأخفت عن نظري ما كنت اراه الا قم الحيال على الجهة المقابلة فانها كانت تظهر

قائمة فوق بحر من الغيوم الملونة بألوان قوس السحاب كأنها المناثر اوقب اجراس الكنائس
« فمالك من بلاديتها اليمن الساحرة. اي مجلدات من السوالمف والتواريخ لا تزالين
تكتمين عن علمنا وبصائرنا في اوديتك هذه العظيمة واسناد جبالك الشاخنة . وأية
قصص كان ويكون في امكان جدالك الصافية المتكسرة ان تقصها علينا . من لا يعلم ان
ماءك الزلال كثيراً ما جرى احمر ما مزجه من دم المهجات والاكباد . تسربت حنادس
الليل فانقلب المنظر من امامي الى منظر سكية رهيب. سكية غريبة في نوعها ولكنها تسجر
النفس وتلاها هبة واجلالا

« لما تركنا سوق الخميس في الصباح التالي كانت المناظر امامنا في جمالها ورونق جلالها
كتلك التي راعت نفوسنا بالامس فما اشرقت الشمس حتى انفسحت ضبابة المساء ولاحت
امامنا سلاسل الجبال سلسة وراء اخرى وقمة تعلو قمة اخرى من ورائها الى ان علاها
كلها في نهاية الافق غرباً سلسلة عظيمة شاخنة حجت عنا كل ما وراءها

« ثم اخذت الطريق تنحدر بسرعة وتتلوى بنا طويلاً فتارة ترى عليها اثر آمن ترميم
مهندسي الاثر الذواترة اخرى تراها بحيث تهاك عليها الاقدام كما سكا على جانب الجبل ليس الا
« ولقد مررنا ببقعة هنا من اجل ما رآته عيني من المناظر في اليمن على منتصف منحدر
تكسوه غابة من الشجر هنالك كان مقام لبعضهم (قبر وعليه بنية) والى جانبه ينبوع ماء
عذب تشكر مياها الى بركة عميقة ويقوم من ورائه على مسافة قلة من الجبل جرداء
صخرية ترى في الافق الازرق وعلى رأسها انقاض قرية دكها المدافع العثمانية لم تترك منها
الا الجدران تخبر بسابق وجودها . وكل منحدرات هذه القمة او الهضبة فيما دون القرية
مكدوة بالشجر خيلة واحدة خضراء والمسجد المقام على القبر تعلوه القباب المهندمة البيضاء
يشيب بياضها خضرة الاشجار واليا حين حولها . وصوت المياه الجارية يزيد المنظر خلاصة
وسحراً فوق ما هو عليه من رائع الجمال والهدو البالغ مبالغه

« انتهى بنا اخيراً صوب الطريق فدخلنا وادياً خاوياً خالياً لزمنا المسير فيه حيث
يجري الماء وكان الوادي حينئذ ناشفاً وبحراه مفروش بالصخور ومع ذلك فكان الين مساً
وأنعم لمساً من الطريق الاصلية . وكانت هذه تتلوى حوالي النهر تروح وتجيء لا تكاد
تبين لما فيها وحولها من الرضام والصخور الساقطة من المنحدرات فوقها

« وبعد ساعة او ما يقارب الساعة مررنا من تحت قلعة مفهاق العجيبة وهي قلعة متربعة على
شاهق من الصخر تعلو نحواً من خمسمئة قدم على الوادي او ما يزيد. ثم اخذت الطريق
تصعد بنا ثانية وما زلنا نرهبه والطريق آخذة بنا في واد او شعب صغير من اجل الشمام

التي رأيناها وكأنما هو مصغر لذلك الوادي الكبير الفخيم الذي الحنا اليه سابقاً . الصخور قائمة على الجانبين كأنها الجدران الى علو يتراوح بين الخمسين والمئة قدماً وقد نبت عليها انواع عديدة من الزهور البرية بما جعل الوادي لكثرة الوانه شبيهاً بالبساط العبقري او بواد من اودية الجان (Fairy-land) خامات من الياسمين تغطي اجراف الوادي . وعلى اجراف الوادي وعلى جانبيه يزدهر الطلح والصبر وتنضج روائحهما وهناك شجرة ذات زهر كأنه زهر الدرنفل الفاتح قد غرستها الطبيعة على جانبي مجرى الماء الضيق فتخال ان الانسان زرعها في مكانها هذا قصداً . مرت بنا ساعة على ما وصفنا وصلنا بعدها الى خان عجز فنزلنا نستريح وتتعدى الظهيرة ولم نلبث الا برهة بين الساعة والساعتين لاني كنت شديد الرغبة في ان فصل مائة قبل العتمة فركبنا بغائنا وودعنا صاحب الخان ومن كان هناك من الجنود التركية وكانوا نفرأ يسيراً فكنا كلما تقدمنا في الطريق ازدادت هذه الخامة وجمالاً لآتنا كنا توسطنا الحيال حيث مناخه على قمة بعضها كوكنة نسر او كن رخمة . قلنا انا كنا نسير في مجرى نهر الا ان علو هذا المجرى عن سطح البحر كان فوق خمسة آلاف قدم . فبينما نحن نسير انقطع بنا المجرى بغتة وأخذنا نصعد في عقبة شاقة ولاكن كنا بعد ما مررنا من العقاب اصبحنا وقد اعتدنا السير في مثلها ولم تكن الطريق الا مجازاً في سند الجبل فرشت فيه الصخور التامة عن مقرها بساطاً غير وطيء فلم يكن يسعني ولا اظن انه يسع غيري ايضاً الا ان اعجب كيف تطبق بغائنا الصغيرة ان تصل الى آخر هذه العقبة . نزلت انا وعبد الرحمن وعبدن بغائنا في اسفل العقبة (وهو اولها) وأخذنا نتسابق عدواً نتسلق الصخور تارة وتدهر من عليها تارة اخرى . وما زلنا نستكدنا انفسنا صعداً وقد خلفنا البغال مع المكارين الى ان صعدنا ما يزيد على الفين وخمسمئة قدم في تلك العقبة الكؤود المتلوية فلم نواصلنا قمتها وكانما وصلناها بغتة اذا نحن بمدينة مناخه الصغيرة على كندامانا فقزمت ان انتظر في مكاني الى ان يصل اليها من كان يحرس علي من الجند وكنا قد سبقناهم مسافة بعيدة فرميت بنفسي وأنا حران الهت على حرف صخرة وأخذت اتأمل في ما امامي من المنظر ويا له من منظر عجيب هائل ! حوالينا من كل جهة قمم جبال جرداء غريبة الاشكال والهيئات ومهاو تكاد تكون على خط عمودي . واحدى هذه المهاوي هي التي وقعنا عليها نستريح وننتظر ومن على جانب منها كنا نرى العقبة التي صعدنا فيها تتلوى عنا والينا تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال وكانت البغال والمكارية تترآى لنا كأنها النمل تتصعد عابها وكانت أشعة الشمس المشرفة على الغروب تلون قن الجبال بلون وردي وكثير من هذه القن كانت أعلى منا بألوف من الاقدام تتوجها القرى والابرار الغربية في بابها مواقع وأشكالاً .

ثم لحقنا البغال والرجال فركبنا بغالنا وقطعنا عليها المسافة القصيرة التي بقيت بيننا وبين مناخة ودخلنا المدينة آخذين في الطريق التي نوصل الى مركز الحكومة حيث يقيم القائمقام وبعد ان تركت القائمقام ذهبنا المجول في المدينة يتبعني الحرس الا انه لم يكن يتعرض لي في شيء من حركاتي وسكناتي بل كنت أتحجراً على الرسم بمراى منه لولا مخافة ان تقع عليه ملامة فيما لو شوهدت أرسم في حضرة ولذا كنت أتحجى الوقوف او الجلوس من وراء صخر مشرف وأرسم ما أريد رسمه ولا يراني أحد

« قدر لي ان أرى أما كن كثيرة الا ان موقع مناخة كان من أغرب وأعجب ما رأيته لانها مبنية على كتف جبل ضيق هو صلة بين ساساتين من الجبال . وفي هذا الكنف خط مفرق المياه لوادين عظيمين جداً أولهما الوادي الذي مررنا به حتى وصلنا اليها والثاني الى الغرب منها . والكنف هذا المبنية عليه المدينة ضيق جداً حتى ان كثيراً من جدران البيوت على جانبيه من هنا وهناك تقوم على أحراف الوادي العميق تحتها . بل بعض المباني تطل على الوادين معاً فيراها الجالس فيها في وقت واحد ومن موقف واحد

« ويزيد هذا المنظر الغريب غرابة ما حوله من القمم الغربية الاشكال القائمة حوله وماذا أقول في وصفها ؟ انه لا يحضرني الفاظ تشف عما يدل على اشكالها وهيئتها فانها غريبة في بابها يقف الخيال حائراً عندها . فوارع شاهقة جداً جرداء مصخرة متوعدة منتصبة كالجدران تنهي برؤوس كأنها قوالب السكر على كثير منها المعازل بناها الاهلون . اما كيف يصعدون اليها او ينزلون منها او من أين يستقون مياههم فيها فكل ذلك مما يوجب الاستغراب ويلقي في الحيرة والدهشة

« اما مناخة نفسها فمدينة صغيرة وربما لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة وبيوتها من حجر أغلبها ذات ثلاث طبقات وبعضها ذات أربع وسوقها عامرة تجدد فيها كل ضروريات المعيشة المتمدة وفيها مخازن كبيرة واحد او اثنان منها لرجال من اليونان تجدد فيها ما تجدد في مثلها من مخازن مصر والاسكندرية

« وموقع مناخة يعلو سبعة آلاف وستمئة قدم عن سطح البحر ولذلك هو عرضة للتقلبات الجوية السريعة فانه لم يمر الساعتان على وصولنا تحت أشعة الشمس الحارة حتى طبقت السماء بالغيوم بما أخفى المناظر أمامنا عن أعيننا وهبطت درجة الحرارة الى خمسين فهرنيت فاضطررنا الى الاصطلاء بالنار على كوانين النحاس أنا ومن معي . وعند الساعة الثامنة أخذتني الحمى فجأة ولم تفارقني الى الساعة العاشرة من الصباح التالي وكنت في ذلك الحين لا أقوى على النهوض الا بمعاونة من ينهضني فتوقفنا عن السفر ولم يتصعب علي القائمقام

في المقام يوماً آخر بل بذل ايضاً كل ما في وسعه لراحتي . وبعد الظهر كنت استرددت شيئاً من قوتي فخررت نفسي الى ظل بين الصخور حيث أضرمت لي خادماي نارا وطبخا قهوة » وكان الموقف الذي تخيرته يشرف على الوادي الكبير غربي المدينة من اعلاه الى اسفله فرأيت حيران البن وغابات الموز ادرجاً بعضها فوق بعض ورأيت القرى وسطوح بيوتها امامنا كأنها رقعة شطرنج ينظر اليها اللاعب من علو . وكان على مسافة في الوادي يتراءى لنا خيط من النور الفضي يتم على نهر جار هناك مدهم من تلك المنحدرات الصخرية ماث من الأنهرات تتكسر مياهها على الصخور او تهبط من فوقها على طريقها لتلتقي بالنهر الكبير في اسفل الوادي . ثم من وراء ذلك كان ضباب وقم جبال اختفت عنا الوانها فصارت كأنها الغيوم ولاكنها جميلة جداً لا يفصح عنه باسان

« الا ان أهمية مناخه ليست في جمال مناظرها وجلالها بل هي في موقعها الحربي لأن نقطتها تتسلط على الطريق السلطاني ما بين الحديدة وصنعاء وهي على نصف المسافة بين المدينتين تقريباً ومن أصاح النقط لحفظ خط المواصله بين الساحل وصنعاء قلب البلاد الحنية من مناخه الى الحبيلاء

« قنا باكراً في الصباح التالي نقصد الحبيلاء . والطريق في أثناء الاميال الاولى تأخذ في جانب الجبال على الجهة الجنوبية من الوادي وتذهب صعداً بالتدرج ساعة او ما يزيد حتى يبلغ ارتفاعها ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر وهناك تقطع ضحراً من الارض بقرب قرية الهجرة ثم تأخذ بالهبوط

« وقرية الهجرة هذه مبنية على شتر ترتفع اسناده من كل جهة كالجدران وظاهر القرية يدل على أنها قرية كبيرة ذات أهمية فضلاً عن ان موقعها حصين جداً . وأما البلاد حولها فجميلة جداً — مياه كثيرة ولا ينقصها الشجر ايضاً

« لم نلبث الا قليلاً بعد ان تركنا الهجرة الى يميننا وأخذت الطريق تتحدر بنا حتى ظهرت لنا قرية اخرى اعجب وأعرب من القرية التي تركناها . والقرية يقال لها عطرة . اما موقعها فعلى مرتفع من الارض تحيط به من كل جهاته الحيران المدرجة ثم من وسط هذا المرتفع ينهد قرن من الصخريذهب صعداً في الهواء ماث من الاقدام وينقسم في منتصفه على خط عمودي الى قسمين بعلوان معاً وعلى رأس كل من القسمين بيت كبير ذو طبقات او معقل يلجأ اليه . والناظر الى هذين المعلقين لاول مرة يذهب ذهنه بادىء بدء الى السؤال كيف يتوصل اليهما فان العين لا ترى طريقاً لها ويصعب على الناظر ان يصدق ان ثم طريقاً وقد اخبرني رفيقي ان الطريق اليهما في سلم منقور درجاً في الصخر — وعلى قاعدة

القرن ببقية بيوت القرية تلتف حواليه. اجتزنا عطرة والطريق تتلوى بنا على جانب الجبل وما زلنا كذلك حتى وصلنا الى قهوة ويزل قبل الظهر بقليل. وموقع ويزل غريب جداً (نظير اكثر مواقع قرى اليمن) فانها على شفا جرف تحتها عميق جداً. اما المسكان بالذات فحقير وهو أكواخ مغطاة بالحصر والسكلا للاستغلال بها وهناك جنيذة صغيرة فيها بعض الحيران يشرف الناظر من جدرانها الى الوادي العميق تحتها على خط عمودي تقريباً فجلسنا تحت شجرة ظليلة على بساط بسطناه تحتنا نروح نفوسنا ونمتع أعيننا بما حوالينا من المناظر العظيمة وكنا في موقعنا اذ ذاك نعلو أربعة آلاف وخمسةة قدم فوق سطح البحر وأمامنا مدرجات من حيران البن لم نر ما يماثلها الى الآن فان زراعة البن على أجودها في هذه الجبال ولا سيما على اسناد سلسلتي جبل مسار وصعفان (Safan) الى الشمال منا والجبال فوق هذه الحيران تملو صعداً في الهواء كالجدران ويكاد يكون على كل قمة من قممها قرية وحصن من القرى والحصون التي مرت بنا الاشارة الى وصفها فيما سلف. تركنا ويزل والطريق عقبه تنحدر وتتلوى بناً على سبند الجبل الا ان آثار العمارة ظاهرة عليها فان الآثارك وسعوا الطريق هنا وزرعوا الاشجار على جانبيها للظل ولتبع التربة من ان يجرفها السيل وما زلنا نمشي حتى وصلنا مجرى النهر في الوادي فلقينا حينئذ من المشقة أشدها لان المجرى وهو الطريق كان غاصاً بالرضام والصخور المدماكة الى حد لم تكن البغال تقوى فيه على السير الا بصعوبة شديدة فاضطررنا الى ان نمشي على أقدامنا وما زلنا نمشي والمجرى يتضايق الى ان صار مضيقاً لا يزيد عن مجرى السيل والصخور تعلو على جانبيه كالجدران الى ما يقارب الثمانين قدماً. واستمر بنا المسير كذلك مدة الى ان تخلصنا من المجرى وصعدنا في تلة صخرية عن شماله. وبعد ان جزنا متناً صغيراً سهلاً أخذنا تنحدر نحو قرية الجيلاه فوصلناها بين الساعة والساعتين قبل الغروب. وفي هذه القرية تغيرت علينا المناظر وتغير الهواء. شارفنا تهامة وودعنا جبال اليمن العظيمة وأوديتها المحنصة الجميلة.

(راجع كتاب هرس — رحلته في اليمن — من صنعاء الى مناخة والى الجيلاه)

ان المستر هرس كتب كتابه شاعر حرّكت نفسه عظمة الجبال وجمال الاودية ومع ذلك فالمطلع على ما نقلناه عنه هنا تارة تلخيصاً وتارة ترجمة بالحرف تقريباً فانه يتصور صورة جليلة تنرب من الحقيقة عن بلاد اليمن وجبالها وأوديتها وصعوبة مسالكها وحصانة مدنها وقراها. ويتهيأ لما جعلنا ما كتبناه الى الآن توطئة له من أهمية البلدان العربية في المملكة العثمانية الدستورية وأهمية اللغة العربية فيها اي في المملكة وموعدنا بكل ذلك الاعداد القادمة ان شاء الله

في المقام يوماً آخر بل بذل ايضاً كل ما في وسعه لراحتي . وبعد الظهر كنت استرددت شيئاً من قوتي فجزرت نفسي الى ظل بين الصخور حيث أضرمت لي خادماي ناراً ويطبخا قهوة « وكان الموقف الذي تخبرته بشرف علي الوادي الكبير غربي المدينة من اعلاه الى اسفله فرأيت حيران البن وغابات الموز ادراجاً بعضها فوق بعض ورأيت القرى وسطوح بيوتها امامنا كأنها رقعة شطرنج ينظر اليها اللاعب من علو . وكان على مسافة في الوادي يترامى لنا خيط من النور الفضي يتم على نهر جار هناك مده من تلك المنحدرات الصخرية مئات من الأنهار تتكسر مياهها على الصخور او تهبط من فوقها على طريقها لتلتقي بالنهر الكبير في اسفل الوادي . ثم من وراء ذلك كان ضباب وقم جبال اخفت عنا الوانها فصارت كأنها النجوم ولكنها جميلة جداً لا يفصح عنه باسان

« الا ان أهمية مذاخة ليست في جمال مناظرها وجلالها بل هي في موقعها الحربي لأن نقطتها تتسلط على الطريق السلطاني ما بين الحديدة وصنعاء وهي على نصف المسافة بين المدينتين تقريباً ومن أصلح النقط لحفظ خط المواصلات بين الساحل وصنعاء قلب البلاد اليمنية من مناخة الى الحجيلاء

« فمنا باكرأ في الصباح التالي نقصد الحجيلاء . والطريق في أثناء الاميال الاولى تأخذ في جانب الجبال على الجهة الجنوبية من الوادي وتذهب صعداً بالتدرج ساعة او ما يزيد حتى يبلغ ارتفاعها ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر وهناك تقطع ضحراً من الارض بقرب قرية الهجرة ثم تأخذ بالهبوط

« وقرية الهجرة هذه مبنية على شئز ترتفع اسناده من كل جهة كالجدران وظاهر القرية يدل على أنها قرية كبيرة ذات أهمية فضلاً عن ان موقعها حصين جداً . وأما البلاد حولها فجميلة جداً — مياه كثيرة ولا ينقصها الشجر ايضاً

« لم نلبث الا قليلاً بعد ان تركنا الهجرة الى يميننا وأخذت الطريق تتحدر بنا حتى ظهرت لنا قرية اخرى اعجب وأغرب من القرية التي تركناها . والقرية يقال لها عطرة . اما موقعها فعلى مرتفع من الارض تحيط به من كل جهاته الحيران المدرجة ثم من وسط هذا المرتفع يندد قرن من الصخر يذهب صعداً في الهواء مئات من الافدام وينقسم في منتصفه على خط عمودي الى قسمين يعلوان معاً وعلى رأس كل من القسمين بيت كبير ذو طبقات او معقل يلجأ اليه . والناظر الى هذين المعلقين لاول مرة يذهب ذهنه بادىء بدء الى السؤال كيف يتوصل اليهما فان العين لا ترى طريقاً لها ويصعب على الناظر ان يصدق ان ثم طريقاً وقد اخبرني رفاقي ان الطريق اليهما في سلم منقور درجاً في الصخر — وعلى قاعدة

القرن بقية بيوت القرية تلتف حواليه. اجتزنا عطرة والطريق تتلوى بنا على جانب الجبل وما زلنا كذلك حتى وصلنا الى قهوة ويزل قبل الظهر بقليل. وموقع ويزل غريب جداً (نظير اكثر مواقع قرى اليمن) فانها على شفا جرف تحتها عميق جداً. اما المكان بالذات فخير وهو أكواخ مغطاة بالحصر والكلا للاستغلال بها وهناك جنيثة صغيرة فيها بعض الحيران يشرف الناظر من جدرانها الى الوادي العميق تحتها على خط عمودي تقريباً فجلسنا تحت شجرة ظليلة على بساط بسطناه تحتنا نروح نفوسنا ونمتع أعيننا بما حوالينا من المناظر العظيمة وكنا في موقعنا اذ ذاك نعلو أربعة آلاف وخمسمئة قدم فوق سطح البحر وأمامنا مدرجات من حيران البن لم نر ما يماثلها الى الآن فان زراعة البن على أجودها في هذه الجبال ولا سيما على اسناد سلسلتي جبل مسار وصعقان (Safan) الى الشمال منا والجبال فوق هذه الحيران تملو صعداً في الهواء كالجدران ويكاد يكون على كل قمة من قممها قرية وحصن من القرى والحصون التي مرت بنا الاشارة الى وصفها فيما سلف. تركنا ويزل والطريق عقبه تنحدر وتتلى بنا على سبند الجبل الا ان آثار العمارة ظاهرة عليها فان الآثارك وسعوا الطريق هنا وزرعوا الاشجار على جانبيها للظل ولتبع التربة من ان يجرفها السيل وما زلنا نمشي حتى وصلنا مجرى النهر في الوادي فلقينا حينئذ من المشقة أشدها لان المجرى وهو الطريق كان غاصاً بالرضام والصخور المدمكة الى حد لم تكن البغال تقوى فيه على السير الا بصعوبة شديدة فاضطررنا الى ان نمشي على أقدامنا وما زلنا نمشي والمجرى يتضايق الى ان صار مضيقاً لا يزيد عن مجرى السيل والصخور تملو على جانبيه كالجدران الى ما يقارب الثمانين قدماً. واستمر بنا المسير كذلك مدة الى ان تخلصنا من المجرى وصعدنا في تلة صخرية عن شماله. وبعد ان جزنا متناً صغيراً سهلاً أخذنا ننحدر نحو قرية الحجيلاء فوصلناها بين الساعة والساعتين قبل الغروب. وفي هذه القرية تغيرت علينا المناظر وتغير الهواء. شارفنا تهامة وودعنا جبال اليمن العظيمة وأوديتها الخصبة الجميلة.

(راجع كتاب هرس — رحلته في اليمن — من صنعاء الى مناخة والى الحجيلاء)

ان المستر هرس كتب كتابة شاعر حرر كت نفسه عظمة الجبال وجمال الاودية ومع ذلك فلمطالع على ما نقلناه عنه هنا تارة تلخيصاً وتارة ترجمة بالحرف تقريباً فانه يتصور صورة جليلة تنرب من الحقيقة عن بلاد اليمن وجبالها وأوديتها وصعوبة مسالكها وحصانة مدنها وقراها. وينتهي لما جعلنا ما كتبناه الى الآن توطئة له من أهمية البلدان العربية في المملكة العثمانية الدستورية وأهمية اللغة العربية فيها اي في المملكة وموعداً بكل ذلك الاعداد القادمة ان شاء الله

خاتم المارد وبساط الريح وقبع الاخفاء (١)

جاء في قصص الف ليلة وليلة وفي أخبار الملك سيف ذكر ثلاثة أشياء عجيبة غريبة لما لها من الخواص والصفات الخارقة المعتاد الاول منها خاتم المارد ومن خواصه ان حامله اذا فكره بيده مثل أمامه مارد من المردة العظام يقول له لبيك يا مولاي ماذا تريد فان قال اريد طعاماً أو شرباً أو لباساً أحضره له في الحال. او قال اريد ان تبني لي قصرأ تحيط به الجنات وتجري من تحته الأنهار وفيه احسن الرياش والاثاث وفيه العبيد والجواري على مراتبهم في الخدمة لم يلبث ان فعل له ذلك لا فرق بين ان يكون القصر في البر فوق مرتفعات التلال الخضراء او في البحر على شائفات الجزر الغضراء

والثاني بساط الريح ومن خواص هذه الاداة ان تقطع بصاحبها المسافات الشاسعة التي لا يمكن ان تقطع بواسطة أخرى فاذا ضرب بساط الريح صاحبه لباه المارد الموكل به يقول امرك يا مولاي ماذا تريد فيقول مثلاً انقلني الى مدينة كذا الى قصر ملكها الى غرفة منامه فينقله بأسرع من لمح البصر. وقد يحمل بساط الريح صاحبه فوق بحار من الظلمات لا يهتدي فيها او فوق اراض مسحورة يستحيل قطعها لولا هذا البساط وماله من الخصوصية الباهرة

الثالث قبع الاخفاء ومن خصوصياته ان صاحبه اذا لبسه اختفى عن الاعين فأصبح يرى ولا يرى. وربما باغته مباغت من عدو مشاكس او سبع مفترس فيظن انه صار في قبضته لکن بينما هو ييسم ابتسامة المنتصر الظافر اذا بخصمه صاحب قبع الاخفاء قد غاب من أمامه بغتة وترك يحرق اسنانه من شدة الغيظ ومرارة الحية

يقولون ايها السادة والسيدات ان كاتب الف ليلة وليلة رجل حكيم عاقل اشبهه بالفياسوف بيدبا صاحب كتاب كلياته ودمنة. فبعض حكاياته وان ظهرت للعامة بمظاهر اللهو والخرافات يفرأونها ترويحاً لنفوسهم ومجارة لاهوامهم وتخيلاتهم هي عند التحقيق يشار بها الى حقائق حققة وعادات مرعية وآداب متبعة

وأحق قصصه بالتفسير والتأويل خبر هذه الاشياء العجيبة فانه لم يرم بها على الخيل ولا اراد بها مجرد ايها الجمهور وترويض تخيلاتهم تمريناً لها على قبول الغرائب والمستحيلات

(١) خاتمة الامام فخر ضومط استاذ العربية في المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت القاها في مدرسة البنات الاميركية في حفلة اعطاء الشهادات

الحوارق كذا يقول كثيرون من جهة أهل العلم والنظر على ما سمعت فأرجح من ثم انه أشار بهذه الادوات الثلاث الى معان وظواهر لا ريب في وجودها تنطبق اوصافها على اوصاف هذه الادوات

دعونا اذن ننظر في تأويل هذه الادوات وبيان ما تشير اليه. اخاف ان تهزأوا بي ايها السادة والسيدات وتعدوه من السخف ان تؤول هذه الاقاصيص كما تؤول كتب الحكمة والفلسفة. وقد لا يبعد ابتداء ان تقولوا في سركم ماذا أصاب هذا الرجل. متى خولط في عقله. انخاتم المارد وبساط الريح وقبح الاخفاء تشير الى حقائق معنوية وجودية. ما سمعنا بهذا من قبل. بل غاية ما نظنه أنها من خرافات الخيلة وهو الحديث. وانسكتة فيها إن كان فيها نكتة إنما هي غرابة تصور كاتبها وبعد تخيلات. لا تمتثلوا في الحكم ايها الشبان الادباء والسيدات الادبيات ولا تظنوا بي الظنون ايها الفضلاء والعقلاء. انما ارعوني سمعكم قليلاً وليسعني حلمكم وصبركم بضع دقائق فأبين في خلالها مغازي ما يراد بهذه الادوات العجيبة

خاتم المارد على ما يظهر من القصة واسطة بين من يحصل عليه وبين المارد اي بينه وبين قوة عظيمة موجودة غير منظورة. وكذلك بساط الريح وقبح الاخفاء. افرك خاتم المارد بيدك فيحضر المارد بين يديك يقول اطلب ما تشاء أحضره لك بأسرع من لمح الطرف. اضرب بساط الريح بالعصا التي أعطاها المارد فيخف المارد لاجابتك ويحملك الى حيث تشاء ويقطع بك مسافة لا يمكن ان تقطعها بدونه. البس قبح الاخفاء فيحضر ذلك المارد وبقوته الخاصة يرد العيون عن ان تراك ويقيك المكائد والاضرار التي لولاه لوقعت بك. ترون اذن من القصة ان المارد الذي يمثل بين يديك لخدمتك اذا فركت الخاتم هو نفس المارد الذي يحملك على بساط الريح ويقطع بك المسافات التي لا تقطعها بدونه وهو هو الذي اذا لبست قبعه يوازيك عن عيون الاعداء ويقيك المكائد والاضرار التي كانت لتقع بك لولا وقايتة

وعليه فالخاتم والبساط والقبح إنما هي أسباب محسوسة اذا امتلكت امتلك بامتلاكها قوة عظيمة جداً يعبر عنها بمارد فيكون طوع إرادتنا نحضره عند الحاجة ونصرفه عند الاستغناء عنه. وفضلاً عن كون هذه الادوات اسباباً اذا حصلنا عليها حصلنا على القوة هي أيضاً عبارة عن ثلاثة انواع من الخدمة التي يصرف المارد في قضائها لانتشوف النفس الى أكثر منها. لي بعد شيء أقوله وهو اذا قرأتم القصة وأمعنتم النظر فيها جيداً ترون الكاتب لم يغفل عن ان يلمح الى ان هذه الادوات والاسباب المحسوسة يمكن ان يفقدها

صاحبها واذا فقدتها فقد مع فقدانها قوة المارد أيضاً مع انه يبقى هو هو
أرى وقد قلت ما قلته ان مغزى القصة لا يصعب بعد فهم المراد منه فان المارد عبارة عن
قوة حقيقية وجودية كنى بها صاحب القصة عن قوة العقل البشري وهذه القوة هي من أعظم
القوات الطبيعية في هذا الكون وما سواها من القوات خاضع لها لا يقوى على معارضتها
فاذا سلمنا بذلك لم يبق شك في ان الادوات الثلاث يراد بها الاسباب المحسوسة التي اذا حصلنا
عليها كانت القوة العاقلة قوة العقل البشري في ملكنا وطموع ارادتنا نستطيع التصرف بها في
ما نشاء وعلى ما نشاء . والاسباب المحسوسة التي بامتلاكها تتمكن من امتلاك قوة العقل هي المال
في مظاهره المعروفة . فالمال اذن هو المراد من خاتم المارد وهو المراد من بساط الريج وهو
هو المراد من قبع الاخفاء . افركوا المال بأيديكم افركوا هذه التي يقال لها الليرات الانكليزية
او العثمانية او البرنسوية فيقول لكم المارد أعني قوة العقل الانساني ليك ليك ماذا تريد .
قولوا لهذه الليرات صيري طعاماً أو شراباً فتصير . قولوا لها صيري اثاثاً ورياشاً وزينة فتصير .
قولوا لها صيري قصوراً تناطح السحاب وفيها العبيد والاماء والجواري والخدم والحشم على
مراتبهم فتصير . قولوا لها صيري حدائق وجنات تجري من تحتها الانهار فتصير . قولوا لها
صيري مركبات وخيولاً وحراباً وبنادق ومدافع فتصير . قولوا لها صيري جيوشاً جارية
لا يعرف أولها من آخرها وازحني على الصين والهند وقلب افريقية واخضعي تلك البلدان
او عمري تلك المجاهل واستخرجي ما بها من الخبائر والكنوز الطبيعية فطبع صاغرة .
قولوا لليرات صيري مدارس ومعابد صيري ملاجئ للفقراء ومستشفيات للمرضى صيري سككاً
حديدية ومعامل صناعية وتلغرافات وتلفونات ومراكب شرعية وبحارية بل قولوا لها صيري
ما يمكن ان يخطر لكم ببال مما في قوة العقل البشري ان يوجد فتصير بالخال الى ما أردتم
فالمال اذن هو خاتم المارد الذي عناء صاحب القصة وهو أمر حقيقي وجودي لا مجرد او هام
وتخيلات يحلم بها الجاهل ويتفكك باستحالتها العاقل . تقولون لي فهناك تأويلك لخاتم المارد وهو
تأويل حق لا يستطاع انكاره لان المشابهة ظاهرة اتم الظهور لكن كيف تؤول بساط الريج
قلت اليس المارد الذي يحضر عند فرك الخاتم هو نفس المارد الذي يحضر عند ضرب بساط الريج .
فاذن ليس بساط الريج الا نوع خدمة مختلفة في الاعتبار فقط عن خدمة الخاتم وعليه فلننظر في
خصوصية هذه الخدمة وفيما اذا كان يمكن تطبيقها على خدمة اخرى من خدم المال . بساط الريج
يقطع بصاحبه على ما في القصة المسافات المسحورة التي لا تقطع بدونه . كذلك المال يقطع
بصاحبه مسافات مراتب الهيئة الاجتماعية المسحورة التي لا يمكن ان تقطع بدونه . أي مسافة
ابعد من المسافة بين رتبة العامة ورتبة الخاصة ؟ ام اي مسافة اشد هولاً من المسافة التي بين

رتبة الصالحين الفقراء ورتبة الامراء؟ هذه المسافة هي المسافة المسحورة وكل رقي وطلاسم التراتيب البشرية مقامة على ابوابها تمنع من تجاوزها وتخطر على غير اهل الرتبة ان يصلوا اليها . قولوا لي متى كان يستطيع الفقير السوق ان يقطع المسافة التي بينه وبين الاعيان من الكبراء والعلماء والامراء . مازالت هذه المسافة ولن تزال بعيدة مسحورة لا يستطيع قطعها الا بهذا البساط « بساط الريح » الذي هو عبارة عن انمال الكثير ورمز اليه لاتزعموا ايها السادة ان كلامي على سبيل المبالغة والتحويل . انظروا الى الانكليز وهم من ارقى الشعوب المتمدنة في الحال فان بين سوقهم وبين خاصتهم من التباين والتباعد ما لا يعرفه الا من خبر القوم وعرف عوائدهم . فان الخاصة يرون من أكبر العار عليهم ان يخاطبوا السوق او يجالسوهم في حال من الاحوال . لكن هؤلاء السوق اذا حصلوا على الغنى فتح لهم الخاصة من الاعيان والكبراء والعلماء والامراء سدورهم وقصورهم ومتندياتهم على اختلاف انواعها . وبعبارة اخرى نقول ان الغنى يمكن اهله عند هذه الامة العظيمة من قطع مسافة رتبهم الاجتماعية مهما كانت تلك المسافة بعيدة . واذا اغتنى الفقير بينهم امكنه ان يصل الى اعظم الرتب وأشرفها على حين كانت طريقها مسحورة عليه من قبل لا يستطيع ان يخطو فيها خطوة واحدة . هذه ايضا الامة الاميركانية والرتب الاجتماعية لا أثر لها في نظماتها السياسية والقانون بصرح بتساوي كل فرد من افرادها في جميع الحقوق المدنية ومع ذلك لاغنيائها مرتبة ممتازة لا يوصل اليها الا بالغنى . فرتبة او طبقة الاربعائة في نيويورك معروفة مشهورة وأهل هذه الطبقة على ما هو معروف مستقلون بمعاشرتهم وجعياتها واجتماعاتهم وليالي لهُومهم ومسراتهم لا يطبع احد ان يشاركنهم فيها او يصل اليها الا ببساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ انكلترا ترون انه كان بين عامتهم بوجه الاجمال من جهة وبين خاصتهم وأشرفهم من جهة اخرى مسافة مسحورة في الحقوق والامتيازات ما كان يستطيع قطعها بوجه من الوجوه لكن الفضل كل الفضل في ازالة هذه المسافة وفك طلاسم سحرها انما كان لبساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ الامة اليونانية فان حكمهم الشهير صولون جعل التفاوت بين طبقاتهم على نسبة التفاوت في المال فجعل انمال بساطاً يطير به صاحبه من رتبة الى رتبة اعلى منها الى ان يصل الى اعلى الرتب الممكنة . راجعوا تاريخ الامة الرومانية العظيمة فانها كانت تقسم الى طبقتين طبقة العامة او البلييان وطبقة الاشراف او البتريشيان وكانت المسافة بين هاتين الطبقتين مما لا يمكن تجاوزه الا ان بساط الريح مازال ينقل البلييان واحداً بعد الآخر الى طبقة البتريشيان حتى ازال طلاسم هذه المسافة وكسر ابوابها التي كانت تحول دون مآتهم

ودون منزلة الشرف التي كانت لحاصلتهم

بقي علي تأويل قبح الاخفاء وبيان المراد منه وأراني لا احتاج الى تعب في اقناعكم انه رمز به الى المال ايضاً انما الصعوبة في بيان وجه الخدمة التي تقصد من قبح الاخفاء . على ان من راجع القصة وتأمل المنفعة التي كانت تحصل لصاحب هذا القبح رأى كل ذلك منطبقاً على القول المشهور وهو ان المال يستر معاييب صاحبه فلا يناله مضرة المذمة وقبح الاحدوثة التي لا بد منها اذا ظهرت المعاييب وكثر تحدث الناس بها . هذا صاحب المال اذا كان جباناً واستحق المذمة على جبانته ستر المال هذه الخصلة فلم يظهر جبنه بل قد يعدون الحيانة منه تبصراً وروية واحكاماً في موضع الاحجام . وكذلك البخل فيه فقد لا يرونه منه بخلاً ويتأولون له مظاهر البخل انها مظاهر اقتصاد وحسن تقدير . وقس على ذلك سائر المعاييب فان المال يسترها على صاحبها فيوقى بذلك من المذمة والعار اللاحقين باهل هذه المعاييب

انظروا الى الحتمي من الاغنياء الطياشين الذين يجري على السندهم ما يخطر في قلوبهم فان غالب الناس لا يرون ذلك حمقاً منهم ولا طيشاً أو تسرعاً يستوجبان التنقص والازدراء انما يحسبون ذلك لهم من باب حرية الافكار وبغض الرياء والنفاق . وبالاجمال فأكثر النقائص والمعايب التي تعدد على الفقراء والسوقة من الناس اما ان تخفى عن العيون فلا يرونها في الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة واما ان تتقلب صفتها فيرونها فضائل فيهم وكلمات . نعم هذا من شرور الغنى لا من منافعه ولكنه خدمة من خدم المال لصاحبه تمنع العيون من رؤية مقابحه وتقيه شر تبعها فيما لو ظهرت في مظاهرها الحقيقية

لا احتاج ان اذكر لكم كل انواع الوقاية التي يقيها المال اهله والاضرار التي يصرفها عنهم مما هو مشاهد من الوقائع الكثيرة والحوادث التي تعرفونها قديماً وحديثاً فانها من الكثرة ما لو اردت تعدادها لاقضى لي في سردها ايام قبل ان آتي على آخرها . انما يمكنني ان اذكر لكم ما يعرفه كل منا باختباره وهو اننا في غيبة اصحاب المال نغضب من نقائصهم وأعمالهم الشاذة وتبلغ بنا الحدة الى ان لا نبقى ولا نذر في ثلبهم والتنقص منهم حتى بخيل للسامع ان اذا التقينا بهم لا يصرفنا صارف عن تقريرهم بمعائبهم في وجوههم وايقاع كل نوع من الاذى والاهانة بهم لكننا اذا التقينا بهم ورأينا ابهة غناهم نسينا كلنا قلناه فيهم وأخذنا في مجاملتهم والثناء عليهم على عكس ما ظهر منا في غيبتهم بل ربما نزيد في المدح والتملق لهم في حضرتهم اضعاف ما كان منا من ذمهم ومجافاتهم في الغيبة . ما الذي اوجب كل هذا التغير فينا . ما الذي اوجب كل هذا التفاضل بل ما الذي اوجب كل

هذا العمى والتعالي الغريب العجيب حتى انا لا نرى فيهم الآن شيئاً مما كنا نراه قبيل اجتماعهم . ذلك لانهم يلبسون على رؤوسهم في بيوتهم وبجاسهم قبع الاخفاء وبعبارة اخرى ابهة المال وزخارفه فلانعود نرى فيهم شيئاً من المعاييب التي كنا نتهمهم بها . وهذا مساو لاختفائهم عن اعيننا وموافق كل الموافقة لما لا يذكر عن خصائص قبع الاخفاء لا يؤخذ علي من كلامي ان الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة هم شر من غيرهم من بقية الناس حاشا . حاشا لله ان اتهمهم هذه التهمة التي يعيل الى ان يتهمهم بها كثيرون من المتفاحين . بل الذي اعتقده فيهم انهم بوجه الاجمال خير مما يظن فيهم ومنهم من هو افضل الناس وأكرمهم نفساً وأسخاهم يداً وأحرصهم على نفع الغريب ورفع شأن الانسانية . ولا أقول ذلك تزلفاً او لان قبع الاخفاء يمنعني الآن من رؤيتهم انما اقول الحق الواقع على ما اعتقد . والذي يتحصل من كلامي ان الهيئة الاجتماعية لا ترى من عيوبهم ما تراه من نفس هذه العيوب لو كانت في غيرهم . ثم هي لا تستطيع ان توصل اليهم الاذي الذي تستطيع ان توصله الى غيرهم من افرادها لا ان عيوبهم اكثر من عيوب غيرهم

ابها السادة والسيدات الكرام انتهيت الآن من تأويل المراد من هذه الادوات الثلاث التي وردت في بعض الكتب والتي يظن بها انها كتبت هناك لمجرد الفكاهة واللهو من غير ان يتوجه خاطر كاتبها الى ظاهرة من ظواهر القوات الطبيعية التي تؤثر في احوال المجتمع الانساني . والذي اقله الآن انه ان سلم بهذا التأويل الذي اولته من انه يراد بالمارد قوة العقل البشري وأنه يراد ايضا بهذه الادوات الثلاث المال في جميع مظاهره وأن الخواص التي نسبت اليها انما هي اشارة الى انواع الخدم التي يستطيع صاحب المال ان يستخدم العقل البشري من اجلها . ان سلم بهذه كلها فليس اذن شيء من المبالغة فيما ذكره صاحب كتاب الف ليلة وليلة ونسبه الى هذه الادوات . اي مبالغة في ان العقل البشري من اعظم القوات الطبيعية في هذا الكون . اي مبالغة في انه اعظم من القوة المغنطيسية وأنه اعظم من القوة الكهربائية او انه اعظم من قوة النور والحرارة ؟ بل هو اعظم وأقوى من جميع هذه القوات مجتمعة معاً لانه يعرف هذه القوات وهي لا تعرفه ويستطيع استخدامها بحسب ارادته ولا يستطيع هي ان تستخدمه . والى الآن فقد استخدم كثيراً منها وذلك حتى اصبحت طوع ارادته يلعب بها كما يشاء . ولا شك ايضاً انه سيتمكن في المستقبل من معرفة خواص هذه القوى وتذليلها في قضاء حاجاته فوق ما عرف وما ذلل منها الى هذه الساعة . ثم لما كان المال في ما مضى وسيكون في ما يأتي اشبه بالبطارية الكهربائية او القنبلة اليدنية يذخر فيه من قوة العقل كما يذخر في تلك من القوة الكهربائية كان امتلاك المال عبارة

عن امتلاك تلك القوة العجيبة الغريبة اعني قوة العقل الانساني . اذن لا يستخف احد بالمال لان من استخف به فقد استخف بالعقل البشري وبثمرات العقل البشري . وليحرص عليه من هو في يده لان هذه الليرة مثلاً ليست بعد ذهباً أي مادة جامدة ميتة بل هي بمثابة العقل أو الرجل الحي العاقل يخدمك بقوة عقله على نسبة ما هو مذكور فيها من القوة . ولذلك فربما تكون لك هذه الليرة عاملاً اعتيادياً يخدمك عشرين يوماً أو صاحب إحدى الصناعات المتعارفة كالنجار والبناء والحداد والحائك وغيرهم يخدمك اسبوعاً كاملاً من الصباح الى المساء وربما تكون حاسباً ماهراً أو كاتباً بليغاً أو طبيباً حاذقاً يخدمك كل منهم بما يساوي القوة المذكورة فيها من قوى عقله

ايها السادة والسيدات الكرام لو كنت على منبر الوعظ لقلت ما اقوله الآن ان من يستخف بالمال يستخف بأعظم انعامات الله عليه ومن ينفقه جزافاً في غير موضعه يخطيء ايضاً لانه لم يحسن استعمال ما خوله اياه الله . فالمال المال فانه وديعة الله عندنا كما ان العقل وديعته ايضاً وهو بعد الصحة من اعظم النعم التي ينعم الله بها على مخلوقاته . وصاحبه كان ولا يزال موضوع التجارة والكرامة بين اهله وقومه ومعاصريه له المقام الاول بينهم ان قال اصغى الناس لقوله او امر تبادروا الى طاعته . وعلى كثرة الاغنياء في الامة تتوقف عظمتها وارتفاع شأنها ونفوذ كلمتها واتساع متاجرها وامتداد سطوتها في المعمور . وعلى كثرة الاغنياء ايضاً يتوقف غالباً اتساع الامة في المبرات وأنواع الاحسان ورفع شأن الانسانية . فالعابد العموية والمدارس الكلية والمستشفيات للعرضى والملاجيء لليتامى وبيوت العجزة كل هذه للاغنياء فيها اليد البيضاء والفخر الباقي مدى الدهر . وبالاختصار اقول ان المقام الاول في الهيئة الاجتماعية كان ولا يزال للمال ولأصحاب الاموال الكثيرة

ايها السادة والسيدات الكرام يصدق الحكم الذي قلته من ان المقام الاول في المجتمع الانساني انما هو للمال ولأصحاب الاموال . وليس بعد الواقع المشاهد حجة لمحتج او لتعليل لمتملح ومع ذلك فتميزاً لما ذكرته دعوني اورد لكم في هذا الصدد كلام اعظم رجال انكلترا في أواخر هذا القرن اعني به اللورد بيكونسفيلد او المستر دسراي المشهور فانه في روايته المشهورة بتسكرد وهي الرواية التي أودع فيها معظم فلسفته وأفكاره الخطيرة يورد مشهداً جرى فيه حديث بين اللورد تسكرد ابن دوق بلامنت وبين ابنة رجل من أغنياء الاسرائيليين فساق الحديث مسافاً جعل فيه الابنة تسأل هذا العظيم الانكليزي السؤال الاتي فتكروا بالاتباء الى ما سأله هذه الفتاة

والى ما اجابها به الشريف الانكليزي مما يدل على رأي اللورد بيكونسفيلد واعتقاده .
قالت الابنة مخاطب اللورد تنكررد : ولكن ارجو من فضلك ان تخبرني لاي شيء المقام
الاول عندكم في اوربا . فصمت هنيهة ثم قال وقد احمرت وجنتاه خجلا يظهر لي ان المقام
الاعلى للمال . هذا هو رأي اللورد بيكونسفيلد وهو صريح لا يدخله شبهة ولا يقبل التأويل
بوجه من الوجوه في ان المقام الاعلى في اوربا بل وفي امريكا وآسيا وأفريقيا
وأستراليا إنما هو للمال

قوة المال على نسبة كثرته وكثرته تتوقف على كيفية اكتسابه وانفاقه . اما اكتساب
المال فمطلوب منكم ايها الرجال لا من السيدات واكتسابه موقوف على النشاط والامانة
والاستقامة . يظن كثيرون انهم يحصلون المال بالاماني وهم نيام فيحتقرون الصنائع
ويترفعون عن الاستخدام الا اذا كانت الخدمة شريفة كما يزعمون وشرفها بكثرة الممين
لها وربما صرفوا قبل ان يحصلوا على هذه الخدمة الشريفة السنين الطوال في السكل
والنوم . فليذهب أمثال هؤلاء الى الولايات المتحدة وليتعلموا النشاط من تلك الامة
العظيمة فان رجالها لا تعرف معنى الملل ولا تشعر بالكلل وهم لا يحتقرون صناعة ولا
يترفعون عن عمل مشروع . وجواب احد عظمائهم لمن غيره بأنه كان مساح احذية جواب
مشهور متعارف يفتخرون به ويعلمونه صبيانهم في مدارسهم . وأما كيفية انفاق المال فهم
معرفتها الرجال والسيدات ولا سيما السيدات . ايها الشبان في زمن شبابكم قبل ان تصيروا
أصحاب بيوت احترزوا كل الاحتراز كيف تنفقون ما تكسبونه من المال فانكم اذا كنتم
تنفقون اكثر مما تكسبون مسرعون الى الخراب والعار وكذلك اذا كنتم تنفقون ما
تكتسبون لا تبقون منه فضلة تذخرونها . ايها السيدات بعد ان تصرن ربات بيوت احرصن
كيف تنفقن مداخلكن . على كيفية انفاق مداخلكن . يتوقف فضلكن وظهوركن
وظهور رجالكن في مظاهر الكرامة والاعتبار . على كيفية الانفاق يتوقف أيضاً مستقبل
اولادكن فاما ان يشبوا للنباهة وحسن الذكر او يعيشوا او يموتوا في الحمول والفقر

في كيفية انفاق المال تراعى امور كثيرة يستحيل علي ان اذكر الآن جميعها فأذنوا
لي اذن ان اذكر منها امرين احدهما ينبغي تجنبه والاخر ينبغي الاخذ به . تجنبوا اقول
ذلك للرجال عموماً وللسيدات خصوصاً تجنبوا البذخ . ومعنى البذخ ايها السيدات ان
تسكلفن محاكاة من هن اغنى منكن في ما هو من خصائص طبقتهن فطمحن الى مجاراتهن
في البيوت الواسعة والرياش الفاخر واستخدام الخدم والتأنق في اللباس والزينة واقامة
الولائم والحفلات . السيدة الفاضلة السيدة الكريمة التي هي اهل لكل اعتبار وكرامة هي

السيدة التي تعرف درجة غناها وتدبر بيتها بما تقتضيه الحكمة فتصرف النظر مطلقاً في جميع نفقاتها عن ان تشبه بجاراتها اللواتي هن اغنى منها . السيدة الفاضلة تصرف النظر عن التشبه والبذخ لانها تعلم ان هذا التشبه ياحق بها الاستهزاء والسخرية اولاً ويوصلها الى الحاجة والفقر ثانياً

لا يستطيع ايها السيدات ان اضع لكن قواعد للانفاق انهى في بعضها وأمر في بعضها ولا هو من خصائصي ايضاً بل كل سيدة ينبغي ان تكون هي الآمرة الناهية في بيتها لنفسها وفقاً لحكمتها . لكن مع ذلك لا يضر السيدة الفاضلة الحكيمة ان تعلق في بيتها آية تذكرها دائماً ان تتجنب البذخ او التشبه الفارغ الذي يوصل الى الخراب اخيراً . هذا ما يجب على كل سيدة ان تتجنبه . وأما ما يجب عليها ان تمسك به وتعمل بموجبه فهو «حسن التدبير» وأريد بحسن التدبير ان تقدر السيدة بحسب حكمتها المبالغ الواجب ان تتفقه والذي في طاقتها ان تتفقه من مدخولها . وعلى ما يقوله الحكماء الاقتصاديون لا ينبغي ان يزيد هذا المبلغ عن ثلاثة ارباع مدخولها في السنة او اربعة اخماسه في الاكثر . ثم تنظر في الوجوه التي ينفق فيها هذا المبلغ من الطعام والشراب واللباس وأجرة البيت وبقية الثريات الاخر المتعددة التي تدخل في حساب نفقاتها فتصرف الى كل من هذه الوجوه من ذلك المبلغ الذي قلناه القدر اللائق به تجري في ذلك على نسبة معينة ثابتة لا تتجاوزها . فانها ان فعلت ذلك شملت السكنى بيتها وحل فيه السلام والمسرة والهناء . ثم لا يلبث ان يجتمع عندها من فضلات مدخولها الذي كانت تذخره من سنة الى اخرى شيء يكون قوة لها وليبتها تستخدمه في كل مقصد شريف ومرضي لله والناس

ايها السادة والسيدات اردت بخطابي على طوله وعرضه ان اقول ما يقوله كل معلم من معلمي هذه الامة وكل معلمة من معلماتها لتلاميذها . بل اردت ايها السيدات اثبات الشهادة ان اقول لكن ما كان يقوله لكن معلماتكن الفاضلات صراحة او ضمناً بصريح القول او بحسن العمل والقدوة كل هذه السنين التي صرفنها تحت مناظرتن ومآل هذا القول وخلاصته هو هذا . المال قوة . المال نعمة من أعظم نعم الله بعد الصحة فيا كن أن تحقريه بانفاقه جزافاً او ان تعيرين منه . اجتهدن في تحصيله كما مكنتكن الفرصة ومقتضيات الزمان والمكان من ذلك وابذلن دائماً جهدكن ورويتكن في ان توفرن بكل واسطة شريفة . لكن بقدر ما نوصيكن ان تحصلي المال وتوفرن المال نوصيكن ايضاً ان لا تعبدن المال لان عابد المال يخسر الدنيا والاخرة والسلام

اللغة العربية

ما اخذت وما اعطت

خطبة تليت في السكينة الاميركية ببيروت

ايها السادة لا بد لي اولاً من بيان ماهي اللغة العربية او ماهي خصائصها ومقوماتها قبل ان استطيع ايّين على وجه مفهوم مقبول ما اخذت عن غيرها من اللغات وما اعطته لمن اللغة العربية نظير كل لغة من اللغات الحية المرتقية لا بد فيها من امور جوهرية لا يجوز اهلها ولا الاخلال بها . وهذه الامور الجوهرية تبقى من جيل الى جيل لا تتغير في شيء عما كانت عليه انما تنمو وتتفرع تبعاً لناموس الارتقاء بما يستحيل معه لغير العارف المحقق ان قد حصل فيها انقلاب وتغيير والحقيقة غير ذلك . فان اهمت هذه الامور الجوهرية او أخيل بها وقفت اللغة عن النمو وراجت الى الوراء وانحطت عما كانت عليه . ويتزايد التراجع والانحطاط على نسبة الاخلال بهذه الجوهريات او اهمالها والنسب عنها . وفيها ايضاً امور دعونا نسميها عرضية قد تكون اليوم ولا تكون غداً ووجودها اليوم ان وجدت لا بشين في عروبة اللغة ولا يزين كما ان سقوطها غداً لا يضر بكيانها ولا ينقص من حيويتها فهي منها اشبه شيء بالورق او بعض الغصون والزوائد من الشجرة الكبيرة . فكما ان بعض اوراق الشجرة اذا تساقطت او بعض اغصانها اذا تشذبت او تهذبت لا يضر بحياة الشجرة ولا بسلامتها كذلك تلك الامور العرضية اذا تساقطت من اللغة اليوم او قطعت منها وطرح غداً لا يضر ذلك بكيانها ولا تضعف معه حيويتها وبعبارة اخرى لا يتراجع نموها ولا تتشاحب اظلالها ولا يمازج طعم بلاغتها وفصاحتها

لنسأل الآن ما هي مقومات اللغة وبعبارة اخرى ماهي الامور الجوهرية فيها او الصفات الذاتية التي لا يستغنى عنها بل تبقى على مر الزمان فتشعب وتكيف بما يناسب حياة اللغة وارتقاءها . واذا فقدت او اهملت ماتت اللغة او توقفت عن النمو والتشعب ثم هي في الوقت نفسه لا يصح استعازتها من لغة اخرى ولا يمكن ايضاً ان تستعار وتبقى اللغة هي هي

ايها السادة—ان مقومات اللغة او الامور الجوهرية فيها هي شيء آخر غير الفاظها

المفردة — لا فرق بين ان تكون تلك الالفاظ اسماء او افعالا او حروفاً ودليله ان هذه الالفاظ المفردة يمكن ان تستعمل اليوم وتهمل غداً كما انها يمكن ان تترادف وتتكثر حتى تستثقل وتهجر . انظروا الى كثير مما عندنا في كتب اللغة من الاسماء والافعال مما هُجِرَ او استكره وأهمل فانها تعدُّ بالثلاث . وكثير من تلك الالفاظ ليس هو في الاصل من كلمات اللغة العربية انما هو من الفارسية او الرومية او الهندية استعيرت فاستعملت عند الحاجة وأهملت او أميتت عند عدمها — وتعلمون ان مقومات الشيء أو الامور الجوهرية فيه هي مما لا يفارقه وبعبارة اخرى هي مما لا يستغنى عنه حيناً ويحتاج اليه حيناً آخر . نعم ان كثيراً من اعراض الشيء قد تستمر مصاحباً له ولا يستغنى عنها بالفعل او في الخارج فهي من هذا القبيل كالمقومات له او كالصفات الجوهرية (اي الذاتية) منه . والفارق بينهما حينئذ أنه يمكن فرض الاستغناء عن الاعراض ويمكن أيضاً تصور الاستغناء عنها وتصور مفارقتها لمصحوباتها ولا يمكن فرض الاستغناء عن المقومات ولا تصور الاستغناء عنها او مفارقتها لما تصحبه

استدركت ما استدركت لثلاثا يعترض علي ان كثيراً من الاسماء كالسما والارض والبر والبحر والجبل والوادي والشجر والحجر كانت ولا تزال في لغتنا العربية لم تهمل ولا يحال أن تهمل وما زالت في استعمال كل يوم وفي استعمال كل جيل من الاجيال التي غبرت ونعرفها فكأنما هي مما لا يجوز اهمالها ولا يتصور الاستغناء عنها ومع ذلك هي الفاظ مفردة فكيف تكون من الامور العرضية في اللغة ؟ قات وأقول انها من حيث هي اسماء مفردة ليست من مقومات اللغة اصلاً ويمكن الاستغناء عنها وانما استمرت في اللغة وفي استعمال كل يوم وكل جيل من أجيال اهل هذه اللغة لان مسمياتها مستمرة ومشاهدتها أي مشاهدة مسمياتها كذلك . وهذا ما يوهنا انه لا يمكن الاستغناء عنها

لا بد لي هنا من استفتاء المراد او الاطالة اذا شتمت هذه التسمية وإلا ظنَّ بي اني أريد ما لا اريده او اني أكتب ما لا أفهمه . أيها السادة . الفرق كبير بين قولنا اسم وهذا الاسم وفعل وهذا الفعل وحرف وهذا الحرف — فان الاسماء والافعال والحروف من حيث هي أسماء وأفعال وحروف ضرورية في اللغة العربية وفي كل لغة أيضاً وهي من مقومات اللغة أو من الامور الجوهرية فيها ولا يمكن الاستغناء عنها حتى ولا تصور الاستغناء ولكن هذا الاسم وهذا الفعل وهذا الحرف يمكن تصور الاستغناء عنها وكثيراً ما يصح الاستغناء عنها أيضاً

ظهر اذن لكم الفرق بين الضروري في اللغة وغير الضروري ورأيتم أيضاً الفرق

بين استغناء واستغناء وعليه فوجود الاسماء والافعال والحروف، ضروري في كل اللغات المرتقية ولا يصح الاستغناء عنه (أي عن هذا الوجود) بوجه من الوجوه وأما كل لفظة من هذه الافواع الثلاثة لذاتها فيمكن الاستغناء عنها أحياناً

بقي لي شيء آخر أقوله وهو ان زيادة لفظة او بضعة الفاظ من هذه الانواع الثلاثة على اللغة قد يكون فيها أحياناً غنى للغة لا يُقدَّرُ قدره وقد تكون الزيادة لغواً لا فائدة منها. والمحققون من اهل الذوق يعرفون الفرق بين زيادة وزيادة فيزيدون اللفظة التي تزيد في غنى اللغة واتساعها ويتجنبون ما زيادته لغو لا فائدة منها — مثاله ان زيادة مترادف من الاسماء الموصوفة او من الصفات كزيادة جوشن مثلاً بمعنى صدر او درع وسميدع بمعنى شجاع اوسيف وسمسمان وسمسماني بمعنى خفيف لطيف فانها زيادة قلما ننتفع بها لقلة ما نحتاج اليها ولذلك فاستعمالها في كتابتنا او استعمالها لفظاً مثلها او بمعناها من لغة أجنبية لنستعملها في معتاد استعمالنا هو في حكم اللغو والمكروه ويجب تجنبه بخلاف زيادة أو ادخال مثل الالفاظ الآتية وهي عِلَوَّاهُ — وما شاء الله — ويلة — وكان — وهاي هاي — وهاي ليصه — وبراقو فان في زيادة مثل هذه الالفاظ في أحاديثنا وكتاباتنا الادبية محلاً للفكرة والنظر على ما أظن وذلك لانها لا تغير من جوهر اللغة وفي الوقت نفسه الحاجة ماسة اليها بدليل كثرة استعمالها وجريانها على لسان العامة منا والخاصة في الشام ومصر والعراق حتى وفي الحجاز ونجد على ما أظن

ذهب بي الاستطراد الى اكثر مما أردته فخال دودي، ما أريد الى بيانهِ وتمكينهِ في الذهن وهو أن الالفاظ كل لفظة بعينها سواء كانت اسماً او فعلاً او حرفاً ليست من الامور الجوهرية في اللغة وبعبارة اخرى ليست في عمود اللغة ولا في مقوماتها فتفسد زيادتها اللغة اذا زيدت عليها او يهدم بنيانها اذا اهملت أو اطرحت منها

ومثل الالفاظ المفردة في انه ليس من مقومات اللغة ولا من الامور الجوهرية فيها فتفسيرات الاعراب في اواخر الكلم العربية ولا سيما التي ورد فيها مذاهب مختلفة . ودليلنا انوقف فانه جائز كثير الاستعمال شائع قديماً وحديثاً لم ينقل عن نحووي قط انه منع جوازه. والوقف هو تعطيل الاعراب وازالة حكمه بتاتاً ويسمحيل او اقله بمنع ان تعطل مقومات الشيء او يزول حكمه لان ما يتعطل او يجوز أن يتعطل وتزول أحكامه عن شيء لا يجوز أصلاً أن يكون من مقومات ذلك الشيء او من جوهرياته

الاعراب أيها السادة من اعراض اللغة العربية واكلت ما نقول فيه انه بمنزلة العرض العام لا من الصفات الذاتية ولا من مزاياها الخاصة بدليل وجوازه في غيرها

من اللغات العربية كاللغة اليونانية واللاتينية . وهو في كثير من المواقف زينة في اللغة لا غير الا انه قد يكون أحياناً مساعداً على الفهم ومنع الالتباس وحكمه حينئذ حكم القرائن المختلفة التي تساعد على سهولة الفهم وصرف المعنى الى ما يراد . ولهذا لا يجوز الاستخفاف به دائماً لكن المغالاة به حيث لا تصح المغالاة ضرب من أنزال الشيء فوق منزلته وحسبان الخادم في كثير من المواضع خدوماً وسيداً . وبالاجمال اقول ان المغالاة فيه التي هي في غير موضعها ضرب من السخف المضر . واضر ما تكون اذا كانت احكامه خارجة عن القواعد الكمية المساعدة على فهم المعنى المراد وداخلة في ما تتمق به بعض اصحاب المذاهب الذين خلطوا فأدخلوا كثيراً من احكام علوم الكلام والفلسفة والخط في احكام النحو والاعراب مع بعد ما بينهما

ومن قبيل الالفاظ المفردة واعراب واخر الكلم الهيئات التركيبية فانها اي الهيئات التي تتعلق بها فصاحة المركبات وبلاغتها حكمها حكم الالفاظ المفردة بمعنى انها من حيث هي تراكب فصيحة او بليغة لا بد من وجودها في اللغة . ولكن هذه الهيئة او هذا التركيب بهذه الالفاظ قد يسقط من اللغة او يزداد عليها مثله فلا يهدم سقوطه اركانها ولا تفسد بلاغتها زيادته او زيادة مثله عليها

وصلت الى نقطة لا اراني استطيع تركها من غير ان ابسط الكلام فيها شيئاً وهي :- يزعم كثيرون من اهل العربية ان الهيئات التركيبية فيها محصورة وهذا وان لم يقولوه صراحة يقولونه ضمناً . واذا كانت الهيئات التركيبية محصورة اذن لا يجوز الخروج عنها لان الخروج عنها خروج عن الفصاحة والبلاغة . ولما كانت الفصاحة والبلاغة من الكلام بمنزلة الكرم والشجاعة والعفة من الصفات الفاضلة كان التركيب الذي يعرى من هذه كالشخص الذي يعرى من تلك . وفي هذا القول كثير من الحق والصواب وكثير من الباطل والخطاء

اما الحق والصواب ففي ان الهيئات التركيبية اذا خلت من الفصاحة والبلاغة خرجت عن ان تكون اجزاء لغة راقية ومسخت اللغة عن صورتها العاقلة الادبية الى ما هو دون ذلك وأما الباطل والخطاء ففي امور كثيرة تتوهم . منها

(اولاً) ان الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة محصورة وانها محصورة في التراكيب التي وصلت اليها عن العرب في نحو من مئتي سنة على الاكثر . فان هذا مما لا يقول به صاحب روية . وهو وان كان ممكناً ان يكون عقلاً فلا يمكن ان يكون وجوداً لان البلاغة تقتضي المطابقة لمقتضى الحال ومقتضى الحال يختلف باختلاف الزمان والمكان باختلاف

المخاطب والمخاطب واختلاف احوالهما . واختلاف الزمان والمكان مضافاً اليه اختلاف المتكلمين واختلاف افكارهم ومشاربهم وقوى عقولهم يتولد عنه من الصور ما لا يقع تحت حصر وجودي . ثم على فرض انه يستطيع حصر الهيئات التركيبية الفصيحة والبلغة بعدد معلوم فهذا العدد يتجاوز المئات وربما تجاوز العدد المركب منها . وهذا العدد من هذه الصور والهيئات يستحيل على العقل الانساني الاحاطة بتصوره في زمان من ازمته المحدودة . والحصر الفعلي الذي يترتب عليه فائدة لا يكون الا اذا احاط الفكر بالمتصور وتخيله جميعه دفعة واحدة او ما هو من قبيل الدفعة الواحدة

(ثانياً) ان تكون الهيئات التركيبية المعلومة علماً اجمالياً عند ادباء العربية مما اودعته اسفار الادب ودفاتره كلها فصيحة بلغة فان ذلك مما يصعب التسليم به . وأكثر من ذلك ان تكون الهيئات التركيبية المنقولة في كلام من كانوا قبل الاسلام افصح وأبلغ من هذه الهيئات المنقولة عن أمثالهم في صدر الاسلام وبدء الى عصرنا الحاضر . فان هذا الخطاء شائع متداول وأكثر ادبائنا والمشتغلين بعلوم البلاغة منا قديماً وحديثاً كأنما هم يذهبون اليه فيرون في الهيئات التركيبية والمركبات المنقولة عن اصحاب المعلقات وغيرهم ممن سبقهم او عاصروهم — فصاحة وبلاغة لا يرون مثلها لمن جاء بعدهم من مولدي الاسلام ومولدي مولديهم . بل كثيرون على ما يحال يذهبون الى ان جميع ما نقل عن الجاهلية فصيح بليغ بلا استثناء وهذا وهم فاضح ومن الاسف انه شائع مقبول عند الكثيرين من غير تجريخ ويكاد الاقلون ممن يرتابون بصحة هذا الزعم لا يجسرون ان يرفعوا اصواتهم في نفيه او الاعتراض عليه انما هم يتهايمون به همساً فيما بينهم

(ثالثاً) من الخطاء ايضاً ذهاب كثيرين الى ان الفصاحة والبلاغة درجة واحدة وهذه الدرجة يرونها في هذا النوع من الكلام الذي يهيج من حاسة الاستحسان وما ناسبها او من حاسة الاستهجان وما ناسبها . فان رأوا مبالغة قد تخرج عن حد المقبول أو رأوا تشبيهاً أو استعارة في مدح ممدوح أو ذم مذموم أو في نخر أو في نسيب أو في حكمة وجاء شيء منهما في شيء من الغرابة المقبولة اكبروا ذلك وظنوا ان هذا الذي اكبروه انما جاء من قبيل بلاغة الهيئة التركيبية . وقد لا يكون هناك فصاحة ولا بلاغة في التركيب تدعو الى مثل ذلك الاستحسان بل الاستحسان انما كان لتلك المبالغة او الاستعارة او لذلك التشبيه وما صحب المبالغة من الغرابة او صحب الاستعارة والتشبيه من الغرابة والمطابقة . والمحققون على ان بلاغة التركيب قد تكون ولا يكون هناك استعارة ولا تشبيه وقد تكون ويكونان معاً ولكنهما متمايزان في نفسيهما كل التمايز وان خفي

ذلك على كثير من البلغاء بالفطرة او المتبالمين . وهذا الخلط بين حسن الاستعارة او التشبيه وبين بلاغة المركب والتركيب كان فاشياً في ايام الامام العلامة الجرجاني صاحب كتاب اسرار البلاغة وكان يؤلمه أيضاً

والخلاصة ان ما يتشبع به من ان هذه التراكيب والهيئات التي جاءت في كلام الجاهلية هي التي بها قامت ، قوامات اللغة العربية وتفوقت على غيرها من اخواتها السمايات وعلى غيرهن من اللغات الاخرى هو مجرد تشييع يقول به أقوام قلوا او كثروا ولكنه عارٍ من التحقيق . فالبلاغة غير منحصرة في جيل دون جيل ولا هي أيضاً خاصة بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان وان اختلفت وتباينت باختلاف الزمان والمكان . وعليه نقول ان امرأ القيس كان بلاغاً في عصره وكذلك كان جرير والفرزدق والاخلط في عصرهم وكذلك كان ابو نواس وأبو تمام والبحري كل في عصره شاعر بليغ الا ان بلاغة جرير والفرزدق قد تكون في نوعها غير بلاغة ابي تمام والبحري كما لا يبعد أن تكون بلاغة هذين غير بلاغة المتنبي وغير بلاغة ابي فراس الحمداني — تكون غيرها ولا تكون اعلى درجة منها — وهكذا يقال في بلاغة امرئ القيس وغيره . من اصحاب المعلقات انها غير بلاغة ابي نواس او ابي الطيب المتنبي ولكنها وان كانت غيرها قد لا تكون اسمى منها . ولا دخل في ذلك لتقدم زمان امرئ القيس ولا لتأخر زمان المتنبي بل بلاغة المتنبي قد تكون اعلى وأوسع من بلاغة امرئ القيس (وهي كذلك) على نسبة ما كانت مدارك هذا اعلى من مدارك ذاك — وما قاته في المتنبي وامرئ القيس اقول مثله في ابي نواس والبحري فانها وان تأخرنا عن جرير والاخلط في الزمان فقد تقدمهما في البلاغة وان كان الاولان اقرب الى مناحي البداوة والثانيان الى مناحي الحضارة

لكن يقول قوم ان امرئ القيس يستشهد بكلامه في اللغة والاعراب ولا يستشهد بكلام المتنبي وكذلك يستشهد بكلام الفرزدق والاخلط ولا يستشهد بكلام ابي تمام والبحري . ويستتجون من ذلك ان امرأ القيس ابلغ من المتنبي والفرزدق والاخلط ابلغ من ابي تمام والبحري . والاستطراد الى الرد على فساد هذه المزاعم وأشباهاها يخرجني الى ما لا يحتمله المقام فأجتزئ بسرد القصة التالية

حكى ان ابن الانباري دخل على قوم فأنشده بعضهم قصيدة لابي تمام ونسبها المنشد الى أحد شعراء الجاهلية فطرب لها ابن الانباري وأمر كاتبه ان يودعها في دفاتره فلما أتى الكاتب على آخرها قيل له هي لابي تمام قال فقال ابن الانباري — « من أجل هذا رأيت أثر الركافة عليها — خرّق يا غلام خرّق خرّق » . وكنت أحب ان انقل القصة بحروفها

كما قرأتها ولكنني أنسيت الكتاب الذي قرأتها فيه وبقي في ذهني ان الكتاب من الكتب التي يعتمد على صحة روايتها (١)

ولا اقول ان هذه الفكرة عمت بدون استثناء ولكن اقول ان الكثيرين أخذوا بها في الاجيال التي مرت قبانا فغلب رأيهم على رأي المحققين من العقلاء في كل جيل الذين كانوا يقولون ان اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه «المزهر جزء اول وجه ٣٠ طبعة بولاق» ترون أيها السادة اني لا أحسب الالفاظ المفردة من حيث هي الفاظ مفردة ولا الحركات الاعرابية ولا كثيراً من المذاهب والتعليمات الصرفية والنحوية من مقومات اللغة العربية ولا من القفيّات التي امتازت بها فكانت سبباً لتفوّقها على كثير غيرها من اللغات الراقية ولا أذهب أيضاً الى ان بلاغة الجاهلية جوهرية في اللغة العربية حتى اذا خرج الكتاب عن محاذاتها والصوغ على قوالها الى ما ندعوهم اليه أذواقهم ونخيلاتهم فسدت اللغة العربية وانحطت رتبها العالية بين اللغات المرتقية وانحط أهلها أيضاً تبعاً لانحطاطها . بل اعتقد ان بقاءنا على تحدي بلاغة الجاهلية وتوخّيها في كتاباتنا لا يجوز لنا ولا يكون بلاغة أيضاً الا اذا كانت عقولنا ومدركاتنا وبالتالي عاداتنا ومألفاتنا الاجتماعية الحسية والادبية شبيهة تمام المشابهة بما كانت عليه عقول الجاهلية ومدركاتنا وعاداتنا وسائر أحوالها الاجتماعية . لان البلاغة عند التحقيق تقوم بانطباق الصورة الكلامية الخارجية على الصورة الداخلية الذهنية . ولا شك ان الصورة الذهنية لقوم أو لجيل من الاجيال في زمانين متباعين لا بد أن يقع فيها تغير يقل او يكثر على نسبة ما يقل الاختلاف او يكثر بين ظواهر تمدن الجيل في ذينك الزمانين . فان بقي التمدن واحداً (اي جميع المظاهر الاجتماعية الخارجية وما دعا اليها من الاستعداد العقلي والديني والادبي) بقيت الصورة الذهنية لاهل الجيل في الزمانين واحدة وبالضرورة تبقى او بصح ان تبقى الهياكل التركيبية البليغة واحدة عندها والا فلا . اذن فالذين يريدوننا على تحدي بلاغة الجاهلية او توخّيها لانخرج عنها في شيء كأنما هم يقولون لنا ان افكاركم ونخيلاتكم ومدركاتكم ومعلوماتكم لا بل ومحيطاتكم الاجتماعية هي وافكار الجاهلية ونخيلاتهم الخ شيء واحد . ان كان ينسبكم من يسلم بصحة هذا فليتحجّ وليتوخّ بلاغة امرئ القيس والحارث بن حلزة والاعشى وغيرهم وليحذّو حذوهم

اذا لم تكن الالفاظ المفردة ولا الجمل المفردة ولا علامات الاعراب ولا هذه الهيئة

(١) ملاحظة اظن تلك الحادثة عن ابن الاعرابي لا ابن الانباري

التركيبية او تلك بعينها من مقومات اللغة العربية ولا من صفاتها الجوهرية الثابتة والتي ينبغي أن تثبت وترقى وتنكيف مع الايام فما هو اذن ذلك الشيء الذي تميزت به العربية وجعلها تتفوق على غيرها من اللغات ولا يزال باقياً بل وينبغي ان يبقى لا يتحلل جديته مع الايام. والجواب على ما ارى. هو الاشتقاق والقياس. الاشتقاق على ما ينبغي ان يفهم منه والقياس على ما ينبغي ان يفهم منه في كل انواعه وفي كل نوع من انواع الكلام العربية والدخيلة المعربة ايضاً ان كانت

ايها السادة ان الاشتقاق ضروري في كل لغة لا تستقل لغة عن غيرها الا به ولا تترقى الا به فان استقلت وترقى استقلت اللغة عن غيرها وترقت وان تميز الاشتقاق وانفردت في كل لغة من لغتين تميزت اللغتان وانفردت كل منهما عن غيرها والا فان تشابه واشترك تشابهتا واشتركتا. مثاله اللغة التركية فانها على كثرة الالفاظ المفردة المستعارة من العربية وعلى كثرة الجمل التامة المأخوذة كما هي منها اي من العربية لا تزال لغة مستقلة عن العربية متميزة عنها تمام التمايز. ان في التركية مئات وألوفاً من الالفاظ العربية كما ان فيها مئات وألوفاً من العبارات والجمل التامة المستعارة رأساً من تلك اللغة يعلم ذلك من يعلمه ومع ذلك هي في غاية البعد والتمايز عن اللغة العربية بخلاف العبرانية فانها مع بعدتها بحسب الظاهر عن العربية حتى يخيل للناس ان التركية اقرب منها اليها بمرات فمع ذلك هي والعربية اختان بينهما من المشابهة والاشتراك في الخصائص والصفات الشيء الكثير كما يعلمه علماء اللغات المحققين الذين يؤخذ بقولهم وكل ذلك لاشتراك الاشتقاق وقرب شبهه في الواحدة بما هو عليه في الاخرى

الاشتقاق في كل لغة هو الامر الجوهري فيها. هو عماد اللغة وأقوم مقوم من مقوماتها. وعبارة اخرى هو حياتها وعليه يتوقف ارتقاؤها او انحطاطها. تقدمها او تأخرها. واذا اردنا التمثيل قلنا هو من اللغة كالحويان او الناطق في تحديد الانسان بل ربما هو اكثر من ذلك وقد لا يخطيء من يقول ان اللغة هي الاشتقاق. الفاظ اللغة تموت وتحيا اي يهمل استعمال بعضها وتموت ويستجد استعمال اخرى فتجيا ولا يمضي زمان يذكر إلا ويموت كثير من الالفاظ في كل لغة ومن بينها العربية ويحيا كثير ايضاً. واللغات النامية المرتقية هي ما كانت. واليد الفاظها اكثر من وفياتها. والعامل المتأمل يعلم ان كثرة. واليد الالفاظ وقلتها في اللغة يتوقف على الاشتقاق فان كان الاشتقاق مرتقياً نشيطاً كثرت مواليد وعاشت وإلا قلت وماتت. وعليه فأرتق اللغات وأكثرها حياة هي ما كان الاشتقاق فيها أتم منه في ما سواها داخلاً في كل فرع من فروعها

أبها السادة الكرام اذا سلمنا ان انمي اللغات وأرقاها هي اكثرها زيادة عدد مواليد في الفاظها وعباراتها واذا سلمنا ايضاً ولا بد للعامل المتأمل من التسليم ان اللغة الثابتة على ما كانت عليه اما لغة ميتة مخنطة كالموميا المصرية واللغة العبرانية القديمة او هي لغة شاخت فتوقفت عن النمو وأخذت تتراجع عما كانت عليه . اذا سلمنا بما مرّ اذن فالذين يحاولون ابقاء لغتنا العربية على ما كانت عليه في الفاظها وعباراتها وهيئات تراكيبها لا بسمحون بزيادتها بوجه من الوجوه لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق هؤلاء ينادون علناً ان اللغة العربية قد ماتت او شاخت وان انكروا ذلك وسلموا كما هو الواقع ان العربية لغة حية نامية فعدم سماحهم بزيادة مفرداتها لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق تصریح واضح منهم انهم يريدون ويسعون بكل مكنتهم الى اماتها ولا نعلم اذلك من محبتهم لهذه اللغة الشريفة أم من بغضهم لها والمرجح عندي ان ذلك من شدة حبهم لها ولكنه الحب مع الجهل وان قليل الحب بالعقل صالح وان كثير الحب بالجهل فاسد

دعونا نوجه خواطرنا الى مشهد آخر من مشاهد محبي العربية . من جملة هؤلاء المحبين من يعترفون بالسننهم انهم لا يرون بأساً بزيادة مفردات العربية بالاستعارة تارة وبالاشتقاق اخرى فيأذنون بزيادة تلغراف وأوتوموبيل مثلاً وبزيادة أبرق ومغنط ولكنهم لا يتسامحون لاحد ان يقول كما قال الحريري — واستغنت بقاطبة الكتاب فكل منهم قطب وتاب . ويجيزون له ان يقول استغنت بالكتاب قاطبة اکتع ابقع ابصع لا يرون بأساً في زيادة عدد الکتعان والبتعان والبصعان لان كل ذلك اهون عليهم من الخروج بقاطبة عن النصب حالا الى الجر بالاضافة ويحتجون بقولهم ان ذلك لم يسمع او لم يرد عن العرب . ومثل هؤلاء فئة يقولون — هذه عبارة افريقية — وهذا تركيب خارج عن مناحي التراكيب الجاهلية البليغة — شئت عين كاتبه ولسان قائله لانه يريد ان يفسد علينا فصاحة العربية وبلاغتها — يقولون ذلك ولو كانت العبارة اوضح من فساق الصباح على المعنى المستعملة فيه . ومثل هؤلاء المار ذكرهم يتبعجون اذا قالوا مثلاً — وما زال يقتل منه في الذروة والغارب حتى ادارهُ الى ما يريد — وبصرخون بانويل والثبور اذا رأوا من يقول مثلاً — وما زال يأخذه ويحيي به حتى ادارهُ الى ما يريد — او ما زال يداوره حتى ادارهُ الى ما يريد . ولماذا ذلك ؟ لان جملة — يقتل منه في الذروة والغارب — وردت عن العرب ولم ترد جملة — يأخذه ويحيي به — ولا جملة — ويداوره — مع ان جملة يأخذه ويحيي به من باب السكناية التي لا اوضح منها في محيطنا الآن على المعنى المراد وهي من باب قولهم — يقدم رجلاً ويؤخر اخرى — وأما يداوره

الافل ومن تلك الصور وزن فاعِل وفَعِّل وفعلان وفعل وفعل وفعل ومفعال ومفعالة ومفعَّال وفاعول وفاعولة ويفعل ويفعلولة ويفعل ويفعل وفعلل وهلم جرًّا وهذه الاوزان هي التي يسمونها بالسماعية فيكون مصدر هذا الفعل على وزن او وزنين او اكثر من هذه الاوزان ومصدر ذلك على وزن او وزنين آخرين وهلم جرًّا . وهكذا الصفة فانها تكون من هذا الفعل او هذا الفريق من الافعال على وزن فاعل او فَعَّل او فَعْلان وقد يكون لها صورتان او ثلاث صور او اربع وقد تبلغ من بعض الافعال الى الصور العشر وفي ذلك ما فيه من الغنى في المترادفات . وهناك أيضاً صوراً اخرى من باب السماعي نازمان والمكان واسم الآلة والمصدر الميمي لا احتاج ان اطيل عليكم بذكرها

بقيت الصور القياسية للمزيدات فان لكل مزيد من مزيدات الافعال الرباعية والחסاسية والسادسية صورة معينة لكل من المصدر على انواعه والصفة على انواعها واسم المكان والزمان . وقد يكون المصدر صورتان قياسيتان كما هو معروف مشهور في وزني فَعَّل وفاعل — من منا لا يعرف ان الفعل استعان مثلاً يأتي منه الاستعانة والمستعان والمستعين والمستعان به مصدراً ومؤكداً وميمياً واسم فاعل واسم مفعول على الترتيب ومن قبيل الاشتقاق في الاسم الابواب الآتية وهي باب المثنى والجمع المكسر والسالم وباب النسبة والتصغير . والبابان الاخيران يلحقان بالصفة فيزيدان من غنى اللغة المعنوي وأما باب الجمع المكسر والسالم فيزيدان في مترادفات اللغة زيادة لا يعلم قيمتها المتعلم ويعلمها الشاعر او الناثر الساجع

نعم المتعلم يتبرم من ضوابط جمع التكسير التي وضعها الصرفيون لكثرتها وصعوبة حفظها غيباً ولكن الشاعر الذي يعلم ان جمع ظلّ ظلال وظلال وظلول وظلال يستفيد من هذه المعرفة وأيما فائدة فانه يمكنه ان يستخدم ظلال في قافية كقافية

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زُمُوا لا الجحالا
وظلول في قافية مثل قافية

في الحدان عزم الخليط رحىلا مطر تزيد به الحدود نحولا
وظلال في مثل قافية

شرف ينطح النجوم بروقيه وعزّ يقلقل الاجيالا
وظلال في مثل

بانث سعاد في العيين ملول من حبا وصحيح الجسم مخبول

وقس على ظلال وأطلال وظلول بحار وأبحار وبحور فان صور الجمع المتعددة والجموع واحد تنزل منزلة المترادفات بل المترادفات قلما تتساوى في المعنى ولذلك فقلما ينهيا للشاعر او للنائر ان يضع مترادفاً موضع صاحبه ولا يختل المعنى شيئاً بخلاف صور الجمع المتعددة فان كل صورة منها يصح ان تنوب مناب صاحبها وتوضع بدلاً منها من غير مخافة ان يختل المعنى المراد او يختلف عما قصد له بمقدار شعرة او ذرة

واذا علمتم هذا ان تعدد صور الجمع والجموع واحد ليس هو ثأليل في غصن الجموع العربية تشوّه كما يزعم بعض المتفهمين المقلدين من منظره وتخشّن مسه وتوّج قوامه . بل هي غصينات الارز الجميل تزيد الغصن الاصلي جمالاً ورواءً وتجمل ظلمة النضير الرائع ظايلاً وارفاً

الاشتقاق في الافعال

في اللغة العربية اربع عشرة صورة وهي أَفْعَلَ وفَعَّلَ وفَاعَلَ وتَفَعَّلَ وتفاعل وانْفَعَلَ وانْفَعَلَ وافْعَلَ وافْعَلَ واسْتَفْعَلَ وافْعَوْعَلَ وفَعَّلَ وتَفَعَّلَ وافْعَلَ وكلُّ منها تأتي لمدة معان . واشباع الكلام فيها لا يكفيه مجلد ضخّم فأني أن تخيّل تخيلاً أنّي استوعبت الكلام فيه بما يجلي لاذهانكم أهمية هذا الاشتقاق في العربية وأنها من هذا القبيل تفوق كل لغة من لغات الغربيين والشرقيين لا أستثني لغة اصلا ومع ذلك يزعم بعضهم انها لغة ميتة او انها شاخت وقاربت الهلاك . كان البعض من متحمسة قتيان الاتراك يزعمون هذا الزعم ولا نلومهم لانهم يعرفون آداب اللغة الفرنسية وآداب اللغة الفرنسية اكثر مما يعرفون آداب لغتهم ولا نقول آداب العربية ومحسهم الشديد كان للحالة الجديدة التي زعموا معها أن يوحّدوا اللغة في كل الولايات العثمانية فيصبح العثمانيون كلهم يتكلمون لغة واحدة هي اللغة التركية كما يتكلم الفرنسيون والفرنساوية والاميركان سكان الولايات المتحدة الانكليزية . ذلك صوّر لهم ما صوّر مما زعموا معه هذا الزعم الفاسد او تزاعموه ولا نلومهم كما نلوم البعض او السكل من ابناء العربية ومحبيها بمن يسمعون ان لم يكونوا يعرفون ذلك عن علم ان لغتهم الشريفة اوسع اللغات اشتقاقاً وأكملها في ذلك حتى قال فيها بعض علماء الاميركان الاعلام كما المعنا سابقاً ونحب ان نكرره الآن انها اللغة الخالدة او اللغة التي هي احق اللغات بالحياة والبقاء . ومع معرفتهم هذه المعرفة يريدون أن يميّتوا هذه اللغة الشريفة بسدّهم باب الاشتقاق وحظرهم استعماله اللهم الا فيما هو تافه او عديم الجدوى ويؤدي الى الخطا . نلوم هؤلاء لانهم بمعظمهم ما اشتق ويدكرونه

ويحقرن الاشتقاق وينسونه يعتبرون ما قيس ولا يعتبرون القياس . يحافظون على المولدات ولو كانت اجهاضاً او اصبحت هائم وقذاعيم ويحملون القوة المولدة ويعملون على امانتها فيالله منهم

ماذا اخذت اللغة العربية وماذا اعطت

وصلت الآن الى موضوعي بعد ان مهدت له هذا التمهد الطويل العريض والواقف عليه معي وقد ماشاني كل الطريق خطوة خطوة يدرك من غير عناء ان العربية لم تكن في حاجة الى غيرها من اللغات بفضل اتساع اشتقاقها وقياسيته ووضوح المعنى المراد مما اشتق من الالفاظ وفقاً له سواء كانت تلك الالفاظ افعالا او اسما فان من يعرف معنى القشعريرة يفهم حالا الفعل المشتق منها اعني اقشعر وهكذا من يفهم معنى استحقق فانه يفهم حالا معنى المصدر واسم الفاعل والمفعول المشتقات منه قياسياً . ومن يعلم ان تميم علم لقبيلة من قبائل العرب وأن بيروت علم لمدينة يفهم من قولنا رجل تيمي او يبروني انه من بني تيم او من اهل بيروت فهماً يتسارع الى الذهن كتسارع الصوت الى الاذن او النور الى العين . وكذلك من يفهم معنى قدم وحسن يفهم حالا معاني مطاوعاتها تقدم وتحسن وهلم جراً . وغاية ما اخذته العربية عن غيرها من اللغات بعض الفاظ مفردة من باب الاسماء لا تتجاوز بعض المئين وأكثرها من الاسماء الجامدة كخز وديباج واستبرق وترياق وفالوذج مما وجدوه عند غيرهم من امتي فارس والروم ولم يوجد عندهم . ولو كان يسمي المقام لعددت لكم تلك الاسماء المعروفة بالدخيلة او المعربة فانها لا تملأ اكثر من بضع صفحات في كتاب المزهر للامام السيوطي

وأما علماء هذه الامة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الاولى ونقلوا العلم اليها من الفارسية او اليونانية او السريانية فلم يحتاجوا الا الى بعض اسماء حكمها حكم الالفاظ التي معناها سابقاً . وبالجملة نقول ان علماء العربية هم الذين اخذوا عن العلماء الذين جاوروهم من الفرس والروم والسريان دون العربية فانها لم تأخذ عن الفارسية ولا عن الرومية ولا عن السريانية ولنضرب لذلك مثلاً — ان علماء العربية اخذوا علم المنطق عن علماء اليونان اما رأساً او نقلاً عن السريانية ولكنهم لم يأخذوا الفاظ هذا العلم كما هي عن اليونان بل قالوا موضوع ومحمول وقضية وقياس واستنتاج ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة والمقولات العشر والقول الشارح والتصور والتصديق وكلبي وجزئي وقضية كلية . وقضية كلية مهمة . وقضية كلية مسورة . وهلم جراً من مصطلحات هذا العلم وأخذ العلماء الغربيون هذا العلم عن اليونان كما اخذوه علماء العرب اما رأساً او عن

اللاتينية وأخذته لغاتهم ايضاً عن اللغة اليونانية او اللاتينية لانهم قالوا سبجكت ويرادىكت الموضوع والمحمول وقالوا كتيغوري اي المقولات العشر وهلم جرّاً اي ان لغتهم اخذت نفس الحدود عن اللغة اليونانية بخلاف العربية فانها استغنت عن الفاظ تلك الحدود اليونانية بألفاظ من الفاظها أدت معانيها تمام التأدية من غير صعوبة ولا التباس

وما قيل في المنطق يقال في علوم الفلاسفة فانهم اي علماء العربية اخذوا هذا العلم عن غيرهم اما لغتهم فلم تحتاج الى لغة القوم ورأت فيها من الالفاظ ما يؤدي معاني الفاظ ذلك العلم فقالوا موجود ومعدوم وعرض وجوهر وحال وكسر وانكسار وتأثر وأثر وماهية وحوية ومقتضي ومانع ومعارض وقالوا الماهيات مجعولة بجعل جاعل وغير مجعولة والعقل الاول والمبدأ الفياض وغير ذلك من مصطلحات الفلاسفة كثير . وأنتم ترون ان كل هذه الالفاظ من صميم الالفاظ العربية والعارفون منكم هذه الاصطاحات بالفرنساوية او الانكليزية يعلمون ان اغلب هذه الالفاظ مأخوذة عن اللاتينية او اليونانية بل يعلمون ان علماء هاتين الامتين ما زالوا يؤلفون في اللغة اللاتينية الى عهد قريب لمدم استطاعة لغاتهم اولاً ان تتحمل هذه العلوم بنفسها بخلاف العربية فانها تحملتها حالاً وأصبحت تلك العلوم كأنها موضوعة فيها ابتداء وكان من علماء اللاتين والجرمان انهم ترجوا في بادىء امرهم اكثر تلك العلوم عن اللغة العربية

وهكذا كان الامر ايضاً في علوم الطبيعة كالطبيعات والعلب والكيمياء والفلك والنبات والحيوان فان اللغة العربية لم تحتاج في كل هذه العلوم الا الى الالفاظ التي تستعار استعارة لان مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة في البلاد العربية لانها لا تعيش فيها وتعيش في غيرها من البلدان فأخذوا الاسم بأخذ المسمى وهكذا الحال فيها لو كان اللفظ المأخوذ اسماً لآلة مخصوصة صنعها صنّاع تلك الامم قبل ان عرفها العرب والعربية بمئات من السنين

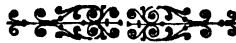
وأما ما اعطته العربية لغيرها من اللغات والامم فكثير ومن ذلك (١) انها اعطت حروفها الهجائية لملايين ملايين من الشعوب في بلاد الترك والهند وجزائر البحر فان المورو في جزائر الفيايين يكتبون لغتهم بالحروف العربية لحد هذه الساعة

(٢) اعطت نفسها لكثير من الامم الذين تغلبوا على اهلها او تغلب اهلها عليهم مئات من السنين فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب اوربا فان الاتراك والتر والفرس ما زال علماءهم يؤلفون مؤلفاتهم في اللغة العربية الى عهد قريب ولا يزال كثير من علماءهم الى الان يؤلفون في العربية فقد اهدي اليّ منذ بضع سنين مؤلف

تاريخي في العربية لزين الدين الرسولي احد علماء قازان من روسيا
(٣) اعطت لغات الأتراك والتتر والفرس والاردو (احدى لغات الهند) اللغات
والالوف من الفاظ المعاني ومئات وألوفاً من الجمل التامة بل اعطت اكثر هذه اللغات
ولا سيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات
العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر وما بعده ايضاً

(٤) نفتخر انا اعطينا لغات اوربا الارقام العربية وكثيراً من اسماء المعاني
والمصطلحات العلمية ولكنها قليلة كان اولى بنا الاضراب عن المفخرة بها

(٥) وأخيراً اشكر لكم ايها السادة والسيدات والاخوة الكرام لانكم احسنتم
الاصفاء اليّ كل هذه الساعة وتابعتموني في مضايق هذا الموضوع لم تظهروا شكوى
من اطالتي ولا تبرماً بخطابتي . وقد كنت احب ان اتوسع في بيان — لماذا احتملت
لغتنا العربية الشريفة في ايام العباسيين مثلاً علوم اليونان والفرس والسريان بدون ان
يظهر عليها عجز او ضعف ولا تستطيع اليوم ان تحتل علوم الاوربيين على ما يزعم
الاكثرون مع ان هؤلاء كانوا يترجمون كتب العلم والفلسفة عنها منذ بضعة قرون . الا
اني لا ارى من اللياقة ولا الحكمة ان استنفد كل صبركم دفعة واحدة فتكرموا اذن
في الختام غير مأمورين بقبول مزيد شكري وامتناني ولكم الفضل اولاً وآخرأ
اعتذر الى القراء الكرام بما اعتذرت به الى السامعين فاني اعتقد ان اغلبهم
لايحتملون ان يقرأوا في هذا الموضوع فوق ما قد قرأوا والسلام



أهمية العربية في الممالك العثمانية (١)

كان هذا الموضوع في ذهني منذ بضع سنين ولكنني صرفتني عنه الحوادث التي حدثت (ويؤلمنا أنها حدثت) مخافة أن أكون من المفرقين . أما الآن وقد وصلنا والحمد لله الى حيث لا تخاف من تهريق ولا مروق ولا ارتداد ولا رجعى إلى غير ذلك من الألقاب التي كان ينبذ بها المخالف للرأى المرغوب في ترويجها وقد لا يكون ذلك المخالف إلا ثنائراً بحسب الزثرة فصاحة أو مقلداً بحسب التقايد علماً وحكمة

أيها السادة : كان يؤلمني أولئك الكتاب الذين كانوا يرفعون اصواتهم وينادون مصرحين ان اللغة العربية لغة ميتة . لغة مضى زمانها فأصبحت عضواً أتراباً في جسم المجتمع تنتابه بسببها العلل والالوجاع من غير أن ينتفع بها بوجه . نعم كنت أتالم من هؤلاء الذين كانوا يزعمون ان اللغة العربية علة الضعف في كيان المملكة العثمانية وأنها أي المملكة العثمانية لاتعزّ إلا إذا أميتت هذه اللغة الشريفة وا تبدلت باللغة الفربق الحاكم أعني اللغة التركية وأشد ما كان يؤلمني ان أولئك الكتاب كانوا يقلدون عن غير علم . يرون مشابهاً وينسون الفارق بين المتشابهين . ولو حلّتم افكارهم لو جدتم انهم كانوا يحسبون شعبهم يقابل الشعب الفرنساوي مثلاً ولقتهم تقابل لغته ويحسبون العربية كلغة جزيرة مدا كسكر مثلاً اذن فأهلها أي المتكلمون بالعربية بالنسبة اليهم كأهل جزيرة مدا كسكر بالنسبة الى الفرنسيين . نعم هناك مشابة وهذه المشابة هي ان القوة او الهيئة الحاكمة منهم كما انها من الفرنسيين . ولكن هل تسوّغ لهم هذه المشابة وحدها ان يعاملوا اللغة العربية واخوانهم من المتكلمين بها كما يعامل الفرنسيون لغة أهل مدا كسكر وشعب مدا كسكر . وهل لقتهم بالنسبة الى العربية كاللغة الفرنسية بالنسبة الى اللغة المدا كسكية ؟ وهل عددهم في المملكة العثمانية بالنسبة الى المتكلمين بالعربية كعدد المتكلمين بالفرنساوية في البلاد الفرنسية الى عدد المتكلمين باللغة المدا كسكية . وهل في رقيهم العقلي والادبي يفضلون المتكلمين بالعربية كما يفضل المتكلمون بالفرنساوية في رقيهم هذا أعني العقلي والادبي الشعب المدا كسكي

هذه سؤالات عرضت لنا ولم نستطع دفعها فهل يستطيع هؤلاء الكتاب أن يجيبوا عليها جميعها بالإيجاب . أم هم لو أرادوا أن يرجعوا إلى التاريخ وما سطر فيه قبل ثلاث

مئة سنة أو ما هو أقل من ذلك أفيسطيعون أن يروا تاريخاً لهم مسطوراً باللغة التركية؟ بأي لغة كان يكتب كتابهم الافضل منذ ثلاثمئة سنة كصاحب سفينة الراغب وغيره من الادباء والعلماء ولا نقول، المحدثين ولا أهل الفقه والتفسير

نحن لا نذكر على هؤلاء الكتاب عثمانيتهم ولا نذكر عليهم الغيرة على الشعوب العثمانية ورغبتهم في أن تجتمع لغة كل هذه الشعوب وكلهم الى لغة واحدة وكلة واحدة فترجع الدولة العثمانية بسبب هذه الوحدة الى مكاتها السالفة من العزة والمنعة ونفوذ الكلمة بين سائر الدول الاوربية . نعم لا نذكر عليهم الحماس القومي ولا الغيرة الوطنية الملية ولكننا نذكر عليهم صحة القياس والاستنتاج وبالتالي صحة الرأي والسياسة الذين كانوا يروجونها في كتاباتهم . نسلم لهم ان ثم مشابهة بين الفرنسيين من حيث نسبتهم الى اهل جزيرة مداسكر وبينهم من حيث نسبتهم الى المتكلمين بالعربية كما ألعنا الى ذلك . ولكن هنالك فوارق عديدة غفلوا عنها لا تجوز لهم بوجه من الوجوه ان يقيسوا العربية على المدا كسكرية ولا المدا كسكريين على المتكلمين باللغة العربية

على اننا لا نذكر ان اخواننا الكرام من عقلاء الاتراك ومشيوخهم الحكماء مارضوا عن تطرف هؤلاء الكتاب الشبان ولا يرضون عنه . وهم يعلمون انه ليس من السهل أن تستبدل اللغة العربية بلغة اخرى من لغات أهل الارض أجمع . بل يعلمون انه لا يناسب عز الدولة ومجدها وحرمتها أن تستبدل اللغة العربية باللغة التركية ففقد كل التأثير المعنوي الذي لنا في تاريخ العرب وفي الآداب العربية فان هذا التاريخ وهذه الآداب تجعل معنا قلوب مئات من الملايين في الصين والهند وتركستان وجزر المحيط ومعظم شمالي قارة افريقية وبعض أواسطها . كل ذلك يعرفه حكماء الاتراك ومشيوخهم من العقلاء الذين لم يكونوا ولا يكونون قط راضين عن اولئك المتفرنسين من شبان ثملوا بفرط الحمية والوطنية فكاد يؤدي بنا فرط حميتهم هذه الى ضغائن وأحقاد نحن في غنى عنها

أيها السادة : لم أشعر من نفسي الا وقد ذهب بي هذا الاستطراد كل مذهب فاعذروني واثذنوا لي بالرجوع الى مساق موضوعي وهو « أهمية اللغة العربية في الممالك العثمانية » فأقول : أهمية كل لغة ترجع الى امرين الاول عدد المتكلمين ومنزلتهم في المجتمع والثاني ما فيهما من الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستطيع الافصاح عن كل ما يمر في الذهن من أنواع المعاني واختلاف الاعتبارات

اما من حيث الأمر الاول فأقول ان المتكلمين باللغة العربية في الممالك العثمانية غير البلاد العربية يبلغون نحواً من سبعة ملايين . ثلاثة ملايين ونصف في العراق والجزيرة

الفراية ومثل هذا العدد أو أكثر منه بقليل في ولاية حلب وما يجاورها وفي البلاد السورية على العموم وهذا العدد من المتكلمين بالعربية إذا قوبل بالارمن العثمانيين كان خمسة أضعافهم تقريباً وإذا قوبل باليونان والارمن معاً بلغ ضعفهم على الأقل وإذا قوبل بالأتراك ساوهم ان لم يزد عليهم زيادة تبلغ أن تكون متصرفية من الدرجة الاولى او الثانية وإذا زدتُ على هذا العدد من المتكلمين بالعربية اخوانهم في نجد والحجاز واليمن من الذين لا ينازع في عثمانيتهم بلغ مجموع المتكلمين بالعربية نحواً من ستين في المئة من جميع العثمانيين على اختلاف اجناسهم وألسنتهم معاً

لوم يكن من متكلم باللغة العربية إلا من ذكرنا لكان من الرأي والحكمة أن ينظر الى هذه اللغة نظرة خاصة ولا أقول أنه كان يجب ان تقدم على اللغة التركية ولكني أقول انه كان يجب أن تعامل في أيام الدستور كما تعامل اللغة الترنسفالية في بلاد الترنسفال التي ضُمَّت من عهد غير بعيد الى ولايات الامبراطورية الانكليزية . وكلنا يعلم لقرب العهد ما كان مما دعا إلى ضم هذه البلاد إلى املاك التاج الانكليزي ونعلم ايضاً ان ضمها كان بحق الغلب والقهر الذي لا ينازع فيه . ومع ذلك وفضلاً عما بين الامتين الانكليزية والترانسفال من التفاوت في القوة والعدد والتهذيب لم يكبر على عقلاء الانكليز وكبارهم أن يجعلوا اللغة الترنسفالية لغة رسمية كالانكليزية في المدارس والمحاكم وفي مجلسي النواب والاعيان كان يمكن أن أقف على ما وصلت اليه مما سمعته ولسكني لا أستطيع وأرى نفسي تنازعني إلى ذكر كثير مما أرغمتها على كظمه أثناء ما مر بنا في السنين الاخيرة مخافة أن يكون في ذكره ضرر . أما الآن وقد انقشع ذلك العارض عنا وجعل رأي العقلاء وأهل الحكمة والحكمة يغود شيئاً فشيئاً إلى منزلته التي ينبغي أن تكون له فلا بد لي من القول ان هناك عثمانيين غير من ذكرنا . عثمانيين في الاميال والمواطف . وهؤلاء العثمانيون في اميالهم وعواطفهم يجمع بيننا وبينهم جامع اللغة العربية فكما رأوا من العثمانية الحالية التفاتاً للعربية واحتراماً لها بالقول والفعل معاً لا بمجرد القول زاد ارتباطهم بنا معنوياً وآلت هذه الزيادة في الارتباط الى زيادة وجاهتنا وكرامتنا من حيث نحن أمة عثمانية في عيون الشعوب والممالك الغربية والعكس بالعكس . ومن هؤلاء العثمانيين اخواننا في مصر والسودان وعددهم لا ينقص عن الخمسة عشر مليوناً من النفوس . ومع انهم لسلسلة من السياسات متعددة انفصلوا عنا انفصالاً حسيباً سياسياً فهم لا يزالون على أشد ارتباطهم المعنوي بنا ولا يبق هذا الارتباط كما هو الآن بيننا وبينهم إلا اللغة العربية والاشترك التام بيننا وبينهم في الآداب الماضية والحالية . فان قيل اما يربطنا بهم رابط الاسلام

لا اللغة قلت لهذا الفائل أعبت وأخطأت . اما انك اصبت في ان الرابط الاولي هو الاسلام فواضح وأما خطأك فلانك فصلت الاسلام والآداب الاسلامية عن اللغة العربية والآداب العربية . من ينكر ان الارتباط بيننا وبين اخواتنا في مصر والسودان هو أشد بمرات من الارتباط بيننا وبين اخواتنا في تركستان . وكذلك الارتباط بيننا وبين مسلمي تركستان هو أشد منه بيننا وبين المسلمين في داخلية الصين . ولماذا ذلك اذا كان الرابط هو مجرد الاسلام بقطع النظر عن اللغة العربية والآداب العربية . نعم ان من يجتهد ان يفصل الاسلام عن اللغة العربية والآداب العربية يزعم ان بذلك قوة للمسلمين وزيادة في شدة ارتباطهم ببعضهم ببعض ولا سيما بالأتراك العثمانيين . مثل هذا الرجل جاهل بأحوال السران فضلا عن انه جاهل بالاسلام وشدة ارتباطه باللغة العربية

ومن الذين يتكلمون العربية ايضا التونسيون والجزائريون وأهل المغرب الاقصى ومن اليهم في الواحات وجهات الصحراء الكبيرة وعددهم ايضا لا يقل فيما أرجح عن عدد اهل مصر والسودان ان لم يزد عليه . وارتباط هؤلاء بنا شديد كما تعلمونه وكما دأبت عليه الاحوال الاخيرة . ومع ما بيننا بحسب الظاهر وبين التونسيين والمرراكشيين من البعد مع ذلك اذا خسر هؤلاء بيننا وبين الفرنسيين فالمرجح عندنا انهم يختارون العثمانية الحاضرة على أمل حسن المال ويعرضون عن الزنبة الناضرة لا خوفاً من سوء المنقلب . على انهم لا يختارون العثمانية للتركية الاستنبولية . ولا يعرضون عن باريس لمجرد كره النصرانية انما هم يتشوفون الى ما كان لهم من الجدد والسؤدد فيألفون ان يكونوا مسودين بعد ان كانوا سادة . ولما كان مجدهم وسؤددهم القديمان مرتبطين بمصر والشام والمراقين معاقل العربية بعد نجد والحجاز لا جرم انهم يميلون الى العثمانية صاحبة الحرمين وصاحبة هذه البلدان لا الى العثمانية التركية او الكردية او الارمنية وبعبارة اخرى العثمانية التي لغتها التركية التي تتكلم بها هذه الشعوب الثلاثة . انزع العربية والآداب العربية من شمالي افريقية (اي طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى كله) وانظر ماذا يحل بأهله من الاستكانة والخنوع . لا يزال المهدي قريباً بما كان من الطرابلسيين في الحرب الايطالية الاخيرة فانهم فعلوا ما فعلوه انفة من أن يقال ان أبطال العرب وأنسال الفاتحين الاولين استكانوا لسيادة الطليان ورموا للمذلة والصغار . نعم لا انكر ان حميتهم كانت حمية دينية ولكن هذه الحمية الدينية كانت لولا العربية والآداب العربية والتقاليد العربية لا تختلف كثيراً عن حمية المورو في جزائر الفيليبين حمية تحامي عن النفس وتدفعها

الى عمل مجيد واسكنها لا قديم لها ولذلك يصعب توجيهها نحونا نحن العثمانيين ومن الذين يتكلمون العربية كل طلبة العلم النابغين وأهل الفقه المحققين الذين تقتدي بهم الامة الاسلامية وتخصهم بمزيد التجارة والاحترام في سائر اقطار الهند والصين وممالك ايران وما اليها من بلاد خراسان وما وراء النهر وبلاد التار في شرقي آسيا وأوربا. ولا يقل عدد هؤلاء الاعلام فيما اظن عن مايون من النفوس هم خاصة الناس حيث كانوا وأهل العلية والوجاهة منهم . ولهذا المليون من عارفي اللغة العربية مرجع الفضل في العطف على العثمانيين والدولة العثمانية . واعتقد انه كلما زاد عدد هؤلاء زادت مشاركة العالم الاسلامي لنا في الحاسيات وكلما قلوا قلّت. اعرف كثيرين من هؤلاء الاعلام الافاضل معرفة شخصية ولا أزال أذكر حديثاً دار بيني وبين بعضهم . قلت لهم أستبدلون لو خيرتم لغتكم بلغة من أرقى لغات اوروبا قال لا لارضى بذلك اصلاً . قلت أستبدلونها باللغة العربية قال نعم نعم ونحسب ان قد اصبنا اعظم سعادة وأعظم شرف بهذا الاستبدال . وأعرف من فضلاء التار وأعلامهم مثل هذا العلامة الفاضل الموما اليه وكلهم يرى رأيهم في اللغة العربية أشرف من اي انه لا يتأخر لا هو ولا قومه ساعة قبل ان يستبدلوا لغتهم باللغة العربية على حين انهم لا يستبدلونها بأرقى اللغات الاوروبية ولو زيد لهم فوقها اللاتينية واليونانية القديمة لو كان لي من الامر شيء وعندي مال لانفقت على تعليم العربية او قل على تعزيزها في الصين والهند والتركستان مليون جنيه في السنة على الأقل وأكون مع الايام الراجح ادياً ومادياً ولو كنت تقدمت على الزمن الذي انا فيه خمسين سنة وكان لي من الامر شيء . لكنت عززت العربية في شمالي افريقية الى اقصى غاية تكون في الامكان وأرجح ان لو كان هذا التعزيز لكانت الحال الآن على غير ما وصلت اليه

ايها السادة : ان لغة يتكلم بها نصف سكان المملكة العثمانية وهي فوق ذلك لغة مصر والسودان وكل شمالي افريقية بين شواطئ المتوسط والصحراء الكبيرة . وتعلمون ما كانت نسبة هذه البلدان لنا ولا تزال نسبة بعضها منا الى الآن . ثم هي فوق ذلك لغة اكثر من مايون من خيرة مئة وخمسين مليوناً من المسلمين في الهند والصين والتركستان. هذه اللغة لها بل ينبغي أن يكون لها من الاهمية في المملكة العثمانية اضعاف ما كان لها لحد الآن . هذه اللغة والمفروض على كل فقيه ومفسر ومحدث من علماء الاتراك انفسهم أن يعرفها اكثر مما يعرف التركية جدير بالامة العثمانية عن آخرها تركيها قبل عريبتها ان تنزلها بالمنزلة التي لها . اوليس من الغفلة بل من الخرق في السياسة ان نقدم عليها اللغة الفرنسية فتكون هذه رسمية دونها وهي سيدة اللغات الشرقية بل سيدة اللغات اجمع

اللغة العربية هي لغة علمائكم ايها الاخوان الأتراك لغة اخص خاصتكم من اهل العلم والدين وهي عندهم مقدمة على اللغة التركية لانه يغتفر لهم في علمهم ودينهم ما اذا قصرُوا دون الوقوف على اسرار اللغة التركية ودقائق ما تحتمله تراكيها من المعاني ولا يغتفر لهم مثل هذا التفسير في اللغة العربية . وأكثر من ذلك ان اللغة العربية هي لغة كرام آبائكم الاولين ومستودع علومهم وآدابهم وتخيلات شعرائهم . بل لعلمائكم الذين وُلدوا في الاساتذة والروم ايلي وآسيا الصغرى، من المؤلفات في اللغة العربية في مدى قرنين من السنين او ثلاثة ما يزيد على مؤلفات علماء العراقيين والشام ونجد والحجاز في تلك المدة على ما ارجح . ولعلي لا اكون مخطئاً اذا قلت ان أبلغ المؤلفات في العربية وأكثرها دلالة على علم مؤلفيها بعد اعتلاء شأن الدولة العثمانية اعما هي للأتراك العثمانيين ولمن قرّبه سلاطين هذه الدولة العظام

ومن جملة ما اذكر من اسماء هؤلاء الأئمة الاعلام العلامة ابي السعود بن محمد الهادي قاضي السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد فان كتابه ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم كتاب من البلاغة وحسن البيان على ما لا يوفى من حق وصفه الا ان يقال فيه انه جمع بين الكشف وأنوار التنزيل فصاحة وبلاغة وعلماً وتحقيقاً وزاد عليها . وهنا اذكركم ايها السادة بصاحب الكشف فانه العلامة جار الله الزخشري ومن نسبته تعلمون نسبه فانه ابن عم الأتراك العثمانيين ان لم يكن ابن ابيهم . ومثل هذا العالم علماء كثيرون قاموا من بين الفرس والترك والتركان والديلم والترك . لم يمر قرن او ربع قرن لم يقم فيه عالم مؤلف في اللغة العربية منذ اوائل الدولة العباسية الى وقتنا الحاضر . وكثيرون من هؤلاء العلماء كانوا كما المعنا من الأتراك العثمانيين

وبالاجمال اقول ايها السادة انه مرت قرون في تاريخ الاسلام كانت فيها اللغة العربية لغة العلم والادب والدين لكل الشعوب التي ذكرناها وكانوا اشد عليها غيراً وأكثر لها احتراماً وتعظيماً من العرب انفسهم ولعلها كانت لهذه الامم الشرقية الاسلامية بمثابة اللغة اللاتينية واليونانية معاً للامم الاوربية المسيحية . الا ان كثيرين من علماء هذه الامم لا يزالون الى اليوم يؤلفون باللغة العربية ولا اقول ذلك على الحُجَل بل عن شاهد فانه وصلني منذ بضعة سنين كتاب « وفيه الاسلاف وتحيية الاخلاف » لمؤلفه العلامة شهاب الدين ابن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم القراني الموحاني وهو من علماء التتار من ولاية قران التابعة لروسيا اوربا . وأرجح ان هذا الفاضل لا يزال حياً يُرزق الى الآن . فانه بلغ في التأليف الى آخر هذا الكتاب سنة ١٢٩٣ هجرية . وكتابه لا ينقص في فصاحة

الفاظه وبلاغة تراكييه ودقة تعبيره عن كتاب مثله من تأليف أحد علماء مصر والشام او المراق . وجهينا نعرف كتاب لفظة العجلان وغيره من مؤلفات العالم الفاضل سلطان بهوبال وقد طبعت في مطبعة الجوائب في حياة مؤلفها ووقف على طبعها صاحب تلك المطبعة العلامة المرحوم احمد فارس وأثنى عليها غاية الثناء . وهي خليقة بما قيل فيها . ولا يزال الى الآن في خراسان وبلخ وبخارا وما الى هذه البلدان من البلاد الاسلامية كثيرون من العلماء الاعلام الذين تفتخر اللغة بمؤلفاتهم كما كانت تفتخر بمؤلفات اسلافهم . ولا اشك ايضاً ان ثم بين الازراك العثمانيين انفسهم اليوم من العلماء الاعلام في العربية من نسبتهم الى غيرهم من علماء مصر والشام لا تقص عما كان عليه ابو السعود في ايامه بالنسبة الى علماء القطرين المشار اليهما

فتكريم العربية تكريم لكل هؤلاء واحترامها احترام لهم . ولا اشك انه اذا أعطيت هذه اللغة الشريفة المنزلة التي ينبغي أن تكون لها والتي تستحقها في المملكة العثمانية أي ان تحسب رسمية قبل الفرنسية ونظير التركية في مجلس المبعوثان لانفتحت علماء هذه اللغة في كل البلدان التي ذكرناها على اعظام هذا العمل وعرفوا كيف يكافئون الحكومة التي اهتمت باخراجه الى حيز الوجود . وأول مكافأة يستطيعها هؤلاء العلماء هي ان يوحدوا رأي الامة ويعززوا جامعتهما العثمانية تعزيراً لم تبلغه في زمن من ازممنتها يحسن أبي ان اقف حيث وصلت الآن . وأما أهمية العربية من حيث الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستلبيح الافصاح عن كل ما يمر في الذهن من المعاني فأتركه لوقت آخر وفقاً لمقتضى الحال واني لآمل من كل ذي فضل من محبي هذه اللغة الشريفة ان يتجاوز عما فرط مني من الحدة في سبيل بيان أهمية هذه اللغة الشريفة ويعزز ما اتيت به لتصل هذه اللغة الشريفة الى المنزلة التي تحق لها في مجلس نوابنا العثماني والسلام

الحثيون

أدت الاكتشافات التنقيبية في الخمسين سنة الأخيرة الى ما لم يكن يُحسَم به من وجود أمة قوية جداً في شمالي سورية وان شئت فقل ولايات حثية متحدة تألفت منها مملكة تجارية حربية خضع لها يوماً كل شمالي سوريا وسواد العراق ومعظم ما بين النهرين وأغلب آسيا الصغرى

ويقول بعض كبار الباحثين أنها اجتازت من هناك الى قبرص ومعظم جزر الارخبيل اليوناني والى بلاد اليونان ومكدونيا وتجاوزت من هناك الى ايطاليا حاملة معها من علم وصناعة بما لا ينقص عما فعلته الامة الفينيقية العظيمة

يقول كثيرون ومنهم الاستاذ سايس المستشرق الانكليزي الشهير ان اصل هذه الامة العظيمة طوراني وأنها جاءت من الارضين بين بحر قزوين والبحر الاسود « ان لم يكن الى ابعد من ذلك شرقاً » واستولت على كبدوكيا وامتدت من هناك شمالاً وغرباً وجنوباً وجعلت عاصمتها اخيراً في كركميش وما زالت فيها حتى هاجمها الاشوريون واستولوا على عاصمتها وحينئذ انقرض ملك هذه الامة العظيمة وحل محلها الاشوريون ثم البابليون في ايام نبوخذ نصر بعد معركة هائلة جرت بينه وبين المصريين. وكان نحو ملكهم اجتياح فلسطين وسوريا واستولى على كركميش ليقف في وجه البابليين ويصدّم عن اجتياح سوريا وفلسطين ليستلحقهما بمملكته فسار اليه نبرخذ نصر الى كركميش والتجّما بينهما القتال فانكسر المصريون شر كسرة وانهزموا الى بلادهم لايلون على شيء

واستولى على كركميش من بعد البابليين الفرس والماديون وبعد هؤلاء صارت الى الاسكندر المكدوني ثم الى قواده من بعده ومنهم الى الرومانيين. وتقلبت الاحوال على كركميش وتلونت بها الايام كثيراً الى ان عمها الخراب اخيراً وتنووسي امرها قروناً بل تنووسي اسمها الاول اعني كركميش وسُميت باسم آخر . وبهذا الاسم الآخر اعني جرابلس (خيرابوليس) تعرف خرائبها في الوقت الحاضر

السبب في خراب هذه المدينة وتناسي اسمها

والسبب في ذلك على ما أرى أنها بعد ذهاب أهلها تجار ما بين النهرين وشمالي سوريا وآسيا الصغرى الخ تراجمت عن عظمتها شيئاً فشيئاً وانتقل عزاها التجاري ايام ملك

نبوخذنصر الطويلة الى بابل . ولما قامت الدولة للمادية الفارسية لم يَغنَ ألفرس بها لانها ليست من مدنهم ولبعدها نوعاً عن مركز دولتهم فزاد انحطاطها وانحطاطاً وراجها تراجعاً . ولما انتقلت الدولة منهم الى اليونان استجدهؤلاء مراكز تجارية غيرها ولعلها كانت صارت في أيامهم الى قرية حقيرة ان لم تكن كانت قد صارت الى الحراب التام فجددوا بنائها حينئذ لحسن موقعها التجاري وللاعتبار الذي كان لها قديماً ودعوها بلقهم «هيرا بوليس» ولا يبعد ان يكون مناسباً في المعنى لاسمها القديم . ويلوح لي أنه على الراجح ترجمة له . وتغلبت على اهلها اليونانية بكثرة الذين استوطنوها منهم فغلب من ثم اسمها الجديد على اسمها القديم أولاً لغلبة العنصر اليوناني فيها وثانياً لان اسمها اليوناني كما أشرنا ورجحنا هو ترجمة لاسمها القديم . وبيان ذلك ان اسمها الاصلي يمكن ان يحل كما أرى الى كلمتين كير او قير وكيش او كموش وكوش اسم اله عند الموابيين يقرب في المنزلة من البعل عند الكنعانيين والصيدونيين . ومعنى قير قرية او كورة في الراجح وعليه يكون معنى كركيش قرية كيش او كموش . وهيرا بوليس معناها مدينة هيرا . وهيرا اسم اله عندهم فالمناسبة اذن بين معني الاسمين او الترجمة ظاهرة كل الظهور ومما لا يخفى على متأمل

لنرجع بعد الاستطراد الذي استطرده الى رأي الاستاذ سابس فقول : — يظن الاستاذ ان اصل الحثيين طوراني جاؤوا الى سوريا من الشمال مما بين بحر قزوين والبحر الاسود او نقول بوجه اعم من شرقي آسيا الصغرى وهو رأي جماعة غيره من المشهورين على انفراد او متابعة له . والذي اراه ان الحثيين هم اخوان الصيدونيين من ابناء كنعان المشار اليه في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ومهاجرهم واحدة اي شبه جزيرة العرب وكان سيرهم في غزوهم ومهاجرتهم من الجنوب الى الشمال . وبعبارة اوضح كان سيرهم من حضرموت وعمان وأرض البحرين الى العراق وأرض بابل وما بين النهرين

ومن شمالي بابل عرجت بطون منهم الى شمالي سوريا واستمرت بطونهم الاخرى على سيرها شمالاً تتابع الفرات وتقيم لها حيث حلت المراكز التجارية وفي الوقت نفسه كانت تقيم الحصون والمعاول الحربية لحماية تلك المراكز التجارية . والظاهر من التنقيب لحد الآن انهم احتلوا كل شمالي سوريا قبل ان اتخذوا كركيش مركزاً لتجارهم وعاصمة او مقعلاً ومبارة لهم . وأرجح ان هؤلاء الحثيين هم الذين يعرفون في تواريخنا العربية بالدولة البابلية وأن العراق كان دار هجرتهم الاولى وبابل بيت مقدسهم المشترك . وأرجح أيضاً أنهم هم والهكسوس (١) من القبائل العربية المتحالفة كما سنلمع الى ذلك وأن تلك

(١) الهكسوس على ما أرجح لفظ مركب من هيق وسوس ومعنى هيق ذكر النعام ومن الرجال

القبائل تحت رياسة الحثيين او التبت افتتحو العراق وسوريا ومصر وأن فتوحاتهم في ذلك الحين كانت اشبه بفتوحات العرب الاخيرة تحت الراية الاسلامية والرياسة القرشية العدنانية . وأن ما حصل في الفتوحات الاسلامية هذه حصل مثله في الفتوحات الحثية القديمة

ان عارفاً بالفتوحات العربية الاسلامية لا يلبث ان يرى الاختلاف بين علي ومعاوية ويرى معظم اليمانية والقرشيين في جانب معاوية في الشام ومصر ومعظم العدنانية والانصار في جانب علي في العراق . ثم لا يلبث ان يرى الاختلاف بين عبد الله بن الزبير وبين عبد الملك بن مروان ويرى الاول يقاتل حتى يقتل تحت استار الكعبة وليس حوله الا بضعة من الرجال بعد ان كانت العربية والعراق من مشايبعه وأنصاره

ثم لا يلبث ان يرى شيعة العباسيين ومعظمهم من خراسان تحت قيادة ابي مسلم يقاتلون الامويين الروانيين في خراسان وفارس وأرمينيا والجزيرة وما هو الا ليلة وضحاها حتى يرى الخلافة العباسية في بغداد وعلمها يخفق في الافاق ويرى العراق سائداً والشام مسوداً بعد ان كان الشام آمراً عزيزاً والعراق مأموراً ذليلاً يسوق الحجاج اهله بعضى الامويين سوق الانعام وقد انقرضت خلافتهم من الشرق آخر الدهر بعد ان كانت تهز المسكونة من بحر الظلمات (الاوقيانوس الاثلاثيني) غرباً الى حدود الهند شرقاً مدى قرنين فأصبحت

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
ثم لا يلبث ان يرى الاندلس مملكة مستقلة عن الشام وبغداد ما ذات حول وطول ولها امير مؤمنين على افراد لا تعطي مقادتها لابي جعفر المنصور ولا لابنه المهدي ولا لابن هذا الهادي حتى ولا لاختيه هرون الرشيد ولا لابنيه المأمون والمعتصم على ما وصات اليه خلافتهم من الابهة والغنى والجاه ولا سيما اثناء وزارة البرامكة المشهورين ووزارة الفضل والحسن ابني سهل

المفرط الطول وجاء في لسان العرب — وفي حديث أحد النخذل عبد الله بن امي في كتيبة كأنه هيق يقدمهم . الهيق ذكر النعام يريد سرعة ذهابه اه ومعنى سوس الخيل وتد حفظت العبرانية هذا المعنى لهذه اللفظة وأما العربية فلم يبق فيها الا الاشارة البعيدة اليه في كلمة سائس فانه عند الاطلاق ينصرف الى من يسوس الخيل فتأمل
وعليه فيجوز ان يفهم من التركيب اما ملوك الخيل او اصحاب تمام الخيل والارجح انهم كانوا فرساناً وأدخلوا الخيول الى وادي النيل فكثرت فيه حتى أصبحت معمر مصدراً للخيل ومركزاً لتجارها فيما بعد

ثم لا يلبث راء ان يرى الدولة العبيديّة في المغرب ومصر دون العباسيين ثم لا تلبث حتى تنتزع فلسطين والشام من ايديهم وتصبح دولة كادت تغطي على الدولة العباسية في الغنى والجاه والسطوة واتساع دائرة الملك

دع الاندلس جانباً ودع كذلك الدولة العبيديّة وخلفاءها الفاطميين وانظر الى ما حدث في خراسان وشرقي النهر وما قام هنالك بعد المعتصم والواثق من الدول والامارات وما كان بينهم من المنازعات والاختلافات حتى تكاد لا تظن ان هنالك دولة او خلافة عباسية بل يذهب عن ذهنك جملة ان هاته الدول اعماهي ولايات من ولايات دولة عربية استبدت ولايتها فيها بالاحكام بداعي ما اصاب خلفاءها من الوهن والعجز لانهما كهم في الملاذ والحظوظ الفسانية واستمرارهم على ذلك حتى تجرأ عليهم اخيراً ملوك الديلم البويهيون واندمعوا عليهم في بغداد كرسي خلافتهم وموطن عزهم فاصبحوا هم الآمرين الناهين والخلفاء من العباسيين فزاعة لها صورة المالك وشيء من اسمه ومظهره الخارجي والملك في الحقيقة لهؤلاء المتغلبين

افرض ان كانت الايام طمست على ما نعرفه من آثار الدولة العربية الاسلامية كما طمست على آثار الدولة الحثية وذهبت عنا بما نعرفه من تاريخها المفصل المكتتب ولم يبق لنا عنها الا آثار كالأثار الحثية وبقايا خطوط كوفية غريبة ضاعت عنا الصلة بينها وبين بقية الخطوط الباقية الى الآن — فاذنا كنا نظن بها . اكان من السهل علينا ان نرى أصلها ومنشأها في مكة من أرض الحجاز وأن القائمين بها اول الامر كانوا عصابة دينية صغيرة لم يتجاوز عددهم الاربعين الا بعد سنين من دعوتهم . ثم لما عظم امرهم شيئاً بزيادة اعدادهم من الموالي والمستضعفين قام عليهم الملأ في مكة وضيقوا عليهم الخناق حتى هرب معظمهم الى الحبشة ولم يبق الا ذوو الجوار منهم . ثم اضطروا بعد موت ابي طالب الى هجرة اوطانهم والتجأوا الى المدينة وما زالوا فيها مستضعفين لا يؤبّه لهم مدة ولكنهم تقووا سنة بعد سنة ولم يمض على هجرة رسولهم عشر سنين حتى عمت دعوتهم معظم البلاد العربية وشايهم اغلب اهلها

نعود فنقول افرض ان غاب عنا تفاصيل هذه الدولة ولا سيما اول نشأتها ولم يبق لنا عنها الا آثار متفرقة هنا وهناك كهذه التي لنا عن الحثيين الآن — افنا كان يجوز ان يقوم مثل العلامة سابس المستشرق الشهير وبناء على بعض الآثار التي كشفها له الايام في السند والتركستان وفي خراسان وكرمان وفارس والعراق يقول ان هذه الدولة العظيمة

الاثري طورانية او اريانية منشؤها في تركستان شرقي بحر قزوين او على مقربة من ضفافه الجنوبية او الجنوبية الشرقية

ان ذلك ليس بعيد اصلاً ولا يقدر بعلم الاستاذ سايس وفضله ان يذهب الى مثل هذا الرأي ولكن مثلنا الدارج يقول الحصاة الصغيرة تسند خاية وأنا أشير الآن الى هذه الحصاة من التاريخ البايلي التي حملتني ابتداء على ان اقول ما قلته في أصل هذه الامة الحلية العظيمة

الحصاة الاولى والى ماذا تتجه دلالتها

جاء في تاريخ اشور وبابل للمرحوم جيميل مدور قال وأول مرة افتتحت بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وعلى يد اذدرخت المادي استفتحتها عنوة بعد حصار عنيف ولما دخلها فتك في اهلها فتكاً ذريعاً ومثل بهم تيملاً شديداً وركب فيهم من العسف والجور ما لم يسعهم معه الصبر فاجأوا الى مهاجرة البلاد فراراً بأنفسهم وخرجوا هائمين على وجوههم وكان من حديثهم بعد ذلك انهم تألبوا يداً واحدة وجملوا دأبهم العيث في الارض لا يدخلون قرية الا وطؤها واستباحوا اهلها وأرزاقها حتى بلغ سوادهم الى الديار الشامية فأنزلوا بها البلاء وفشا فيها القتل والنهب والسبي زماناً ثم زحفوا الى مصر وقد كثف لقيفهم بمن انضم اليهم من نواحي الشام من اسارى وغيرهم ونفروا في عرض البلاد وشأنهم ما ذكر حتى انبت شرهم وتفاقم امرهم فأجفل لهم المصريون اجفالا شديداً وتأهبوا لقتالهم فكانت بين الفريقين وقائع عديدة توارت ازماناً وكثرت فيها الدماء من الجانبين حتى عجز المصريون عن كشفهم وأجلت عاقبة الامر عن استيلائهم على معظم بلاد مصر قهراً

ولما استقرت قدمهم هناك ثقلت وطأتهم على البلاد وتمادوا في الظلم والفساد وبقي ذلك امرهم مدة خمس مئة سنة او تزيد الى ان كان عهد توتمس المصري فعمد فيهم الى الحيلة وعمل على تفريق كلمتهم فقسسهم احزاباً ثم جعل يواقع كل فيئة على حدة حتى بدد شملهم وفرق سوادهم وأجلاهم عن ارض مصر . انتهى نقل المرحوم مدور . تاريخ اشور وبابل طبعة بيروت وجه ٦٩ — ٧٠

ويظهر من هذا النقل ان قبيلة كبيرة او عدة قبائل جاءت غازية من العراق فافتتحت اولاً ما بين النهرين وسوريا الشمالية « او ولاية حلب » ثم عطفت على الديار الشامية ومنها زحفوا على مصر بمن انضم اليهم من نواحيها من اسارى وغيرهم فأجلت عاقبة امرهم عن

استيلائهم على معظم تلك البلاد قهراً وما زالوا فيها سادة ومسلمين الى ان كان عهد طومس المصري فأثار هذا عليهم حرباً عواناً اضطروا في اواخرها ان ينجلوا عن مصر الى الديار الشامية . فلم يكتف طومس بذلك ورأى ان السياسة تقتضي عايه ان يتعقبهم الى سوريا فتبعهم الى هناك وبقي يحاربهم عدة سنين افتتح في اثائها معظم معاقل فلسطين وسوريا الى ما وراء مدخل حماه . ومن ثم اصبحت سوريا مرشحاً للحروب وشن الغارة من المصريين على الحثيين في الجزيرة والعراق على دولة التمامسة في سوريا ومصر

كل ذلك أي مغزى هذا النقل عن الحملة البابلية على الشام ومصر وما كان من ارتداد الهكسوس الى سوريا واضطرار طومس الى محاربتهم فيها . كل ذلك يشير اشارة خفية ولكنها واضحة بعد اذ يتفطن لها الى ما كان بين الهكسوس والحثيين من الروابط الجنسية والسياسية والمقاربة في السوائد واللغة وما يترتب على ذلك من الاميال والنعرة والا فالداعي ان يتجشم طومس « غايته ان يحجر بلادهم من القوم » مشاق حروب هائلة مهمهم في سوريا استغرقت سنيناً عديدة بعد حرب في مصر لم تبق ولم تذر وأتت على اليابس والاخضر . وكما سألنا عما حدا طومس للملاحقة حروبه في سوريا هكذا فلنسأل عما حدا للملوك الرعاة ومقاتلهم ان ينحازوا الى سوريا « وهي بلاد الحثيين » . انهم ما كانوا ليفعلوا ذلك لو لم يكن بين الفريقين اواصر قرى ووحدة في الجنسية والسياسة العامة . بل كان الاولى بهم ان يخضعوا للغالب ويستسلموا له استسلام المغلوب وبقوا في بيوتهم ومسارح انعامهم الواسعة في ارض جاسان حيث ربيت اجيالهم مئات سنين من ان يندغروا او يندمقوا على امة غير امتهم وفي الوقت نفسه ربما كان بينهم وبينها من المباعضة والبغضاء مثل ما كان بينهم وبين اقتالهم المصريين ملوك تيبة

ونحن هنا نشبع الكلام في كل ما لدينا من الحقائق التي اخذناها عن العلامة الاستاذ سايس وأمثاله من كبار الباحثين والمقربين ونضيف اليه ما لدينا من المعلومات او الحصى التاريخية البرية والملاحظات الكتابية واللغوية مما لم يفتن لها اولئك الاعلام ولو فطنوا لها لكانوا فيما نظن افسحوا لها مجالا يعدل من آرائهم كل التمديد او بعضه

آثار الحثيين الاسمية ومواطنها

اجمع اغلب الباحثين والمنقبين ان لم يكن كلهم على ان حث وخط وخط وخط وخطنا وخطني^(١) وخطاني وخطيني وحي واحد وبعبارة اخرى هذه الصور كلها هي تبدلات

(١) النون في خطنا مالة الى الضم كالفتحة في يوم بلة مدينة دمشق ونون خطني مالة الى الكسر كما في لفظهم عين

عن اسم واحد لمسمى واحد وأزيد فأقول ان هيت هي تحريف عن حت وهبشي تحريف من حتي وأن قطيني ايضاً تحريف عن خطيني ولا يبعد ان يكون كوت وتصغيرها كويت هما تحريف عن خوط وتصغيرها خويط وخوط تبدل عن خاط

اذا علمت هذا نرجع فنقول ان هذا الاسم اي الخط لا يزال محفوظاً عندنا لغة في خط وخط البحرين وخط اليمامة وخط هجر ومدينة الخط يعني هجر ورماح الخط والرماح الخطية ومدن الخط او قرى الخط وهي القطيف والعقير وقطر

ومفاد هذا التركيب اي قولهم خط عمان وخط البحرين هو كما لو قلنا الخط الذين يسكنون عمان والخط الذين يسكنون البحرين وبمثله جاء قولهم عرب الحجاز اي العرب الذين يسكنون الحجاز وتيمم البصرة وتيمم الكوفة وازد عمان ويجوز ان يعني به البلاد التي كان الخط يسكنونها في عمان او في ارض البحرين فينقلب من ثم مفاد التركيب الى العالمية المكانية كما هو المراد الآن عند الاطلاق

يظهر من هذه المحفوظات او الآثار اللغوية الباقية ان الخط كانوا في عمان والبحرين واليمامة . ومثل هذه الآثار لا تزال ايضاً في العراق وشمالى سوريا في اسم هيت بالدرجة الاولى فانها تحريف حت او تبدل منها وفي كويت وكوت بالدرجة الثانية فانها عندي تحريف خويط وخوط وخوط تحريف او امالة في لفظ خاط وقريباً منه في لهجاتنا خول وخال لآخي الام

واذا انتقلت من العراق الى سوريا الشمالية رأيت الاهل ينون الى اليوم يسمون بحيرة حمص ببخرة قطيني . ومن اذا حدق ببصر بصيرته لا يرى خاطيني في قطيني مر في سيرك بين بحيرة قطيني وقلعة الحصن تسمع المثل الدارج هناك درى البقيعة (بالالف او بالهاء) كثيرة طاحون تل حتي وراها فان اسم الحتي لا يزال باقياً لتل هناك بجانب طاحونة قديمة العهد من غير تبديل ولا تحريف

ابق على سيرك حتى تصل البحر غرباً فهناك على مقربة من مدينة طرسوس القديمة تسمع اسم قلعة الهنيشي حدق هنا بنظر بصيرتك فانك ترى الحتي في لفظ الهبشي كما يرى وقد رآه ايضاً جماعة المستشرقين في لفظ الحيتا والشيتا والخط والخاط والحاطي والحاطيني

بين البحر عند مصب النهر الكبير وبين بحيرة قطيني (بحيرة حمص) على أنف جبل عال بين واديين عظيمين احدهما الى اليمين وهو وادي النهر الكبير والآخر الى اليسار وهو وادي الدسر تقوم قلعة الحصن الشهيرة تطل على سهل البقيعة المنبسطة بين جبل لبنان

وجبل الحلو . وهو بدء سلسلة جبال النصيرية لتحميه من الغزاة سواء مروا في وادي
التهر الكبير او في وادي الدير ولا طريق ثالث

هذه القلعة الشهيرة الحصينة هي قلعة الحثيين كما اثبت ذلك الموسيو ساثوى قنصل
الدولة الفرنسية في مدينة طرابلس الشام (١) حوالي سنة ١٨٨٠ وكما لا يخفى على من
له الملم بتاريخ الحثيين . حدق بنظرك في لفظ قلعة الحصن ترى فيه بعد اجهاد بصرك
ما رأيته في لفظ بحيرة قطيني فان خاء خاطين انقلبت مع البحيرة الى قاف ومع القلعة الى
حاء وقلبت الطاء او التاء المفخمة صاداً مع الحاء وبقيت طاء مع القاف . والبلاد هناك
تسمى بلاد الحصن كما تسمى القلعة بقلعة الحصن ومع انها كانت تسمى رسمياً بحصن
الاكرد او بقامة حصن الاكرد لم يثبت لها هذا الاسم الا في السجلات الرسمية وبقي
اسمها على الاسنة كليم البلاد حولها اعني قلعة الحصن . وأصل اللفظ الحطيني فتوالى
عليه مع الايام عدة تحاريف لسانية اوها الحطين وآخرها الحصن وثبت هذا الاخير
كما تثبت آخر تطورات المتحجرات النباتية والحيوانية

ومن اغرب الحفوفات او الآثار الاسمية ما جاء في معجم البلدان لياقوت قال :
حتي — قال نصرهي من جبال عمان او جبلة . والحت موضع بمان ينسب اليه الحت
من كندة وليس بأمر لهم ولا اب . وقال الزخشمري الحت من جبال القبلية لبني عرك
من جهينة — وقال الحازمي الحت محلة من محال البصرة خارجة من سورها سميت
بقبيل من اليمن رزلوها — والقبلية سراة فيما بين المدينة وينبع — انتهى عن المعجم .
وجاء في لسان العرب في باب حت ما نصه — الحت قبيلة من كندة ينسبون الى بلد ليس
بأمر ولا اب . والحت ايضاً تمر لا يلتزق بعضه ببعض . ويليه في الغرابة وبعد الاشارة
ما جاء في باب «حت» وتمر حث لا يلتزق بعضه ببعض (وهو كتمر حث بالتاء بنقطتين)
والحت الرمل الغليظ اليابس الحشن . وقد جاء في اللسان ايضاً ان الخط هو سيف
البحرين وعمان وقيل بل كل سيف خطاه لسان العرب

اذا علمت ان السيف هو ساحل البحر والوادي وأن الخط كانوا يسكنون اسياف
البحر وعمان والجمامة واذا علمت ان الحث هو الرمل الغليظ اليابس الحشن وأكثر رمال
ساحل عمان والبحرين بل وحضرموت ايضاً وسواحل اودية الجمامة كلها او معظمها من
هذا النوع من الرمل — اذا علمت كل ذلك فلا يبعد ان ترى في ذلك اشارة الى ان
الخط او الحث كانت بلادهم بلاد رمال خشنة فضلاً عن ان كونها ساحلاً لبحر او واد

(١) انظر الكلام على قلعة الحصن في المجلد الثالث من المقتطف صفحة ١٠٤ و ١٢٣

ولورود حت وحت بمعنى التمر الذي لا يلزق بعضه ببعض فلا يبعد ان نرى في ذلك اشارة ايضاً الى انهم كانوا قبائل كثيرة ومتباعدة ترأسها قبيلة ممتازة كقريش بالنسبة الى بقية قبائل ربيعة ومضر في الفتح الاسلامي الاخير . قلت ما قلته وأنا اعلم بعده على انه ممكن وفي الاشارات التاريخية والفيلولوجية ما هو اخفى منه

آثارهم التاريخية الكتابية

جاء في الكتاب المقدس في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ان بني حام كوش ومصرام وفوط وكنعان

وأن بني كوش سبا وحويلة وسبئة ورعمة وسبتكا . وأن بني رعمة سبا ودان . وجاء ايضاً ان كوش ولد نمرود الذي ابتداءً أن يكون جباراً في الارض وكان ابتداءً مملكته بابل وآرك وأكد وكلنة في أرض شنعار

أما نمرود من أولاد كوش فالنص صريح ان ابتداءً مملكته كان بابل وآرك وأكد وكلنة في أرض شنعار وهي العراق او معظم ما بين البصرة الى بغداد

وأما سبا من أولاده فمملكته سبا في بلاد العرب وعاصمة سبا مأرب حيث السد المشهور . وأما أرض حويلة فالمرجح فيها انها الهامة الكبرى وتشمل ولايات الوهايين الخمس الحريق والرياض والسدير والوشم والقصيم . وأما سبئة ورعمة وسبتكا فلا يبعد أن يكون رعمة هم بنو ريام الذين لا يزالون في شمالي عمان يتاخون أرض البحرين ثم لا يزال يعرف الى اليوم في أرض البحرين اسم سباودد على ما نقله ياقوت في معجم بلدانه المشهور إذا تدبرنا ما مرّ يمكننا أن نقول اجمالاً أن الكوشيين سكنوا اليمن او قسماً منه ونجداً وعمان وأرض البحرين وشرقي رأس خليج فارس حيث لا يزال بقايا اثرية من اسمهم متحجرة في خوزستان او بلاد خوز لان خوز وكوش لا يصعب على بصيرة الفيلولوجي أن يرى أحد الاسمين في صاحبه ثم في العراق ايضاً

وجاء في هذا الاصحاح ايضاً ان كنعان ولد سيدون بكره وحشاً . وبموجب هذا النص يكون حت ابن كنعان وكنعان اخو كوش فالنسبة او العلاقة الجنسية بموجب هذا النص التاريخي بين الكنعانيين والحثيين والكوشيين واضحة كل الوضوح

ولذا كان الكوشيون هاجروا الى العراق من شبه جزيرة العرب فاخوانهم الكنعانيون هاجروا منها ايضاً ويؤيد هذا ما هو منقول عن هيرودوتس ان الفينيقيين الكنعانيين الصيدونيين والصوريين كانوا اولاً في أرض البحرين ومنها هاجروا الى شواطئ المتوسط

ثم إذا سلمنا ان فوط وبنط واحد وأن بنط التي هي ارض الآلهة وأرض مشرق الشمس هي اليمن كما يذهب اليه الاكثرون اصبح من المرجح ان مواطن الكوشيين والكنعانيين الاولى كانت في شبه جزيرة العرب ومنها أرحلوا مهاجرين الى العراق وسوريا لنا هنا ملاحظة نذكرها وهي أن التاريخ المقدس بعد أن يذكر بني كوش يعود فيقول بعبارة خصوصية ان كوشاً ولد نمرود الذي ابتداءً أن يكون جباراً في الارض الذي كان جبار صيد امام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وآرك الخ. والانيان بالعبارة على هذه الصورة يستأنس منه ان بطناً من بطون الكوشيين ولنسمهم الناردة باسم نمرود رئيسهم كانوا اول من كانت لهم رئاسة في العراق ولان الكتاب يذكر اولاً بني كوش ومواطنهم وكلها في جزيرة العرب وفقاً لرأي الاكثرين من المحققين . فالناردة اذن مهاجرون الى العراق دخلاء عليه لا اهلوه الاصليون فيه

ثم لما صار للناردة الكوشيين رئاسة في العراق اخذت بطونهم الاخرى اذا انكرت شيئاً من حال معاشها في شبه الجزيرة ترحل الى العراق فيشتد بهم ازر اخوانهم هناك وصولهم بما يزيد في سلطانهم واتساع دائرة ملكهم فزاد ذلك من اطعامهم وهيج شهوة الفتح والاستيلاء فيهم فاحتاجوا الى المادة من الرجال فاستصرخوا ابناء عمهم الكنعانيين فضلاً عن اخوانهم من سبا ورعمة وحويلة فأصرخوهم فبعثوا حملة الى الشام ومصر كان الكنعانيون المقدمين فيها . والظاهر ان الحثيين او الحاطيين (باشباع فتح الحاء او بالتشديد وترك الاشباع) بقي معظمهم ما بين النهرين وشمالى سوريا

كان خطر لي أولاً ان الحملة الحثية على سوريا كانت مستعجلة وأنها سارت من هيت على طريق السماوة ووادي حوران وأنها من حوران اخذت طريق فتوحاتها شمالاً على الشام وبعلبك وحمص وحماء وحلب وانطاكية . ثم من حلب أخذت المريق كركميش وكبدوكية ومن انطاكية واسكندرونة بعد أن استولت على ابواب كيميكية تتبعت غزواتها في هذه البلاد غرباً وشمالاً . ولكنني الآن أرى غير ما ذكرت وأرجح ان الكوشيين أيام الناردة لما استتب لهم الملك على قسم كبير من العراق بين رأس خلبج فارس وبين بابل خافوا أن يتألب عليهم القوم وينبذوا سلطتهم فاستنجدوا اخوانهم الكنعانيين من حضرموت واليمن وعمان فجاؤوهم من كل حذب وصقع من أودية عين ودوعن وحضرموت . ومن اليمن من غورتهمامة ومجد قبائل كنانة وهمدان وخولان . ومن عمان وأرض البحرين قبائل وبطون كبيرة ومن جملتها وأكثرها عدداً الحاط او الخط او الحث فضاقت العراق عن هذه القبائل الكنعانية والكوشية وكانوا قد ذاقوا حلاوة

الاستيلاء والغلب ونحركت فيهم نهمة الغزو والفتح فسيروا القبائل التي جاءت لنجدتهم والتي رحلت اليهم في بَعْثَيْنِ بعث عن طريق دجلة وآخر عن طريق الفرات. أما بعث دجلة فترأس الحملة فيه اشور وأشور في الأرجح عبارة عن عشيرة كانت بين القبائل او البطون الكوشية النمرودية نخرجت من بابل في طريق دجلة غازية هي ومن انضم اليها من قبيلتها الكبرى فِدَوْخُوا البلاد حتى وصلوا الموصل فجعلوها عاصمة لهم ثم من ديار بكر امتدوا شرقاً وشمالاً ما استطاعوا حتى بلغوا اورمية ووان فصدتهم جبال اراراطا العالية وجبال قره ضاغ وطبرستان وما اليها من بلاد مادي عن التقدم . ولما توزع من محاربتهم على البلاد التي افتتحوها قلت الحامية عندهم فأصبح سكان البلاد المتأخين اقنالا لهم وعلى حروب متواصلة منهم فشغلهم ذلك عن التوسع وعن التطلع للرياسة الكبرى احيالاً . وأما بعث الفرات فساروا في طريقهم عليه حتى بلغوا كركميش ومن هناك صح فيهم قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

رأوا الفرات يأخذهم شمالاً الى جهات ملطية ورأوا ممداً له يأخذهم شمالاً بفرب الى عينتاب وعرعش وتلك الجهات . والظاهر ان سواحل سوريا ومصر كانت قبله لانظارهم فسار جمعهم الاكبر جنوباً يفتتحون مدن سوريا وفلسطين حتى بلغوا مصر فاشتد الكفاح بينهم وبين المصريين وانقشع عنهم غبارهم وقد استخلص الحثيون منهم الدلتا الكبيرة وكل مصر السفلى وانحازت الجنود المصرية فوقفت في ثيبا المعروفة خرائبها اليوم بالكرنك والاقصر حي منها او ضاحية من ضواحيها على ما أظن وكانت الحاميات الحثية والكنعانية قد قلت بما توزع منها على جانبي الفرات وفي الجزيرة وبعض كبدوكية وكيليكية وعلى الاخص في سوريا فعمدت صلحاً مع المصريين على الجزية او شيء منها ورضي المصريون بذلك

والذي أظنه أيضاً ان ملوك مصر لذلك الحين كانوا أصلاً من شبه جزير العرب من بلاد بنط بلاد الآلهة وبلاد مطلع الشمس ولكنهم كانوا قد استقلوا في مصر عن اوطانهم الاصلية وتلبسوا بالزي والعوائد والعبادات على ما كان عليه لونها وشكلها في مصر وتركوا من ازيائهم وعوائدهم وعباداتهم التي كانوا عليها حينما هاجروا من العربية الى العدو الثانية من البحر الاحمر وأخذوا ينظرون الآن الى الغزاة الذين اجتاحتهم عليهم بلادهم كما ينظرون المصريون اليوم « أو كما كانوا ينظرون ايام الفاطميين » الى العراقيين مثلاً او الى اهل عمان وحضرموت او الى اهل نجران ووادي دوار ولا سيّما اذا كانوا من القرامطة او من الاباضيين

الدكتور غراهم

فقدت جامعة بيروت الاميركانية طبيباً من خيرة اطبائها بل من خيرة اطباء كندا والولايات المتحدة بل من خيرة اطباء اوربا وأميركا

وقد كان في حيله لتلامذته والمدرسة الطبية الاميركانية في بيروت ما كان المرحومان الدكتور فاندريك والدكتور ورتبات لتلامذتهما ولتلك المدرسة في جيلهما مع بعض الفوارق الآتية

(اولاً) ان خدمة المرحوم الدكتور هرس غراهم بلغت اثنتين وثلاثين سنة ونيفاً وأما خدمة المرحومين للمدرسة فلم تتجاوز التسع عشرة سنة للمرحوم ورتبات والاربع عشرة للمرحوم كرنيليوس فاندريك

(ثانياً) ان الصفوف (الغرف) في ايام استاذينا الكبيرين فاندريك ورتبات كان معدل عدد تلامذتها اقل منه في ايام المرحوم غراهم فضلاً عن قصر مدة سني خدمتهما بالنسبة الى مدة سني خدمته كما المعنا . ولذلك فتلامذة المرحوم غراهم بلغ عددهم نحواً من خمسة اضعاف عدد تلامذتهما . ولايضاح ذلك اقول ان عدد تلامذة استاذنا الاكبر كرنيليوس فاندريك الذين اخذوا شهادتهم الطبية في ايامه لا يزيدون عن السبعين تلميذاً وأما عدد تلامذة المرحوم غراهم فبلغ الى السنة الفاشئة خمسمئة تلميذ ونيفاً . وكانوا اي تلامذة استاذنا الاكبر اكثرهم ان لم يكن كلهم من سوريا وأكثر هؤلاء الاكثر من لبنان فيما ارجح بخلاف تلامذة غراهم فانه كان بينهم الكثيرون من الارمن واليونان حتى كاد اللبنانيون يضيعون بينهم فضلاً عن اتوا من مملكة ايران ومن العراق وكردستان وروسيا ومن الاناضول والبلغار شمالاً وشرقاً ومن قبرص وجزر اليونان غرباً ومن مصر والسودان الى الحبشة جنوباً وكل هؤلاء فضلاً عن قد جاؤوا من المهاجر حملوا معهم اسم غراهم استاذاً من اكبر الاساتذة وطبيباً من اكبر الاطباء الذين يشار اليهم بالبنان كما كان يُشارُ الى استاذينا المرحومين الا ان دائرة شهرة المرحوم اتسعت وامتدت على نسبة عدد تلامذته وعلى نسبة تمدد بلدانهم وكثرتها

قضى هذا الاستاذ الكبير بحبه ومضى الى رحمة ربه في سبيل من مضى صباح الاثنين ٢٧ شباط الماضي (فبراير) ودفن يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاته

احس يوم الاثنين في عشرين شباط بشيء من الانحراف في صحته فلم يحفل به

وزاد ما به من الانحراف يوم الثلاثاء فنسب ذلك الى بدء نزلة صدرية كانت اعتادت ان تنتابه من قبل واستمر على ما كان عليه من تعاميم وزيارات طبية كماداته فدعي ذلك النهار لزيادة مريض مصاب بالتهاب دماغي من قبيل مرض النوم او نوع منه ويظن انه اخذته عدوى المرض من مريضه هذا . ويوم الاربعاء بمد الظهر دعي الى وادي شحرور فذهب وعاد قبيل الغروب وهو يحس بقفة برد وقشعريرة وقبل ان يصل الى بيته وجد احد اصدقائه ينتظره ليعود مريضاً عنده فذهب مع ذلك الصديق على رغم ما كان يشعر به من الضعف والانهطاط . واشتد عليه البرد في بيت ذلك الصديق بما لم يستطع اخفائه وتحمله فلُفِّف بحرامي صوفي وهكذا وصل الى بيته ومع ذلك بقي يكابر المرض ويقاويه

حكّت مسز غراهم قالت لما استفاق من نومه صباح الخميس رأيت البطاء ظاهراً في قيامه وقعوده ولباسه وسائر حركاته بما لم اعهد له منه من ذي قبل ولما جالس على المائدة رأيت اضرار صدرته غير مضبوطة التزير وكذلك شريطة حذائه . وهذا مما لم يسبق له به عادة فانه مذ كان لم يكن يتعافى عن الاناقة اللاتقة في اللباس والحذاء وما اليهما . قالت فعلمت بما رأيت انه ليس على استواء في صحته فقلت له أليس من الافضل ان تستريح اليوم في فراشك وترسل الى تلامذتك انك باقى في البيت فأجابني احب الي ان الاقي حتفي في شغلي لا على فراشي قال هذا وترك البيت الى المدرسة وهيئة التعب بادية على وجهه وفي جميع حركاته

ولحظ تلاميذه في المستشفى اثناء سماعه تقاريرهم الطبية كل عن مريضه او مرضاه انه لا نجاة له على استماعها كماداته ولحظوا ان احدى شرائط حذائه محمولة وأنه حاول عتمدها غير مرة فلم يقدر فتركها على حالها . ولما تم سماع التقارير قام يريد الدخول الى احدى الغرف الخصوصية فلم تساعده قواه فسقط الى الارض لا يعي فحمل حمله الى سرير في المستشفى فبقي فيه الى ان لفظ انفاسه الاخيرة

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى عرفت بيروت عن آخرها بمرضه واشتد قلق الناس عليه يوم الجمعة مساء وتواردوا رجالاً ونساء على بيته وعلى المستشفى يسألون عن صحته وزاد اضطراب المدينة عليه مساء السبت ونهار الاحد نلم يبق حديث غير حديث غراهم او الحديث عن غراهم وعن ضعف الامل بشفائه وعظم الخسارة التي تخسرها المدينة والبلاد عموماً بفقدته وبدأ الناس يتحدثون بأخلاقه وما كان من شدة اهتمامه بمرضه فضلاً عن مهارته في صناعته وأخذوا يقصون عنه اقايص كانت الى ذلك الوقت محفوظة في صدور اصحابها

اقاصيص عما كان يفعله سرّاً من مساعدة من كان يراهم محتاجين الى المساعدة حقيقة ويستحقونها وعن عرفانه الجميل لمعارفه وأصدقائه ولا سيما من كان منهم اندفع ببامل شهامة لتقديم خدمة له اياً كان

سمعت محدثاً يحدث قال اول ما جاء الدكتور غراهم الى بيروت كان رقيق الحاشية وكان يحب ان يظهر بمظهر اجتماعي يليق به وبصناعته ومركزه فذهب الى فلان احد الخياطين وقال له هل تصنع لي ثلاث بذلات ثياب وتذهبي بالثمن مدة قال الخياط مظهرّاً الارحية والمسرة نعم بكل سرور اصنع لك ما شئت وأهلك بالثمن ما شئت حدث بعد ذلك ان مرض هذا الخياط فاستدعى الدكتور غراهم ولما ابل طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا ورقة حساب لك عندي فقد سبق فدفعتها لي معروفاً قال الخياط لكن يا دكتور انا موفق في شغلي لله الحمد وأستطيع ادفع حسابك ولا اشعر بشيء من التضيق على نفسي وعيالي ولا على شغلي ورأس مالي فلم يسمع المرحوم برهانه ولا أصغى لاحاحه في قبول اجرة زيارته

ثم حدث ان مرضت امرأة الخياط فدعاها لعيادتها وبعد ان تماثلت الى الصحة ولم يبق من حاجة الى طبيب ولا الى طيبب طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا حساب لك عندي وأصرّ الخياط على ان له حساباً . وعلمت من المحدث ان الدكتور رحمه الله ما زال الى ان توفي لا يتقاضى صديقه الخياط الا نصف ما كان يتقاضى امثاله ممن كانوا يتطیبون عليه

لما اشتد الحال بالدكتور نهار الاحد لم يبق بيت من بيوت بيروت المعروفة لم يعرف ذلك كأَن مئات من التلغرافات او التلغونات كانت تنقل اخبار مرضه وتقارير الاطباء اليه بل كان يتناقل بأسرع من البرق ما كانت تهمس به عنه الاطباء همساً فيما بينهم . وأسبابه ان المتوافدين الى بيته والى المستشفى للسؤال عنه كانوا كثيرين يأتون جماعات جماعات فتلقتي الجماعة الراجعة مع القادمة احياناً على باب بيته او على بوابة المستشفى وكان الراجعون يسألون وهم في الطريق وعلى ابواب بيوتهم قبل ان ينزلوا من مركباتهم او اتومبيلاتهم عن سلامة الدكتور وماذا سمعوا عنه وما يحییون به كان يتناقله السامعون الى جيرانهم ومن هؤلاء الى جيرانهم وهم جرّاً وكانت الامهات اشد حزناً وجزعاً عليه من الآباء . وأي ربة بيت معروف في بيروت لم تكن تعرف الدكتور غراهم ولها تمام الثقة به ان من جهة نفسها او من جهة زوجها وأولادها

يوم الاحد مساء ظهرت عليه امارات التحسن خف وجيب القلوب واستبشر الناس

وباتوا يتعللون بالآمال وكذلك أصبحوا وفاتهم اختبار الاحياء الذي اعرب عنه الشاعر حيث قال

وسالمتك الليالي فاغررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر
فانهم قبل ان تهزم هزة الفرح بخبر تسن حاله فوجئوا بخبر موته وكان ذلك الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ صباحاً . توفي فجأة بما وصل من الالتهاب الى مركز التنفس فعاد التراب الى التراب وعادت النفس الى خالقها . وما كان اكثر الباكين عليه وما كان اكثر المسترجمين اما الجامعة الاميركانية فكانما اصابها زلزال انتقضت له من اساساتها وحادث منه ذات العين وذات الشمال جدرانها فوقف من فيها حيارى اساندة ومعلمين وتلامذة لا ينسون بينت شفة وخفتت اصواتهم جميعاً

اما التلامذة الطيبون فكنت تراهم سفع الوجوه مبهوتينها مطرقين بأعينهم الى الارض كأنهم يخافون ان يتكلموا فيقولوا غير ما يريدون . ولما اعلن نائب الرئيس خبر وفاته كان كل من حضر بدموعه نحس ذلك في صوته وكأنك به لا يجب ان يصدق ما يقول لهوله وشدة وقعه في نفسه فذكرتني حالته بقول القائل منذ الف سنة

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت به في الافواه ألسنها والبرد في الطرق والافلام في الكتب

وكانني بأياته هذه تصور احساسات نائب رئيسنا وجميع اسانذتنا واحساسات بقية المعلمين والتلاميذ ولا سيما تلاميذ القسم الطبي

ولم يلبث الحال طويلاً بعد اعلان خبر الوفاة حتى نظر اهل رأس بيروت الراية الاميركانية تحفّق مخنوقة على سارية عالية فوق برج بناء القسم العلمي ثم لم تلبث الريح التي كانت تهب كلية ان هبت هوجاء نائرة تحاول عزيق الراية او ترمي بها في مجاهل الفضاء فلما اعيها ذلك عمدت الى السحائب فساقتها امامها جبلاً وعقدت مياهاها دموعاً اراقها حزناً بالغاً على من استنزف عيون البيرونيين دمعاً وقلوبهم اسى وأسفاً ولا سيما ابناء جامعته الاميركانية

نقل جثمان المرحوم بعد ظهر الاثنين الى صدر ممتدى الجامعة الاكبر وأقبل تلاميذه وأصحابه يودغونه ويرونه لآخر مرة في هذه الحياة الدنيا فتوارد المودعون زرافات زرافات من بعد ظهر الاثنين الى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء

وفي الساعة العاشرة صلي عليه فكان المشهد رهيباً جداً فانه على امتلاء النادي حتى لم يعد

يسع الحضور وكاد لا يستطيع متقدم ان يتقدم ولا متأخر ان يتأخر كان السكوت تاماً لا يجسر متهم ان يتمهد ولا بالك ان ينشج حتى ولا مصدر ان ينفث. وبعد الصلاة حمل التابوت تلاذته الى بوابة الطيبة حيث وُضع في سيارة خاصة والناس قد ملأوا الساحات والطرق والمشارف المجاورة

وسارت به جنازته وكأنما سارت المدينة كلها وراءها ولا غرابة في ذلك فان الشخصية الكبيرة تؤثر في النفوس على نسبة بعد همها واتساع دائرة عملها سواء كان صاحب تلك الشخصية طبيباً او معلماً عالماً من علماء الدين الافاضل او من علماء الدنيا لا فرق او كان ذا منصب شغله لوجهته وغناه فانه يكتب في النفوس وعلى القلوب بأعماله صورة تظهر بالصورة التي اراها امام عيني وأنا اكتب ما اكتب عن هذه الشخصية الكبيرة اعني شخصية الدكتور غرام

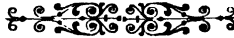
من يصنع الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس ولد الدكتور غرام في كرتون من اعمال كندا في الخامس عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٦٢ وكان اكبر اولاد ابيه من امرأته الثانية فهو اخ لسبعة عشر اخاً وأختاً وكانت كرتون مسقط رأسه مدينة صغيرة حينئذ لكن كان فيها من المدارس العمومية ما لا ينقص عن غيرها من امثالها فدرس فيها الى أن بلغ السابعة عشرة وعلم بضعة اشهر في بعضها ثم ترك التعليم وأقبل على صناعة ابيه وكان صانع مركبات وجعل همه صنع المركبات وتعلوبنها وبعد ان اتقن هذه المهنة عاد الى طلب العلم وتعلم في جامعة تورنتو ثم لجامعة ولاية ميشيغان حيث اخذ شهادته الطبية

ثم ارتبط بخدمة مجمع بوسطن التبشيري طبيباً لارسالية عينتاب وفي طريقه اليها مرّاً بالاسكندرية وعقد على شهادته الطبية. وفيما هو هناك تعرف بابنة احد مشاهير الوعّاظ الاميركان فآوّن بها في الثالث من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٨٥ فكانت له افضل رفيق ومعين الى ان توفاه الله

وبقي في خدمة الارسالية في عينتاب ثلاث سنوات رفيقاً للدكتور شبرد ومساعداً له في مستشفى تلك المدينة ومدرستها الطبية التي كانت تابعة لكلية تركيا المركزية او الوسطى (Central Turkey College) وانتقل في شتاء سنة ١٩٨٨ الى حلب حيث بقي نحواً من سنة في خدمة ارسالية في تلك المدينة ومن هناك انتقل الى بيروت سنة ١٩٨٩ وارتبط بالكلية الاميركانية الطبية فلم يلبث ان تعين استاذاً فيها ولم يمّ السنة حتى مكّن نفسه في نفوس التلامذة ورفاقه من الاساندة والمعين وامتلك

اكرام دائرة مديري الكلية ولم تأت السنة الثالثة حتى عرف اسمه في بيروت وفي
اماكن عديدة خارجاً عنها وصار يقصد من الجهات البعيدة ويرجع اليه في بيروت عند الشدة
عرفتُ من احد تلامذته سنة ١٨٩٥ ان تلامذة الكيمياء وكان قد تولى تعليمها
بداعي تسيب استاذها كانوا يجتهدون ان يراجعوا طَوَّلَات هذا العلم تحكُّكاً به وتبجحاً بعلومهم
عليه فكانوا يرونه ابدأً فوقهم يعرف ما عرفوه وما يزيد عنه وهكذا اتفق لغيرهم في
فرع آخر لم يكن استاذهم فجزبوا ما جربه طلبة الكيمياء فوصلوا الى ما وصل اليه تلامذة
ذلك الصف

قال فيه احد رفاقه الاساتذة انه «عت الكتب» لانه كان لا تفارقه الكتب يطالعها
مطالعة درس: تبجر لا مطالعة تسلية وتَشَبُّع فايغتبر به المعتبر وليعلم ان شهرته ومكانته في
النفوس لم تأت عفواً ولا اتفاقاً ولكنه اكتسبها بشق النفس وبعد الهمة والمثابرة على العمل
وقبل ان اختم كلامي عنه اقول انه شديد العناية بمريضه يظهر اعظم اهتمام بمريضه
مهما كان ويبالغ في فحصه فلا يفرغ من ذلك حتى يملك ثقة مريضه تمام الامتلاك. وكان
فوق ذلك حلو المعشر فكذلك الحديث سريع الملاحظة لا يتبرم بعليل ولا يتضجر من كثرة
مراجعة ولو كانت في غير محله



مواد كلية في النحو واللغة

مديون ام مدين — معاهدة ام تظاهرة — مرسح ام مرسح

استاذي العزيز الدكتور صروف لا عدته

ان اشتغالي السنين الطويلة في درس النحو واللغة وتدريسهما يُسوّغ لي ان اعرض المواد الآتية على انظاركم وأنظار المفكرين في هذه المسائل والمشتغلين بها العمل فيها ما يافت النظر من جديد الى هذه المباحث التي يجب ان يُنظر فيها كما ينظر الى سائر الابحاث الادبية والاجتماعية في الوقت الحاضر اي نظراً مبنياً على قواعد راهنة يتفق فيها العقل والنقل معاً ويُطرح فيها كل رأي ليس فيه ما يقبله العقل بوجه من الوجوه المنطقية المقبولة لدى اولي الفكرة والنظر الصحيح. وحسبي فيما اكتبه الان ان انبه به خواطر ادبائنا وعلماثنا الاعلام المتحفزة مثل هذه المسائل الى ملاحقة هذه الابحاث وايضاح ما غمض منها ولهم اجر المحقق المستقصي ولي اجر المتبني المبتدي. وغاية ما اؤمله ان لا اكون قد ضللت السبيل المؤدي الى نفص هذه المفازة البعيدة الارحاء والغاءضتها معاً والله الموفق الى الصواب

﴿المادة الاولى﴾ كل ما عدل عنه من المسائل الاعرابية لغرض ما كالاتقوال مثلاً او خلافه فالمعدول جواز لا وجوب. والرجوع الى المعدول عنه لاقامة وزن او لحسن رصف مثلاً جائز مطلقاً وكذلك اذا لم يكن الثقل على معظمه مثلاً المنقوص من الاسماء المربة كالقاضي والماشي تقدّر عليه كل الحركات مطاقاً للخفة ولاسيا الضمة والكسرة فاذا احتيج اليها اي الى الحركة او لم يكن الثقل على معظمه عادوا الى الاصل قال بعضهم

ولو ان واش بالجماعة داره وداري بأعلى حضر موت اهتدى ليا وقال آخر

يا قاضي الحب اتد في قتلي فالخط زور والشهود سكارى

قدر الاول الحركة على « واش » تخفيفاً واقامة للوزن وأظهرها الثاني على « قاضي » للحاجة اليها. ويجوز له اظهارها ايضاً من غير حاجة لان الثقل ليس على اشدّه كما لو كانت الحركة ضمة او كسرة فان الذوق يأبى الرجوع اليها حينئذ من غير ما حاجة وكذلك الاسماء غير المنصرفة فانها تخرج بالفتحة ولا تتون للثقل فاذا احتيج الى الحركة

والتنوين كان للمحتاج ان يرجع الى الاصل قال امرؤ القيس
ولما دخلت الحدر حدر غنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي
احتاج الى التنوين فصرف ونون

وجاء في أفصح كلام عربي منثور نقل الينا تنوين «سلاسل» لغير ما حاجة لان الثقل
الخصوصية في اللفظة يدركها الذوق ليس هو على اشده. ولو ترك قارىء التنوين في الآيه
لاختل ايضاً حسن الرصف اختلالاً شديداً كما لا يخفى على ذي ذوق
وكما جاز الرجوع الى التنوين في الاعلام غير المنصرفه للحاجة او للخفة جاز في
المنصرفه منها ترك التنوين للغرض نفسه قال بعضهم.

ادور على رضاك ولا اراه كاني طالب لسعيد منلا

﴿المادة الثانية﴾ حرف المد المتطرف كالياء في قاضي وساعي ويقضي وكالاف
في فتى وأفتى ويسعى وكالواو في يغزو هو عبارة عن حركة مشبعة فاذا جاء بعده ساكن من
تنوين او ال تعريف تُرك الاشباع كقولهم فتى ولا كمالك وفتى الفتيان وقاضي القضاة .
ويقضي الله بما يشاء . وكقولك كانوا وهم في الجاهلية تغزو القبيلة احتها . كل ذلك يحذف
فيه حرف المد لفظاً لا خطأ . هذا هو الاصل وترك هذا الاصل مع التنوين في مثل قاض
دون فتى وكذلك مع الجازم في الفعل المجزوم كلم يقض الدين الذي عليه لا وجه له ولا
مسوّغ . وتعليل النحاة ان الجازم لما لم يجد الحركة في آخر الفعل اخذ حرف العلة الشبيه
بها ، لتعليل لا منطق فيه اصلاً . وبقاء هذا التعليل معمولاً به عندنا الى اليوم وصمة في
منطقنا لا يمحوها الا محو اثره من مكتوباتنا المستجدة. والذي اراه هو ان نكتب المجزوم
والمرفوع في مثل — لم يرى الراون - ولا يرى الراون — بصورة واحدة اي باثبات
حرف العلة خطأ في الحالتين والا فالحذف لفظاً وخطأ اولى فيهما لاشتراكهما في العلة
الواحدة وغاية ما تساهل فيه ان يبقى الاسم القديم على حاله في المشهورات المعروفة لدى
الخاص والعام ولا أرى هذه الميزة الا لما رسم في المصحف . وأما ما سواه من الرسوم
القديمة التي توبعوا فيها فأرى ان لكل رأيه اي ان يبقى على الخطأ في الرسم او يرجع
فيه الى الاصل كما يدها

﴿المادة الثالثة﴾ كل ما هو متعارف اعراباً في لغة مشهورة كالغة تميم مثلاً او لغة
الحجاز او تهامة او نجد فلكل ان يجري على ما يعرفه من هذه اللغات فتقول « ما قتل
الحب حراماً او حرامٌ » و « ليس الطيب الا المسكُ او المسكُ » بالاعمال او الاهال .
وقد يدخل تحت هذه المادة الجوازم والتواصب فانه عند الحاجة يجوز اهلها كما يجوز اعمالها

وهنا أقول ان كل لغة في الاعراب جاءت في المصحف في احدى القراءات المعتبرة
يجوز القياس عليها اطراداً في كل الباب ولا سيما عند الحاجة. ومن ذلك الوقف على آخر
المضارع في الدرج فان القراءة وردت فيه وعليها قول الشاعر الصحابي « كما ارجع »
اني امر ولا عاهدني خليلي الا اقيم الدهر في الكبول
أضرب بسيف الله والرسول

فانه وقف على المضارع في الدرج فترك علامة الاعراب ، ولما كان الشاعر من صميم
العرب وفصحائهم وفوق ذلك وافق في شعره ما جاء في المصحف كان لنا أن نتابعه في
كل صيغة مضارع حيثما جاءت ولا سيما اذا كان في الوقف حسن رصف أو اقامة وزن .
وأزيد فأقول ان الوقف هو الاصل وعلامة الاعراب عارضة وكان يجاء بها ابتداء لاقامة
الوزن في الشعر او للغة وما اليها ثم اصبحت يؤتى بها تسهيلاً للفهم. والمعارض لا يعدل
اليه عدولاً وجوباً الا لعلته التي اوجبته فأرجو متأملاً أن يتأمل ولا يستهويه قول أغراب
عن اللغة لتقدم زمانهم ليس الا

استطراد

يخال الي ان هنا مناسبة بين ما ذكرته وبين ما جاء للامام السيوطي في مزهره
المشهور نقلاً عن ابي زيد احد الذين نقلت الينا اللغة عن رواياتهم قال (١) طفت في عليا
هوازن وهذيل اسألهم عن هذا الحرف وهو كل فعل ثلاثي مفتوح العين وليس ثانيه
وثالثه من حروف الحلقي ولا من الحرف الهاوي ، بالضم هو في المضارع ام بالكسر ، فلم
أرهم يفرقون بين الحركتين بل يلفظ لافظهم كما يتبها له فيقولون ضرب يضرب ونقر
ينقر ونصر ينصر بالضم او بالكسر اه . وأنا اعجب من بعضهم على علمهم واتساع مطالعاتهم
كيف يضيقون على انفسهم وعلى غيرهم في هذه الحركة فينكرون على من يقول يضرب
بالضم او ينصر بالكسر اشد النكير كما نه قال ما يقرب من الكفر

﴿ المادة الرابعة ﴾ في الالفاظ المشتقة ما وافق القياس المشهور والمتعارف هو أولى
بالاستعمال من الجائز فيه مثاله

اسم المفعول يأتي من كل فعل ثلاثي متعد على وزن مفعول الا انه من الاجوف قد
ترك واوه للاخفة فتقلب صورة مفعول الى فعول او فيعل واليك بيان ذلك

(١) نقلت هذا عن ذاكرتي وأخاف ان تكون خاتفي في نقل النص بحرفه فايراجع المزمع
شاك وله الفضل

تقول من صان مصوون بالآتمام على الاصل ومصون بالنقص وواضح ان لفظ مصون قريب في السمع من لفظ مصوون وفي الوقت نفسه هو أسهل لفظاً منه على اللسان وأشهى في السمع ولهذا يعدل اليه دون الاصل . وقد بينّا فيما مر ان كلاً عدل فيه عن الاصل للخفة يجوز الرجوع فيه الى الاصل عند الحاجة او اذا لم يكن الثقل على اشدّه

مديون ام مدين

وتقول من الاجوف الياء باع يبيع مبيوع فتركوا لفظ مبيوع الى مبيع ولا يتم ذلك الا بقلب الضمة كسرة بدلا — والضمّة والكسرة تبدل احداها من الاخرى بكثرة — ثم بقلب الواو ياء تبعاً لقلب الضمة كسرة ثانياً فيصير اللفظ الى مَبْيِيع وهذا يقاب الى مَبْيِيع ولعل لفظ مبيع اخف شيئاً من لفظ مبيوع كما ان لفظ مصون اخف شيئاً من لفظ مصوون . ولأن اللفظين يردان كثيراً على الالسنّة والفرق بينهما في الحفّة ليس على اشدّه جاء في الخيار من غير ما حاجة استعمال الصورتين . فقالوا مصوون ومصون ومبيع ومبيوع لكن يقال بالاجمال ان الاجوف الياء يكثر فيه الاتمام على الالسنّة ويكثر في الواوي النقص مع بقاء الواو او قلبها ياء فتقول من دان يدين مديون بالآتمام فانه اكثر دوراناً على الالسنّة قديماً وحديثاً . الا ان بعض الادباء او معظمهم قد عدلوا مؤخراً عن استعمال مديون الى استعمال مدين ولم يحفلوا بقوانين البلاغة التي توجب اختيار المتعارف والمألوف دون غيره . ومع ان هؤلاء الادباء قد اخطأوا الاختيار في استعمالهم مدين دون مديون « على ما أرى » فيحق لهم ان يعتمدوا على ذوقهم في غيره فليس كل «مفعول» من الباقي بفضل فيه الاتمام ولا كل «مفعول» من الواوي يستحسن فيه النقص فان لفاء الفعل ولا مة دخلاً كبيراً في ترجيح اختيار احدي الصورتين دون اختها لحسن وقعها في السمع او لسهولة التلفظ بها على اللسان

مظاهرة ام تظاهرة

رأيت كثيرين منذ اسنة التي مضت يعدلون الى تظاهرة بدلا من مظاهرة الشائمة والمشهورة في الاستعمال ولا أرى وجهاً لهذا العدول وبإياه :

تقول ظاهر زيد عمرأ عاونّه فتظاهرا أي تعاونا كما نقول شارك زيد عمرأ فتشاركا ونقول ظاهر القوم بعضهم بعضاً فتظاهروا اي تعاونوا كما نقول شارك القوم بعضهم بعضاً فتشاركوا ولا نقول تظاهر الترم بعضهم بعضاً كما لا نقول تشارك القوم بعضهم بعضاً .

وقول اعجبي مظاهره القوم بعضهم بعضاً ومشاركتهم بعضهم بعضاً تبعاً لفاعليهما وبستغنى
ايضاً في المثالين عن ذكر « بعضهم بعضاً » ولا نقول اعجبي تظاهرة القوم ولا تشاركهم
بدون اتباع المثالين بقولنا « بعضهم بعضاً او بعضهم لبعض » لان المظاهرة كفعلها خاصة
بالتعاون فيستغنى معها بالاضافة عن القيد. وأما التظاهرة فإذا لم تقيد احتملت كفعلها معنى
التعاون او التدابر لان قولنا تظاهر القوم بالاطلاق اي بدون قيد يجوز فيه فهم معنى
المعاونة ومعنى انتداب وانقاطعة فلا بد اذن من القرينة لتعيين معنى المعاونة كان نقول تظاهر
القوم على عدوهم بخلاف المظاهرة فلها خاصة بالمعاونة مطلقاً فلا يحتاج الى ذكر القرينة

وبناء على كل ما مر ارى انه يجوز استعمال مظاهره مطلقاً لعدم الخطاء في استعمالها
ان مر جهة اللفظ او من جهة المعنى وأما تظاهرة فلا يجوز استعمالها اصلاً للخطأ الفكري
الذي قد لا نقتن له فيسرع مع الغفلة عنه الى تجويز ما لا يجوز الا اذا نفعنا اللفظ عما
هو موضوع له اعتباطاً. وفوق كل ذي علم عليم

مرسح ام مسرح

وما اراه يقرب من باب مظاهره وتظاهرة ما ذاع مؤخراً من استعمال مسرح بدلا
من مرسح واستعمال كلا اللفظين للمعنى المراد به اليوم هو من باب النقل المبني على المجاز
اي استعمال الاصل فيما هو ملابس له او فيما هو شبيه به فلننظر في اللفظين ايها اولى
من صاحبه في المعنى الذي نقل اليه

ان لفظ مرسح معروف الاستعمال في الشام كلها بمعنى الفسحة الواسعة في القرية
يجتمع فيها الناس ايام افراحهم وأعيادهم ليلاً او نهراً فيلعب اللاعبون ويرقص الراقصون
ويتبارى المتبارون حتى ويمثل الممثلون في هذه الفسحة ويجلس غيرهم حوالها من كل
الجهات او من اكثرها يتفرجون وقد يكون في القرية عدة فسح كمديد الحارات تقام فيها
هذه المراسح (١). والفرق بينها وبين ما يسميه الادباء الآن بمسرح التمثيل (عدولاً عن
مراسح) اما هو في ان المرسح القديم فسحة من الارض لا بناء عليها والمسرح الجديد عليه
بناء . واذا راجعنا تاريخ هذه المراسح او (المسارح) الى اول نشأتها عند اليونان رأيناها
كالمراسح الباقية في اغلب قرانا الشامية الى اليوم . والمتشابهة ظاهرة كل الظهور بين الحالة
الاولى للمرسح والحالة الثانية التي نقل اليها وكذلك الغرض منها . اذن فنقل استعمال لفظ

(١) المرسح في الاصل للفسحة اي المكان ويجوز استعماله لما يقع فيه لانه من ملابساته التي تدرك باذراكه

المسرح الى صورته المستجدة لا غبار عليه — الا ان يرجع الى الحصن الحصين لبعضهم —
اعني « لم يرد » او لم ينقل في معاجم اللغة
وهنا نسأل هل نقل لفظ مسرح في المعاجم لهذا المعنى او لشبيهه به. الجواب: لا اظن
ان منصفاً يحجب بالاجاب عن هذا السؤال. اذن فلنرجع الى اصل معنى الفعل المشتق منه
لفظ المسرح

جاء في محيط المحيط مسرح المال يسرح سام أي رعى بنفسه. وسرح الراعي المواشي
سرحاً اسامها اي ارسلها ترحى. يتعدى ولا يتعدى. وسرح الرجل « سرح ». وبوله انفجر .
وما في صدره اخرجه وفلاناً ارسله وسرح الراعي المواشي اسامها . والسارح اسم فاعل
والماشية مومته سارحة

وانت ترى ان ليس في معاني الفعل ما ينطبق بل ولا يناسب ان ينطبق على المعنى
المشتقة له هذه الصيغة اذن فليكن يصح استعمال المشتق يجب ان نستعمل الفعل في معنى لم
يرد له استعمال اصلاً فبالاولى ان يكون المعنى المراد لمشتقه لم يرد ايضاً او لم ينقل فهو
اذن ولفظة مسرح سواء من هذا القبيل اي ان كلاً منها « لم يرد » لكن لمسرح قدمية
وشيوع ليستا لمسرح فضلاً عن ان لفظ مسرح خاص ولفظ مسرح مشترك بين معان كثيرة
وبعضها يؤنف من تصورهما اذا احضرها الذهن امامه

وأزيد فأقول ان لفظ مسرح من الاوزان العربية الفصحى وله في الاستعمال مئات السنين
شائعاً عاماً في قطر عربي كان ولا يزال جزءاً من صميم البلاد العربية منذ اقدم الايام الى
اليوم بل ارجح انه معروف ايضاً في مصر والعراق بالمعنى الشائع والمعروف في طول
بلاد الشام وعرضها

وهذا القدر يكفيني الآن. ولعلي أعود الى متابعة الموضوع اذا مكنتني صحي ورأيت
عند الادباء ومحبي اللغة اهتماماً يزيد من رغبتني في الكتابة والسلام

الدكتور صروف معلما

أنا لا أطمع ان أباري ولا ان أقارب ما كتبته الافاضل في سيرة أستاذي وخلقه ومكاته لغوياً وأديباً . ولكني أحد تلاميذه ، وقد عرفته في صباي معلماً في برج صافيتا وعرفته في فجر شبابي أستاذاً ومعلماً في الكلية الاميركانية ببيروت ثم في المقتطف في تلك الكلية وأخيراً عرفته في مصر في المقتطف أستاذاً معلماً ثم دكتوراً معلماً . فازلتُ اذن منذ صيف سنة ١٨٦٩ الى ان توفاه الله تلميذاً محبباً لهذا الاستاذ الخالد ما خلد علمه وأدبه وفضله

وهيات ان يمجى خلوده الابحاء عمرانا الاجتماعي عن آخره بمجاجة سماوية تمحو الانسان وأثر الانسان عن هذه الكرة الارضية التي ولد ودرج وترعرع وشب فيها العقل البشري حتى وصل الى الدرجة التي وصل اليها بأحد ابناؤها الشرقيين المرحوم الدكتور يعقوب صروف

كان أحلى من شهد العسل في فمي ان أخطبه شفاهاً وعلى صفحات المقتطف بيا أستاذي العزيز . وأنا أطمع ان يقبل ادعائي الآن اني كنت أحب تلامذته له — ولا أجسر ان أقول اليه — بظاهر ياني او حجتي الآتية وهي: انه كان أحب معلمي الي في برج صافيتا ولم أكن قد أتممت الحادية عشرة من عمري . ثم كان معلمي في الكلية الاميركانية ثم معلمي في المقتطف في الكلية وفي مصر كما أنشرت سابقاً . ولا أظن ان تلميذاً آخر غيري عرفه معلماً له في الاحوال الثلاثة التي عرفته بها وفي جميعها . كان عندي هو هو ، المعلم الصالح الذي تعطر النفس بحبته وتملؤها « في حضرته وغيبته » سلاماً واطمئناناً فضلاً عن الشعور الباطن انه لها موثلاً وملاذاً . واذا كنت أنا أعرفهم به فأنا أحبهم له

ما نسيتُ ولا أنسى عدة مشاهد وعبارات شاهدها وسمعتها منذ ثمان وخمسين سنة لان فيها صورة المعلم يعقوب صروف واعجابي بالمعلم يعقوب صروف

اني لا أنسى صورة بيت الشيخ اسبر ضومط في يوم جميل من أجل أيام الصيف في برج صافيتا — السماء زرقاء لا أثر فيها لقزعة من سحب ولا لاغبرار ما حتى فوق مياه البحر في الافق البعيد . حائط الدار من الحجر الازرق المختاف الاقدار والاشكال

وفوقه من بعض جهاته ما يحويه من الشوك دون من يحاول الصعود عليه . باب البيت من الحشب السميك السنديان أو الجوز — لا أعلم أيهما كان — الا ان ألواح مختلغة السمك حتى في اللوح الواحد وأظنها لم يُشَدَّ بها منشار منشار حاذق ولا أزال خشوتها فارة نجار ماهر . وعليه سكرة ضخمة من الحشب تدخل في طاقة (ثقب) غير نافذة في صدغ الحائط مساميره المشدودة بها الألواح الى العارضتين العليا والسفلى من خشب يسمونها خواير . وعن يمين الباب الى جهة الجنوب مصطبة تعلو شيئاً قليلاً عن الدار مسقوفة بأغصان شجر الفار وجدارها الجنوبي والغربي قائمان على قوائم مما يُعرف هناك باسم « قشش » عليها عوارض من مثلها ومغطى على شبه المربعات بين القوائم والعوارض بغرف من أغصان البلوط والسنديان والريحان وما حضر خلاف ما ذكرنا

قبال هذه الخيمة في صباح أحد كما أظن الآن أتصور ولداً ينظر الى المعلم يعقوب يكلم المعلم الآخر واسمه المعلم ابراهيم وهو باسم الوجه ضاحك العينين . ان صورة المعلم يعقوب أنجليها الآن بكل وضوح بخلاف صورة معلمي الآخر وكان سبق حضوره الى برج صافيتا حضور المعلم يعقوب بأشهر وبقي بعده في المدرسة يعلمنا عدة أشهر ولكني لا أذكر له الآن صورة قبل صورته هذه — اي التي مع صورة المعلم يعقوب — ولا بعدها، وفي الوقت نفسه هي صورة مضطربة في ذهني لا تستقر على حال

بعد هذا اليوم ببضعة أيام وفي مثله من الجمال ونقاوة الجو أتصور ولداً راجعاً من جهة ظهر بيت سيمان حيث كانت المدرسة وحيث بيت الشيخ اسبر ضومط على مقربة منها وهو يشب على الطريق وثباً ولا أزال أشعر بهزة سرور لسروره كلما تخيلت صورته هذه: وسبب سروره كان ان المعلم يعقوب علمه أسماء الحروف الهجائية بالافرنجي ولفظها بما يقابلها من الحروف الهجائية العربية . فترك عمّاً ولا خالاً ولا خالة ولا ابن عم او خال بل ما ترك رقيقاً من أترابه رآه ذلك اليوم الا وأخبره بذلك

مرت أيام عطلة المدرسة الكلية الصيفية ورجع المعلم يعقوب في آخرها ليم سنته الاخيرة فيها وبقي التلميذ المتوهم في نفسه انه تلميذه يحلم به المرة بعد المرة ويقوم في الصباح باكراً يقص حلمه على أمه ثم على كل واحد من أهل الدار وعلى غيرهم من الحيران حتى كثيراً ما أضجر أمه فاضطر ان يسكت خيفة من ضرب مكنتها — انها كانت تعصبة أحياناً بالمكنتسة لتفتأ من غيظها او غضبها على ثرثرتها وفي الوقت نفسه لا تؤذيه وقد لا توجعه أحياناً « وان أوهمته انها توهمت ذلك » ولم تكن تحفل بتطير المتطيرين بالضرب بالمكنتسة — سمعت مرة جارتها امرأة موسى برهوم تقول لها : أما هو حرام عليك

تضريه بالممكنة - فأجابتها أمي : « يا ويلي أخاف يا مرة عمي اذا ضربته بغير الممكنة أذبه او على الاقل وجمو : وما لي قلب أسمعو بيكي وهوي الله برضى عليه اذا حس على شيء ما يبرضيني ما يعملو »

السلام عليكم يا أستاذي العزيز ورحمك الله فانك انت أنت الذي تثير أشجاني « وما أحلى أشجانتا هذه » بذكري ما أذكره الآن من محبة الامّ الفاضلة واشفاقها ولولاك لكانت هذه التذكريات انحّت من خيالي ولكنها لم تخلد بالتفافها حول صورتك الخالدة التي كانت في ذهني والتي سيخلدها تدوينها في مقتطفك المحبوب الخالد الى ما شاء الله بعد سنة من هذه التذكريات التي مرت سمحت أم جبر لابنها وحيدها ان يفارقها الى مدرسة عبيه الاميركانية رغم انكار كل نساء برج صافيتا عليها ان تسمح له يتغرب عنها الى قرية تبعد ثلاثة أيام عن قريبها وأرجح ان أكثر ما دعاها الى سباحها لابنها بالذهاب الى مدرسة عبيه - التي كانت في ذلك الزمان أبعد من أبعد البدان النائية التي يتغرب اليها أبناء تلك القرية اليوم - هو إعجابها بالمعلم يعقوب وتهذيبه

هناك بدأت أسمع عن معلمي وأعرف عنه ما لم أكن عرفته من قبل فزادني ما عرفته محبة واحتراماً فوق ما كان له قبلاً مراراً. وآخر الامر وصلت الى ما كنت بدأت أحلم به وأنشؤف اليه في السنة الثانية من اقامتي في مدرسة عبيه الاميركانية اي الانتقال منها الى المدرسة الكلية في بيروت المدرسة التي أخذ منها معلمي علمه وكان قد انطبع في ذهني ان لا معلم فوقه « ولم يتغير هذا المطبوع بعد »

في سنة ١٨٧٢ في شهر اكتوبر تمت لي أمنيتي بانتقالي الى الكلية السورية الانجيلية في بيروت بعناية المرحوم الدكتور صموئيل حبسب رجل الفضل والنبيل وكرم الاخلاق نفساً وأرومة وبعناية زوجته الفاضلة رحمها الله رحمة واسعة فلما كانت في فضلها وطيب عنصرها خليفة بالمرحوم زوجها وأكثر منه عناية واهتماماً بي وانتقالي الى الكلية

وفي سنة ١٨٧٣ تحققت لي أحلامي الذهبية في الحادية عشرة فاني رأيت فيها المعلم يعقوب أستاذاً في الكلية الاميركانية ومعلمي فملاً لا توهمأ حلواً كان أولاً أضحوكة صيانية التفكك بها ولا سيما بعد ان مرت السنون عليها

بقيت ثلاث سنوات تلميذاً لأستاذي ومعلمي في الكلية لا أشكو من شيء الا انه كان كأنما هو يغريني بأن تلامذة الصفوف المتقدمة كانوا - أخذاً بظاهر كثرة ترددهم على غرفته ورفع الكلفة في معاشرته ومرافقته ان في داخل صحن المدرسة واخارجاً عنه - اكثر قرباً اليه مني. ولكنني لما صرت منتهياً اي في صف السنة الرابعة فهمت ما لم أكن

افهمه وأنا ابن السنة الثانية لاني وجدت نفسي حينئذ في الحالة التي كان عليها معه أبناء ذلك الصف الذين مروا عليه قبلي

تركت المدرسة سنة ١٨٧٦ واسكني بقيت تلميذاً له لم تفارقني عنايته فأرسل الي الى برج صافيتا أول عدد ظهر من المقتطف فانتقلت من التلمذة بواسطة المدرسة الى التلمذة بواسطة المقتطف وما زلت تلميذاً له فيه الى شهر يوليو الماضي سنة ١٩٢٧ وهذا أقول : اني ما قرأت له نقداً ولا جواباً عن سؤال من كل السؤالات المختلفة في كل ما كان يخطر على بال سائل من مختلف الاقطار العربية وعلى اختلاف درجة علمهم وأدبهم في معظم الخمسين سنة المارة الا رأيت نفسي تبعاً له لا اقول الا ما قال في كل ما كنت درسته درساً خاصاً وأستفيد من علمه كما يستفيد التلميذ في كل مسألة كانت خارجة عن دائرة بحثي : وان بالنظر الى تفاصيلها : كأكثر مسائل العلوم الطبيعية بل في نفس مسائل اللغة — المسائل التي كنت وجهت اليها معظم أوقاتي مؤخراً — وفي كل ما يترك للعقل مدى للجولان فيها وابداء رأيه من غير ماضورة للتقييد بالنقول عن بصريين او كوفيين مثلاً ، كانت أحكامه ببداهة فطرية كأحكام أكبر البيانين او الفيلولوجيين المعاصرين

لا يزال عندي ذخيرة من هذا الاستاذ العزيز منذ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ أتعود بها كلما دجا ليل مظلمة او تباعد عن قلبي مؤمل — هذه التعويذة هي كتاب من المرحوم — حفظ بعناية لم أتمن لها — يملاً صفحتين ونصف صفحة بخطه الدقيق الواضح « كان » كأخلاقه بحيث لا يشق على بصر ولا تنبؤ عنه عين . أحب ان أنقل من هذا الكتاب او التعويذة ما يدل على « معلية » هذا المعلم وبعد نظره أولاً . وعلى حبه لتلامذته سواء كانوا في المدرسة الصغرى ام كانوا في مدرسة المجتمع الكبرى ثانياً . وعلى انه يعرف الفضل ويعترف به لذويه ومستحققيه ثالثاً . قال رحمه الله :

« ولكن مصيبتنا كبرى وخرقنا أوسع من ان يلثمه واحد او اثنان وحسبك دليلاً ان الصين والهند وكل بلدان المشرق تنئ الآن من وطأة الغريبيين ولا مناص لها او ينقلب الدهر فينخر أرومتهم سوس الادماء والعجرفة ويصفو للمشاركة فيرتعون في رياض العلم والعمارة وهذا ما نحن ساعون فيه جهدنا وباذلون دونه النفس والنفيس واتنا لم ننظر بأعيننا مخلص المشرق من عبودية المغرب الا انا نراه بعين الايمان عن بعد ونحييه — وقال — « وكان فيه ولا يزال درس مهم لي ولغيري ايضاً » — وأبو ... ليس من الاغبياء ولا أظنه يمنعك سؤالك اذا وقع عليه في حينه . وان فعل . فالمر عند رسوم الاينق الدليل « وفي الارض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القلي متحول »

وما أنت أول من اتبع نهاء وعصى هواه فأكثر الآن من الدنانير فهي تسهل كل امر عسير . وقال ايضاً يوصيني بأحد تلاميذه « أرأيت شاباً اسمه... هاجر حديثاً الى القطر المصري وهل تعرف شيئاً من امره ؟ اذا رأيته وقدرت ان تساعد ييسر من النقود اذا احتاج فما تفعله معه تفعله معي وأنا أوفيك اذا عجز » وقال في ختام الكتاب: اهد سلامنا واحترامنا لكل الاصحاب والمعارف ولا سيما لعتاح المحروسة وصاحبي الاهرام الفاضلين . قد ساءنا جداً ما جرى للاهرام ولكن :

لولا اضطرام النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نشر العود
فان صاحبي الاهرام العظيمين لو قدرهما السوريون قدرهما الصاغوا لهما تيجاناً من
الذهب . هذا ولك مني ألف سلام
أخوك يعقوب

وأنا اقول وأفتخر بقولي انه معلني كان ولا يزال وهذا الكتاب يذكرني بغيره من الكتب التي كان يرسلها اليّ الى طرابلس فخرّكتني الى المطالعة وشجعتني على الكتابة. بل هي نهتني الى ما كنت غفلت عنه من اهمية لغة اجنبية لزيادة معارفي : وكنت قد اطرحْتُ هذه الفكرة جانباً ورميت بمعرفتي القليلة باللغة الانجليزية عرض الحائط. ولكني لما انتقلت من مدرسة حص الاميركانية الى مدرسة طرابلس في اواخر فبراير (شباط) سنة ١٨٧٧ وجدت ان لاغني لي في توسيع معارفي عن درس هذه اللغة افله لاستطيع فهم لغة العلم والفلسفة المودعة في مؤلفاتها لا لاخطب ولا لاكتب فيها : وكان المنبّه لي الى هذه الحقيقة المقتطف وبيانه

كنت في طرابلس اراجع المقتطف فلا ادع وارده ولا شاردة تفوتني فيه وأنعم درس كل ما يكتب فيه . واكني وجدت ان منزلتي في عيون اهل الادب والفضل من وجهاء الطرابلسيين الكرام « ووجهاء طرابلس هم اداؤها وهم علماؤها ايضاً » تقتضي ان تزيد معرفتي عما تحتويه مقالات المقتطف ولا يتم لي تحقيق ذلك الا ان ازيد معارفي الضعيفة جداً في اللغة الانكليزية فأقبلتُ على ذلك بكل ما فيّ من نشاط ورغبة سنة كاملة — اخبط في تلك اللغة لنفسني بنفسي خبط عشواء وأفهم معاني الفاظها بعيني لا بأذني وسمعي — قبل ان صرت افهم ما في تلك المؤلفات من العلم والحكمة التي كان قد بدا يروج سوقها حينئذ وكان المقتطف اوان من بدا يروج في مجلة علمية في معظم البلدان العربية ولا سيما سورية

اذكر اني بعد ذلك بمدة كتبت المرحوم استاذي مقالة في تفسير الاحلام فجاءني كتابه يقول تنشيطاً لي — (وحقاً كان الكتاب اعظم منشط لي) — ما اخجل من

دعواي ا ذا ذكرت معناه — وكافأني على تلك المقالة بأن قدّمها الى المجمع العلمي العربي الاول في بيروت وقبلتُ فيه لاجلها عضواً مراسلاً وقد فقدت هذه المقالة وأسفاه عليها وشغلت عن اعادة كتابتها الى ان لم اعد استطيع ذلك

وقد كتبت مقالة اخرى موضوعها التعب وسوء الاخلاق فقُصِدَت ايضاً وكان نصيبها من مديحه نصيب مقالة الاحلام . أما تأثير السكتاين فيّ فأترك تقدير ذلك لمن يطلع على مقالتي هذه ومهما قدره . مقدراً فأنا ما نسيت ولا انسى حسن اثرهما . ما اعظم تأثير المعلم الصالح في نفوس تلاميذه، وما اعظم ما يستفيدونه من قدوته ولعله اضعاف ما يستفيدونه من علمه

انا لم اقصد بمقالتي هذه — ماح نفسه يهديك السلام — انما انا مصدق بها على ما كتبه الافاضل في المقتطف ومصادق عليه بما كتبتّه عن تذكاراتي في صبوتي وشبابي وأيام كهولتي ومدة تسع سنين ايضاً بعد الستين من عمري

مالي وللتنصح لقومي باختيار المعلم الصالح ولا سيما في المدارس الابتدائية اولاً ثم المعلم الصالح الاديب في المدارس العالية ثم المعلم الصالح العالم في الجامعات وما يقاربها من الكليات التي تُعَدُّ ذوي المواهب للاختصاص بما ولدوا ويسروا له
يكفيني أني وفيت ديناً عليّ بشكري المرحوم الدائن وباعترافي بفضلته ودينه عليّ مما لم استطع وفاءه في حياته فليرحمك الله يا استاذي العزيز وليرحم كلّ المعلمين امثالك من الذين كانوا قبلك وسيكونون من بعدك آمين ثم آمين



أميركي وأميركاني بحث في النسبة

— ١ —

أستاذي العزيز الدكتور صروف

خطر في بال تلميذي وصديقي العزيز ن. ش وهو والله الحمد من شيوخ الادباء وأعلام الكتاب والمعرّبين ان يسبقنا نحن المشتغلين ببعض علوم اللغة فسلكت معه مسلك الثقة المطلع على مبادي الفيلولوجيا ومباحث الفيلولوجيين أو مسلك المتخصصين للابحاث الصرفية على شاكلة المجتهدين لا المتابعين ونسبت أنه متخصص بالادب والبلاغة والتعريب وأن هذا التخصص لم يترك له مجالاً نظيري لتابعة هذه الابحاث التي لانهم الجمهور حتى ولا معظم الادباء الا أنني حين فطنت الى ما غاب عني ابتداء كتبت له أنني أترك له الكلمة الاخيرة وتركت له فعلاً تلك الكلمة . وكنت أظن أن الأمر واضح لا يحتاج فيه الى كثير من عمق البحث وبعد النظر ليعلم أن النسبة الى أميركان أميركاني لا يجوز فيها غير ذلك . مررت بالمباحثة أو المناقشة على نظر بعضهم فأراد أن يستجلي الحكم القطعي فيها فكتب الى المفتطف محل نقتنا يستفتيه . وكان من جواب أستاذي الدكتور صروف ما كان من تفضيل أميركي على أميركاني . وشفع تفضيله بالتعليل الفيلولوجي كما هي عادته أن لا يرمي الكلام على عواهنه . ولكن الامر التبس على أستاذي في هذه المرة وسببه ظاهر لان هذا البحث ليس من خصائصه وان كان يعرف من مبادئ الفيلولوجيا وقواعدها العامة ما لم يخطر على بال معظم معلمي الصرف الذين حفظوا أرجوزة الشيخ ناصيف أو شرح الشافية المطوّل غيباً ولا غرابة في ذلك

ومع احترامي الشديد الذي لا أشد منه لأستاذي مقروناً بمثله من المحبة كتبت اليه ما محصله أن ما لك يا أستاذي وللحكم في هذه المسألة . أنها خارجة عن دائرة اختصاصك وأنت أعلم الناس بما للمتخصص من دقة النظر وما يترتب عليها من صحة الحكم في المسائل التي خصص لها كل أيام حياته . احكم في فلسفة الاجتماع في مبادئ الكيمياء الاولى عن غيرها وفلسفتها النظرية وتسمياتها الاصطلاحية ورجّح ما شئت أو احكم في الوسطاء الروحانيين وعلل تعليلاتك العقلية الجميلة الراهنة فيهم وفي هؤلاء قراء الافكار المدجّلين وكاشفي أسرار الغيب من الخازين واشباههم من المشعوذين والتنبيين . احكم احكامك في

كل ذلك بل في كل ما هو من باب ابخائك الخاصة التي نطأطىء فيها رأسنا اجلالا لحكمك
حالما تثبت انه صدر منك حكم . ودع لي مثل هذه المسائل التافهة التي استحي اذا
طبلت وزمرت لها . هذا ما ل ما كتبتة الى استاذي لما لي عليه من دالة التهديد المحب
ولعلي تشددت في التلويح اكثر مما كان ينبغي ان اتشدد

واني على ما كان مني لتادم واني الى اوس بن لام لتائب

وهنا اتصدى لبيان ان تعليل استاذي الفيلولوجي في غير موضعه واليك ذلك
ان النسبة الى اميركا اذا حسبنا الالف في آخرها كالف صحراء وكيميا هي اميركاني
او اميركاوي او اميركي باثبات الهمزة او بقلبها واوآ او بحذفها وحذف الالف قبلها تخفيفاً .
هذه الثلاث صور — والاخيرة منها على خلاف القياس — يجوز لك ان تعمل عن اختيارك
للاخيرة منها بالخفة او بحسن وقعها في السمع او بالعتين معاً كما اشار استاذي . وهناك
صورة رابعة جائزة في اميركا وهي ان تحسبها توهماً (وهو لك هذا الحسبان ان اللفظة
علم اعجمي) من باب صنعاء وبهراء فتقول اميركاني كما قالوا صنعاني وبهراي . من هذه
الصور الاربعة يجوز اختيار الاخصر والاوقع في السمع استحساناً على خلاف القاعدة .
ولكن النسبة الى « اميركان » لا يجوز فيها الا صورة واحدة أعني اميركاني . وليس
له فيها للخيار أصلاً

ومع أني كتبت الى استاذي ما كتبت لم أشأ فتح الباب خيفة من ملل القراء وحياء
من اناس قدرت وجودهم لا يرون لي ان اطلب وأزمر في جنازة حامية والميت مسألة تافهة
باعتبار اثرها المادي العملي

والحق يقال ايضاً اني لم اكن اتصور ان يكون لما كتبتة استاذي الاثر الذي رأيت
له بعد ذلك اثرأ مادياً عملياً . وما زلت اتصور ان المسألة تتذبذب بين اقلام الكتاب
مدة ثم ترجع الى حكمها الواجب اي يفتن الأدباء الى ان النسبة الى اميركا غير النسبة
الى اميركان . ولكن الأمر جاء على خلاف ما قدرته واليك البيان

ان اسم جامعتنا في اللغة الانكليزية هو The American University of Beirut
واختير لها في العربية الجامعة الأميركية في بيروت وحفرت الصورتان العربية
والانكليزية على الزنك ووضع وفقاً لذلك ختم المدرسة الرسمي . لكن بعد ان ظهر
افتاء استاذي مدعوماً بالتعليل الفيلولوجي الذي اشترت اليه ورأوا ثبات المقطم والمقتطف
على استعمال اميركي بدلاً من اميركاني في كل مقام وردت فيه هذه النسبة وتابعهما
(اعني المقتطف والمقطم) كثيرون بل مال الرأي العام بكليته الى اختيار هذا الخطأ

احتراماً لظاهر حكم استاذي واحتراماً لمكانة المقتطف والمقطم (١) حمل التيار في جملة من حمل اعضاء عمدتنا اعني عمدة « الجامعة الاميركانية العمومية » في وجهتيه فاجتمعت تلك العمدة في احدى جلساتها الاسبوعية ودار فيها البحث في هذا الموضوع وحكم بأكثرية الأصوات انه يجب تغيير العبارة من الجامعة الاميركانية الى الجامعة الاميركية وبناء على هذا القرار المأخوذ بأكثرية الأصوات صدر الأمر الى الخطاط ان يكتب على الرخامة الموضوع على باب المدرسة — الجامعة الاميركية — فكتبت وحفرت ولم اشعر بها الا وهي ترفع الى مكانها وعليها الاسم كما ذكرت اي الجامعة الاميركية وبناء على ان الكلام استاذي هذا الأثر الشديد حتى يؤخذ بظاهر حكمه من غير روية ولا تريب رأيت الواجب العلمي يقتضي ان افتتح هذا الباب مرة ثانية بعد ان كنت سدنته بيدي . وأفتحه احتراماً له أي لأستاذي . ولا يخاف القراء اطالة الكلام بعد طول هذه المقدمة فإني اكتفي بالسؤالين الآتين ومن يتأمل فيهما ويفكر عفواً في الجواب عنهما لا يحتاج فيما اظن الى شرح او برهان يحتاج الى مقدمات عقلية وفيلولوجية . والسؤالان هما :

(1) The America College.

(2) The American College.

السؤال الأول

اذا نقلنا الصورتين الانكليزيتين الى العربية بصورة مضاف ومضاف اليه قلنا في الاولى كلية اميركا . وفي الثانية كلية الاميركان . ثم حولنا التركيب الاضافي في الصورة الاولى الى تركيب تقييدي أعني صفة وموصوف وقلنا فيه الكلية الاميركية فاذا نقول في تحويل التركيب الاضافي الى تركيب تقييدي في الصورة الثانية ؟

السؤال الثاني

كيف ينسب الى الاسماء الآتية :

حمدان . نهان . زيدان . عدنان . قحطان . ريدان . سعدان . يونان . سريان . افغان . يابان . جرمان . المان . بريطان . انكليكان . اميركان . سودان . رومان . ايران . عجمان . انسان . جهمان

وهنا اسأل من يصح ان يوجه اليه السؤال : هل راجعت أيها السيد في نفسك او في كتاب من كتب الصرف فرأيت مسوغاً يسوغ ان تكون النسبة الى اميركان اميركي ؟ لا تخلط اميركا باميركان فان النسبة الى الاسم الاول العلم أي اميركا قد يجوز فيها

(١) ليمتبر اهل الدلم واصحاب الحثيات المحترمة ما لا رأيهم واقوالهم من التأثير في توليد الرأي العام وليتفكروا قبل ان يكتتبوا حرفاً واحداً

استحساناً على خلاف القياس اميركي. وأما النسبة الى اميركان اسماً للجنس المراد به شعب الولايات المتحدة فلا يجوز فيه إلا اميركاني كانكليكاني وروماني وجرماني والماني وسوداني واراني وعجماني . فمن عنده نقل عن امام او عن كاتب درس باب النسبة ذوقاً أو تعلماً أنه بوجه من الوجوه أو لعل من العلة أن ينسب الى أحد الاسماء المذكورة أعلاه بحذف الالف والنون فليذكره

وفي الختام أقول

ان كثيرين يتابعون الرجال المشهورين فيعرفون الحق بهم . فهل لمثل هؤلاء المتابعين ان يعرفوا ماذا كان يقول المرحومان الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير . بل ماذا كان يقول المرحوم الدكتور فأنديك والاستاذ الدكتور بعقوب صروف في النسبة الى اميركان

أقول لمثل هؤلاء انظروا الى اللوحة الكبيرة المعلقة على باب بناية المطبعة الاميركانية في بيروت والى المقطف في سنيه الاولى الى حينها ذكر الكلية الاميركانية فإنه لم يخطر له قط حينئذ أن يقول الكلية الاميركية ولم يخطر في بال المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي الذي كان في بعض تلك السنين يفاسي المقطف تفلية ليعثر على سقطة نحوية أو صرفية ليقم أعظم التكبر عليها فإنه مر على الكلية الاميركانية أو المدارس الاميركانية أو ما هو من هذا القبيل في مقالات الدكتور صروف ولم ينبس فيها ببنت شفة . فليعتبر المتابعون أما ما استهوى أستاذي الدكتور صروف الى استعمال اميركي بدلاً من اميركاني والاولى أن أقول ان ما هو عليه أن لارفض استعمال اميركي في موضع اميركاني رفضاً باتاً فإنه وجه لا يعلمه أستاذي وأعلمه أنا لأنه من اختصاصي دونه . واذا اذن أستاذي فسمح لي أن أسود صفحات المقطف ببياض ابحاث كهذه يظنها بعضهم نافهة ولكنها من أعلى المباحث البسيكولوجية سودتها في أحد أجزاء المقطف الآتية والمعدرة من القراء الكرام عما أطلت به من عذر والسلام



عود إلى النسبة

— ٢ —

استاذي العزيز الدكتور صروف

هل تأذن لي في هذه المسألة ان اضع رأيي الى جنب رأيك حتى لا يحرم قراء المقتطف وجهتي نظر كل منهما تعتمد بالاكثر على سند عقلي فيولوجي وان اقتضى الأمر فعلى سند تاريخي اكثر مما على مجرد سند نقلي يرجع الى قال فلان وقال فلان من الذين تقدمونا لانهم تقدمونا . وبناء على اذنك استاذن القراء بعرض ما يأتي من التهميدات الفيلولوجية المؤيدة او التي يمكن ان تتأيد بشواهد الواقع قديماً وحديثاً وأذكرها بغاية ما استطيعه من الاختصار وهي :

(اولاً) ان حروف العلة تتبدل بعضها من بعض اذا دعا الى ذلك داع من الخفة وحسن اللفظ فتقلب الواو ياء وبالعكس وكتاها تغلبان الفأ وهمزة وبالعكس ومثل حروف العلة الحركات فانها تبدل بعضها من بعض فضلاً عن اختلاس المشبعة او اشباع المختلصة . وكل ذلك يجري بداهة على اللسان . والعمدة فيه حسن الذوق وبداهة عفو الحاطر . والمختار عندي ان يبقى ما الف على الألسنة او دَوْن في كتب اللغة والأدب على ما الف فيه الا ان تعرض حاجة فيقاس كل على مثله وينظر بنظيره

(ثانياً) حروف العلة وحروف النون قريبة الخارج ولذلك فقد يقلب احدها نوناً ولا سيما الواو وهو معروف عند الفيلولوجيين ولا يخفى على من تنبه له عندنا والمتأمل يرى ان التنوين في « قاضٍ وواشٍ » هو من باب الابدال هذا . وكذلك « التنوين » في جوارٍ فان النحاة بقولهم ان ياء المنقوص من صيغة منتهى الجموع تحذف ويعوض عنها بالتنوين قداً عرفوا بالابدال ضمناً

ومن هذا القليل تنوين الترخيم فانه عبارة عن ابدال الحركة المشبعة وهي حرف المد نوناً وعلى عكسه لو تأمل متأمل اشباع الحركة في القافية فانه عبارة عن قلب التنوين حرف مد

وهنا اشير الى ما يقع على الألسنة من قولهم « لِسًا وَلِسَنٌ . وَلِمًا وَلِمَنٌ . ومانو وماهو » ولا يخف خائف من « الهاء » فانها اخت الهمزة ومعروف ان وضع كل منها

موضع صاحبها لغة لبعضهم جرى عليها المتنبي في قوله
 لهنك اولى لانم بلامته وأحوج ثمن تعذلين الى العذر
 وأما انقلاب الواو والياء همزة اذا وقعتا بعد الف فيكاد يكون مطرداً وقد فطن
 له الصرفيون وقرروه في قواعد علمهم بل حسبهم واجباً في مثل قائل وبائع .
 ومما لا يجوز الغفلة عنه هو جواز مد المقصور وقصر الممدود فانه من قبيل الابدال
 او القلب . وأعود فأقول ان جميع ما اشرنا اليه او معظمه يرجع فيه الى البداهة
 وحسن الذوق لا يختص زمان دون زمان ولا هو مما يحل لقوم ويحرم على آخرين
 (ثالثاً) الواو والياء وبالأخص الياء في مثل عين ويوم فيها ثلاث لغات كانت هذه
 اللغات قديماً ولا تزال محفوظة الى اليوم وهي

(ا) اخلاص الفتح وهي لغة المتأدين وعموم اهل الشوف والمثن من افضية جبل
 لبنان وأخاف ان اشمل في هذا الحكم لغة جميع اللبنانيين
 (ب) قلب الياء ألفاً فتقول عان ويام وهي لغة معظم اهالي شمالي سوريا ومما يجب
 ملاحظته انهم عند الاضافة الى الضمير ولا سيما « ياء » المتكلم يرجعون الى تحقيق
 الياء والواو

(ت) الامالة فيها وهي لغة دمشق وحمص وحماه وأهل فلسطين وشرقي الأردن
 اجمالاً واة مصر والعراقيين على ما ارجح
 وأما الياء بعد الكسرة فالأكثر فيها تحقيق الكسر ولكن بعضهم يملونها كثيراً او
 قليلاً نحو الفتح اذا وقعت في المقطع الأخير نحو قاضي ونحو حليب وسليم ولا سيما اذا
 اتصلت بياء النسبة . ولا تزال هذه اللغة او اللهجة غالبية في مدينة زحلة وما جاورها وقد
 اشرت اليها لأنها تفسر لغة من قال في النسبة الى ثقيف ثقفي والى حنيفة حنفي والى علي
 وعدي علوي وعدوي فانهم فتحوا ما قبل الياء « وفقاً لهذه اللغة » فصارت الياء (وهي
 ساكنة) بعد فتحة فأمالوها الى الألف كما أمالوا ياء « عين » ثم تركوا الاشباع
 وارجح انهم اولاً حذفوا الألف في حنفي وثقفي وعلوي خطأ لالفاظاً كما حذفوها في
 « هذا وذلك » اسمي اشارة وكما في سموي ومع الايام والتكرار اصبحوا يحذفونها
 لفظاً وخطاً

وهذه الجارية التي جرت في حنفي وثقفي وعلوي هي الآن تتطور في « سماوي وسموي »
 فان الاكثرين اصبحوا يكتبونها بدون الف . وحذاق الكتاب يضعون ألفاً قصيرة فوق
 الميم بدلاً من الفتحة ويشيرون بها الى وجود الألف على ان كثيرين منا اصبحوا الآن

يقولون البركات السموية اي يحذفون الالف لفظاً وخطاً . وجاز لهم ذلك لان المعنى لا يلبس على احد والذهن ايضاً لا يتوقف فيه حائراً ماذا يقدر . لكن لو قال قائلنا بركات سماوية (بالالف اطول من العصا) كان في جانب الصواب والاصالة كما يكون من يقول

بكل قرشي اذا ما لقيته سريعا الى داعي الندي والتكرم
التي تطورت اولا فيما ارجح الى قراشي بحذف الالف المالة خطأ ثم الى قرشي بحذفها
لفظاً وخطاً

(رابعاً) ان قلب الواو قبل ياء النسبة الى نون وإن لم يقطن له (بحسب الظاهر)
سيبويه ولا من تقدمه كالخليل ويونس لم يفت علامة الين وأديها صاحب كتاب وصف
جزيرة العرب . قال هذا الامام العلامة وجه ٥٥ من كتابه المشهور — وينسب الى صنعاء
صنعاني مثل بهراء وبهراني لأنهم رأوا النون اخف من الواو . وخولان لا تنسب اليها
الا على بنية الأصل صنعاي وكلهم يقولون في ساكن الكدراء كدراوي ولا يقولون كدراي
اما الفيلولوجيون فلا يشكون في هذا الابدال ولكنهم يقولون انه يجري بداهة
على الالسنه وأنه غير لازم ولا مطرد فان قلت انا اذا جارينا هؤلاء الفيلولوجيين
اذن لا يعرف قائل بعدها ماذا يقول

قلت بل هو كسائر امثاله من الجائزات تعتمد المؤلف المتعارف فيها ولا نرجع على
خلافه الا عند الحاجة . وازيد فأقول ان ما يجري بداهة على الالسنه قلما يتبسي
على سامع وقلما يخالف المتعارف

زعم بعض الأدباء في صنعاني وبهراني وامثالهما انه من قبيل الشاذ ولا اعلم على ماذا
او على من اعتمد في قوله هذا فانه لم يعتمد على سيبويه ولا على الخليل ولا على الاعايش
كما اؤكد لانه لم ينقل عن واحد منهم في طول وعرض كتاب سيبويه ولا انه ليس
واحد من هؤلاء ولا من غيرهم يخرج كلام الرسول على الشاذ وقد ورد في حديث سليمان
ان لكل امرئ جوائيا وبرائيا فمن اصلح جوائيته اصلح الله برائيه . فهل يشك
هذا الاديب بصحة الحديث ام يقول انه منسوب الى جواليت وهو داخله وزيادة
الالف والنون للتوكيد كما قال ابن الاثير

أما انا فعندي انه منسوب الى جوا وبراء اللفظتين المحفوظتين الباقيتين على
الالسنه في الشام كلها وفي مصر والعراقيين كما ارجح وهو من باب صنعاني وبهراني . وان
سلمنا بقول ابن الاثير فالنسبة من قبيل جسداني وروحاني وهي نسبة سريانية فيها علامتا

نسبة على ما بينته العلامة الملفان المرحوم المطران يوسف داود في كتابه اللعة الشبهة في نحو اللغة السريانية . ومن بابها عبّاداني نسبة إلى عبادان (المدينة المعروفة) وعبادان بدورها نسبة إلى عبّاد ابن الحصين الذي بناها او نزّلها أولاً (راجع عبادان في معجم البلدان) وقول ابن الأثير ان الألف والنون للتوكيد هو احوالة على مجهول لا برضاها احد ممن شاموا المبادئ الفيلولوجية المسلم بها عند كل علماء اللغات في وقتنا الحاضر

(خامساً) ذكر ياقوت في معجمه أن كان ثلاث عشرة مدينة كل منها باسم الاسكندرية ومنها الاسكندرية قرية على دجلة بازاء الجامدة بينها وبين واسط خمسة عشر فرسخاً ينسب اليها احمد بن المختار ابو بكر الاسكندراني

(سادساً) ينسب الى الأعلام مطلقاً بدون قيد ولا شرط . اعلام الأشخاص او الأجناس وأعلام المدن والقرى والعشائر والقبائل والملل والنحل والولايات والممالك الخ ولا ينسب الى الصفات المشتقة . ففاضي وهاشم مثلاً من حيث هما اسماء فاعل لا ينسب اليهما للعبث فاذا سمينا بهما قلنا حينئذ الاسرة القاضية والهاشمية وأصبح المنسوب اليه صفة تجري عليه كل احكام الصفة فهو اذن بهذا الاعتبار لا يجوز النسبة اليه . على أنه اذا اخرج عن الوصفية الى العالمية « كالاسكندرية والنبطية » صار حكمه كحكم هاشم وعامر او القاهرة والحديثة اعلاماً وينسب اليه كما ينسب اليها . انتهت التمهيدات لنرجع الآن الى النسبة الى الاسكندرية ولنبحث في الصور الجائزة لنا فيها ثم ايها افضل وأول ما نقوله ان الاسكندرية من حيث هي صفة مشتقة من اسكندر لا يجوز النسبة اليها لأنه من قبيل العبث لاجتماع نسبتين في الاسم الواحد من جهة واحدة ولكن الاسكندرية المدينة المعروفة أصبحت اسماً علماً ينسب اليه كما ينسب الى كل الاعلام المنقولة عن الصفات

اذا فهم هذا لم يبق عايناً الا ان ننظر في الاوجه الجائزة لنا في النسبة اليها وهو الغاية من كتابة هذه المقالة فنقول يجوز لنا ما يأتي

(أولاً) نحذف التاء تشبيهاً لها بتاء الوحدة وزيد ياء النسبة ونقول اسكندري كما قلنا (او قالوا) امي وعدي وغني . وفي هذه الصورة ما فيها من الثقل وتوسلاً الى ازالته نقاب الياء واواً ونقول اسكندريوي كما قلنا غنيوي (توها) . ولما كان لا يزال هناك ثقل وسببه الكسرة المشبعة بين الفتحة اولاً والكسرة ثانياً دفعنا بداهة الذوق والخطا الى ابدالها او قلبها فتحة مشبعة وقلنا اسكندراوي كما قالوا في زيني زباني وفي غنيوي (المتوهم) غياوي ويجوز ترك اشباع الفتحة . اما في غياوي فترك الاشباع

فِيهِ من الخفة وحسن الوقع في السمع ما ترى في « غنوي » بخلاف زباني واسكندراوي فان الاشباع فيهما ولا سيما في الثاني الطيف جداً وأشهى وقعاً في السمع من قولك اسكندروي بترك اشباع الفتحه ومن اسكندريوي بابقاء اشباع الكسرة بمالا فيها اوغير ممال . وهنا نقول انا صورنا ابدال الواو بالياء والكسرة المشبعة بالفتحة المشبعة . وترك الاشباع تارة دون اخرى وفي اسم دون غيره كأنما هو يتطور في درجات وأعمال فكرة وروية والواقع انه يجري على السنتنا وكان يجري على السنة من تقدمنا بدهاة الفطرة وعفوا لظاخر تارة بهذه الصورة وأخرى بتلك الى ان غلبت صورة من الصور وألفت لسبب غالب ألف

(ثانياً) يجوز لنا ان نقلب الواو في اسكندراوي نونا كما قلبناها في صنعاي وبهراوي وروحاوي ودستباوي وكما قلبناها في براني وجواني

(ثالثاً) يجوز ان ننسب الى الاسكندر رأساً ونقول مثلاً قال ابو بكر الاسكندري . ولما كانت القرينة الحالية الواقعية تمنع ان يكون المقصود بالنسبة اليه هو الاسكندر اقتضى مجازاً أن تكون النسبة الى شيء من معلقاته او ما يلابسه ملابسة جائزة واضحة وهي ملابسة الباني الى المبني الواضحة والمعروفة أتم معرفة تاريخية . وهذا عملياً يعادل قول من يقول (لأنه غفل عن المجاز) انا نحذف ياء النسبة ونضع بدلها ياء اخرى غيرها لأنه لا يجتمع علامتا نسبة . والحقيقة هي على ما ذكرنا اي انا نسبنا مجازاً الى الاسكندر وأردنا النسبة الى متعلقه أي المدينة التي بناها وعلى فرض انا نسبنا الى الاسكندرية المعروفة فيكون حذف الياء للتخفيف لأنها ليست بعد ياء نسبة بل اصبحت بعد العلمية حرف هجاء كياء صقلية وهي اذا حذفت فأما تحذف للتخفيف ومع ذلك لو نسب ناسب فقال صقلاوي أو صقلاني لكان لا يزال في مترهات ومقاصف النسبة العربية ووفقاً لروحها التي هي اقرب الى المنطق والقياس الفطري البديهي من اللغات الغريبة المتهذبة التي نعلمها

(رابعاً) يجوز ان نعتبر الهاء في الاسكندرية هاء مهموسة ومن اصل الكلمة « وهي كذلك عند التحقيق الفيلولوجي » والهاء المهموسة هي الف بين الف المد والقصر فان اعتبرناها مقصورة قلنا اسكندريوي وان اعتبرناها ممدودة قلنا اسكندرياي والصورة الثانية مفضلة على الأولى لأنها اخف على اللسان وأحلى في السمع . وهناك الطريقة العلمية التركية اي نترك هذه الهاء على صورتها ونقول اسكندريهوي ونقرأها كأنما هناك الف قبل الواو او بدونها وهذه الصورة من النسبة أي العلمية التركية يظهر حسنها في النسبة الى

مثل حلبية وبغدادية وجعفرية وشرقية وغربية ومطرية وطره ولا سيما في مثل معده وكره ونوره وذره وقد تنهت الى هذه النسبة بما جاء للدكتور الأديب محمد جميل الخافي في مقالاته الشائقة في « اللغة العلمية » في مجلة المعهد الطبي العربي

الخلاصة

او تلخيص كل ما ذكرناه مما دعا الى هذه المقالة هو انه في النسبة الى الاسكندرية يجوز لنا ان نقول فلان الاسكندري وفلانة الاسكندرية من باب المجاز لانا نسبة الى الباني وأردنا متعلقه وهو المدينة المبنية ويجوز لنا ان نقول فلان الاسكندراني والاسكندراوي وفلانة الاسكندرانى والاسكندراوية وهذا ما يهنا . وأنا واستاذي الدكتور صروف متفقان في جواز الصورتين اسكندري واسكندراني ولكننا مختلفان في التعليل والتعليل هو المهم وهو المقصود بالذات في هذه المقالة وله ما بعده

اما التعليل الذي اذهب اليه فهو انا حذفنا التاء من اسكندرية توهاً انها « تاء وحدة » وقلنا الياء الأخيرة وأوياً للخفة وقلنا الياء التي قبلها الفاً وأثبتناها كذلك وكان يجوز لنا حذفها كما نحذف الياء الأولى في علي وغني وعدي لولا ان حذفها يؤدي الى النقل وهو الذي نتجنبه ويؤيد قولنا انا سمعناهم يقولون اسكندراوي ولم نسمعهم يقولون اسكندروي لا بفتح الراء ولا بكسرهما . وهذه الواو في اسكندراوي يجوز فيها لتقارب مخرجي الواو والتون ان تقاب نوناً في كثير من الصور للخفة وحسن الوقع في السمع ويفعل ذلك بدهاء الذوق كصنعاوي وصنعاوي وروحاي وروحاني

ونفس هذه النتيجة كان يمكن ان نصل اليها فيما لو كنا اتبعنا مذهب القوم وطرائق تعليمهم ويعني من بيان ذلك الآن خوف الاطالة والتكرار وكفى ما كان منهما حتى الآن وأما التعليل التاريخي الذي ورد لاستاذي فاذكره بنصه وهو « أن عامة العرب لما استوطنوا هذا القطر بعد الفتح سموها كلة « الكسندريان » فلم يفتنوا الى ان التون التي في آخرها هي نون النسبة لأن العامة تسمع الكلام وتحفظه وتستعمله من غير عمل فالحقوها بياء النسبة على مقتضى ما لوفهم فقالوا الاسكندراني وشاع هذا الاستعمال الخ »

فما نظنه يحتمل التجريح الذي يستحقه كلام أستاذي حتى من الوجهة التاريخية فإن أبا بكر الاسكندراني منسوب الى الاسكندرية القرية التي على دجلة لا الى الاسكندرية المصرية الرومبة

وعلى فرض أن تلك القرية حفظت ما حفظته اسكندريّة مصر فإذا نقول في قيساراني نسبة الى قيساريّة او في طبراني نسبة الى طبريّة بل في الصالحاني نسبة الى الصالحية وفي حاصباني نسبة الى حاصيّة ودير عطاني نسبة الى دير عطية وكيف نعلل هذه النون في دير عطاني خصوصاً ؟

وأما القول « أن العامة تسمع الكلام وتستمع له من غير تعمّل » فأفهم منه أن أستاذي أراد ان يقول ان عامّة العرب الذين استوطنوا القطر المصري بعد الفتح (وكانوا من صميم اهل الجزيرة العربيّة وأنصح فصحاءها) لا يُعوّل على استمالمهم فان كان ما فهمته صحيحاً فما كان أحبّ اليّ لو فطن أستاذي الى الحقيقة العقلية والفيلولوجيّة والتاريخية أيضاً وهي ان سيديوه واساتذته الخليل ويونس وأمثال هؤلاء الاعلام ومن تقدم عليهم أو تأخر عنهم لم يضعوا القواعد للعامة وانما أخذوها عنهم وان كل قياس او قانون او قاعدة يضعها علماء اللغة للغة لا يجوز ان يخالف البداهة العامة وان وضعوا مثل ذلك فلا يثبت الا بقوة والى حين أيضاً ان لم تكن القوة التي تسندها ثابتة. ومع ذلك لآتمت اللغة المبدئية على البداهة بل تبقى جنباً الى جنب مع التي تسندها القوة

وآخر ما يصعب عليّ ان اعترض به على أستاذي هو قوله « ويتّضّي القياس حذف النون » لما فيه من التسرّع وعض النظر عن المعقول والمتقول معاً . ولا أعلم على ماذا أو على من استند في حكمه هذا

كذلك كنت اود لو ترك اتلا تيكى وباسيفيكي على حالهما لم يفلعل هذين البحرين العظيمين فان « يك » فيهما مثل « يق » في ارعاطيقي وموسيقى ومثل « يز » في انكليزي و « يك » في انكليكاني وعهدي به يرى الحكمة في بقاء ما كان من المؤلف على ما كان. وليأمرني فاني لا اخاف ان اقول ان بداهة من تقدمنا من الكتاب اقرب الى الحقيقة من اجتهاد بعض المجتهدين المتسرعين في وقتنا الحاضر اعني القرن العشرين لأن اجتهاد هؤلاء البعض لا يسنده الا علمهم الاعتيادي . وأما بداهة اولئك فن وراثتها علم واجتهاد كل من تقدمهم . وبعبارة اخرى ان البداهة العامة الموروثة خلفاً عن سلف منذ اربعة عشر قرناً الى اليوم وهي واحدة عند ابناء العربية وعند ابناء الانكليز والفرنساوين لا ينبغي ان يستخفّ بها ولا يصح العدول عن مقتضاها الا بشهادة العلم البديهة التي هي اقوى منها او بشهادة حسن الذوق البديهي الذي لا يمارى فيه والمعدرة من القراء الكرام على ما اطلت به وكان يمكن فيه الاختصار والسلام

ارتقاء اللغة العربية

واستعدادها أيضاً للارتقاء

— ١ —

اللغة العربية ليست بنت القرن السابع المسيحي ولا بنت القرن السادس أو الخامس .
ولا هي أيضاً بنت القرن السابع قبل المسيح بل هي أقدم عهداً من ذلك بكثير .
هي الأخت الكبرى للعبرانية والآرامية ان لم تكن أمهما وعلى ما تصرح به نوارينحنا
العربية المكتوبة وتقاليدها المروية جيلاً بعد جيل خلفاً عن سلف هي لغة العاديين
الآراميين تجار حضرموت وسبا وعمان واليمن ولغة تمدنهم السامي السامي . لغة وصلت
الى درجة من الارتقاء جعلت مثل صاحب حصن تيماء منذ ألف وأربعمائة سنة ونيف
قبل اليوم يقول

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل
وجعلت أيضاً مثل بن الطائفة اعرابياً جافياً لا يرى الا شجعة او قيصوماً وقلمها
ياكل الا ضباً أو يربوعاً أكلت رجله الأبارق والأماز بل أكلت الأبارق والأماز
رجله يقول ما يحسده على رقيه كثيرون من شعرائنا الحاليين شرقيين وغربيين
بنفسي من لو مررت برد بنانه على كبدي كانت شتاء أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله
ويقول

فياخلة النفس التي ليس دونها	لنا من اخلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبه لم يطمع به	عدو ولم يؤمن عليه دخيل
اما من مقام اشتكى غربة النوى	وخوف العدى فيه اليك سبيل
فديتك أعدائي كثير وشقتي	بعيد وأشياي اليك قليل
وكنت اذا ما جئت جئت بعلقة	فأقنيت علاني فكيف أقول
فما كل يوم لي بأرضك حاجة	ولا كل يوم لي اليك رسول

وجملت ابن المدينة أيضاً وهو اعرابي مثله يقول

لك الله إني واصل ما وصلني ومن بما أوليتني ومثيب
وآخذ ما أعطيت عفواً وانني لأزور عما تكرهين هبوب
فلا تتركي نفسي شعاعاً فانها من الوجد قد كادت عليك تذوب
وإني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر الغيب منك رقيب

ولا ينقص عنهما في الرقة والبيان وجودة السبك قول الصمّة عبد الله بن قشير بن

كعب اعرابي آخر مثلهما في جفاء العيش وخشوته

حَنَنْتُ إِلَى رِيَا وَنَفْسِكَ مَاعَدْتُ فَرَارِكَ مِنْ رِيَا وَشَعْبَا كَمَا مِمَّا
فَمَا حَسَنُ أَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعًا وَتَجَزَعُ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَا
قِفَا وَدَعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بِالْحِمَى وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوَدَّعَا
بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرَّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافُ وَالْمُتَرَبَّمَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوَاجِعَ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدَمُّعَا
وَلَمَّا رَأَيْتَ الْبَشَرَ أَعْرَضَ دُونَنَا وَحَالَتْ بَنَاتُ الشُّوقِ بِمَحْنٍ نَزَعَا
بَكَتْ عَيْنِي الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنْ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلْمِ أَسْبَلْنَا مَعَا

هذا مثال مما قاله هؤلاء الأعراب في الترفق والغزل ولا ينقص عنه في البيان وحسن

السبك ما قالوه في الفخر والحكم والثناء وما إلى ذلك واليك ما قاله النهشلي

أَنَا مَحْيُوكٌ يَا سَلَمَى فَخِينَا وَأَنْ دَعَوْتُ إِلَى جُلِيٍّ وَمَكْرُمَةٍ
وَأَنْ سَقَيْتُ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينَا وَأَنَا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدْعِي لَابٍ
وَأَنْ تَبْتَدِرَ رَغَايَةَ يَوْمًا لِمَكْرَمَةٍ أَنْ تَلْقَ السَّوَابِقَ فِينَا وَالْمُصْلِنَا
وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنْهَا سَيِّدٌ أَبَدًا إِلَّا أَفْتَلَيْنَا غَلَامًا سَيِّدُ فِينَا
إِنَّا لَنَرُخْصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نَسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِنَا
إِنِّي لَمَنْ مَشَرْتُ أَفْنَى أَوَائِلِهِمْ قِيلَ السَّكَاةُ إِلَّا أَيْنَ الْحَامُونَا
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مَنَا وَاحِدٌ فَدَعَا مِنْ فَارِسٍ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

إلى آخر القصيدة

ومثل قول النهشلي قول الآخر بن قصيدة له قال :

إذا أنت لم تصف أخاك وجدته على طرف الهجران أن كان بهقل
وبركبُ حدَّ السيف من أن تضميمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مرحل

وكننت اذا ما صاحب رام ظنني وبدل سوءا بالذي كنت أفعل
 قلبت له ظهر الجنب فلم آدم على ذاك إلا ريثما أتحوّل
 اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب اليه بوجه آخر الدهر تقبّل
 ولو أطمت هوى النفس واستشهدت بكل ما تراه أهلاً للاستشهاد به لمئات جزءا بل
 أجزاء من الهلال الأغر على اني لا أطاوعها وأستاذن القراء في ذكر الآيات الآتية
 فقط لامرأة من نساءهم وهي المعروفة بليلي الأخيلية قالت :

يا أيها السديم الملوّي رأسه ليقود من أهل الحجاز بريعا
 أتريد عمر بن الخليع ودونه كعب إذن لوجدته مرؤوما
 ان الخليع ورهطه في عامر كالقلب ألبس جوّجواً وضريما
 لا تفزّون الدهر آل مطرق لا ظالمأ أبداً ولا مظلوما
 قوم رباط الخيل وسط بيوتهم وأسنة زرق تحال نجوما
 ومخرّق عنه القميص تحاله وسط البيوت من الحياء سقيا
 حتى اذا رفع اللواء رأيتنه تحت اللواء على الحميس زعيا

دعنا من الشعراء والمنظوم من أقوالهم وانظر الى الأحاديث المروية عن الرسول
 فان هناك منها نحواً من عشرة الاف حديث كانت في أوائل المئة الثانية للهجرة متداولة على
 الألسنة أو مودعة في بطون الدفاتر وكلها من الكلام الذي أقرت له العرب والعجم انه
 من الكلام الذي لا يفوقه ان لم نقل لا يماثله كلام في فصاحة وبلاغة

اللغة العربية في ما بين سنة مئة واربعين ومئة وخمسين كان فيها من كتب الأدب مثل
 كتاب كلية ودمنة والدرة اليتيمة وغيرها من ترجمة او من تأليف ابن المقفع الكاتب
 المشهور وكانت فيها قبل ذلك مثل رسالة عبد الحميد الكاتب المشهور للكاتب وكتب
 الحجاج الى قواده وعماله وقبلها الرسائل التي تبودلت بين الامام علي ابن أبي طالب وبين
 معاوية والخطب التي يزورها ابن قتيبة الى ذلك الامام والى أصحابه من الصحابة والتابعين
 وانبتها في كتابه المشهور والمعروف « الامامة والسياسة »

كل هذه المكتوبات وامثالها وهي كثيرة كانت من الفصاحة والبلاغة بحيث لا تزال
 الى الآن من النمط العالي الذي ينسج على منواله والغالب الذي يضرب على مثاله
 اللغة العربية في الفاظها المفردة من أغنى لغات العالم قديماً وحديثاً واطرف هذا من
 المسلم به عند العلماء من الغربيين والشرقيين وذلك للسبب الذي اشرنا اليه آنفاً اي انها
 كانت لغة اعظم فرع لأعظم امة قامت في العالم الأمة الأرامية العادية تاجرة العالم قديماً

وناشرة التمدن السامي في اوربا وافريقيا ذلك التمدن العظيم الذي لا تزال آثاره ماثلة في محافل حضرموت واليمن ، وفي قصور بابل واشور وهياكلها الخالدة على الدهر بل ازيد واقول وفي برابي مصر ايضا واهرامها لا تزال فنة الناظرين ودهشة العلماء والمفكرين وليس غنى العربية في كثرة الفاظها فقط بل غناها العظيم الذي لا يكاد يماثل انما هو في اتساع اشتقاقاتها وكثرتها ونفوذ القياس واطراده في أغلبها ان لم اقل فيها كلها ، وما أظهرها تنقص عن اليونانية او اللاتينية مصدر غنى اللغات الأوروبية ومقلع رخام الفاظها العلمية والفنية

هذه لمحة دالة على غنى اللغة العربية وسبب غناها وكل علماء اللغات الذين اتقنوا العربية ووقفوا على دقائقها وغناها في مفرداتها واشتقاقاتها يوافقون على ما قلناه بل قد نقل عن بعضهم أنه قال ما معناه: ان كان ثم لغة حق أن تعيش وتبقى فالعربية أحق لغة أن يكون لها هذا الحق . وأنا اقول صدق هذا العلامة الاميركاني وقد عاشت اللغة العربية المضرية الى الآن ألفاً وخمسمائة سنة وانبأوها اليوم بكادون يفهمون اشعار شعراء الجاهلية والحضرمين كما يفهمون اشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي أو كما يفهمون اشعار أبي العلاء والشريف الرضي ويفهمون اشعار هؤلاء الفحول المتقدمين كما يفهمون اشعار شعراء المئة السادسة والسابعة بل هم يطربون بشعر الشعراء الاندلسيين وموشحاتهم ويقدرونها في نظمهم كأنها نظمت البارحة . ولعلهم كثير من خيرة شعراء عصرنا الحاليين بقية القرن التاسع عشر ومن سبقهم من شعرائه أرباب الشهرة التي طبقت مصر والشام والعراق بل العالم العربي عن آخره، هم أكثر هؤلاء ان لم اقل كلهم كان أن يجتذوا خطوات من تقدمهم من شعراء اليتيمة كالمتنبي وأبي فراس الحمداني ومن خلفهم كالعري والشريف الرضي ومن خالف هؤلاء من شعراء المئة السادسة والسابعة. بل أعظم مدح لشاعر من أغلب شعرائنا الحاليين الحاضرين أن تتعته بالمتنبي الكندي أو بالمتنبي المغربي أو ببن نباتة المصري أو ببن النبيه أو ببن سهل الأندلسي وأمثال هؤلاء . ومعنى ذلك أن اللغة العربية لغة حية كانت ولا تزال فلماذا يشكونها البعض ومما يشكون منها يا ترى ؟

من يشكو منها وهل هو محق في شكواه ؟

— يشكو منها بعض الشعراء شعراء المنظوم والمنثور

اذا كان هم أكثر هؤلاء الشاكين أو من هم في طبقتهم أن يقلدوا شعراء الحماسة أو شعراء اليتيمة بل شعراء المئة السادسة والسابعة في الفاظهم وعباراتهم وتركيبهم بل في أغلب تشابيههم ومجازاتهم وكناياتهم فكيف تحق لهم الشكوى من اللغة أنها تنقص بأفكارهم

وتضيق دائرة الفاظها وتراكيها عن دائرة خيالهم وتصوراتهم الشعرية وأنا أقول لهؤلاء الشاكين يا هؤلاء ما أنصفتم لفتحكم ولو أنصفتم لسمعتم هاتفاً يهتف بكم أن وسعوا دائرة خيالكم وتصوراتكم عن ابتكار لا عن تقليد وعن روية لا عن ترجمة وأنا الضمين لكم أن العربية تنسع أمامكم كما اتسعت لمن تقدمكم وأنكم تجدون في الفاظها المتولدة والتي يمكن أن تتولد على القياس (لفاهم الاشتقاق والقياس) ما تطلبون وفوق ما تطلبون

رأيت البعض يدعون الملل من القوافي التي تتشابه وتتوازن ، وبعض هؤلاء يقولون تقليداً (على ما أظن) واتباعاً بالشعر الأعمى أي الشعر الذي لا قافية له فيالله من أمثال هؤلاء فانهم على ما هو أولى أن يقال فيهم غلبهم حب التقليد على حسن ذوقهم الطبيعي فجاءهم يرون المحاسن على غير صورتها الحقيقية جعلهم يرون القافية العربية الجميلة الرنانة تنقل على أسباعهم ويشكون منها بل تطرف بعضهم وهم قلائل فعدلوا الى طرق غير مطروقة والى صور غير مألوفة لا عندنا ولا عند الغربيين كل ذلك عن حسن ظن على ما أظن ببعض أساتذتنا الغربيين الذين قالوا في القافية العربية ما قالوه عن غير تحقيق أو قالوه متسرعين في الراجح

استطراد

كان تسارع الى ذهني ان متابعة بعض أدبائنا لبعض الاساتذة الغربيين غريبة في بابها لا نظير لها وكدت أحسبها من جملة الأدلة التي تقيمها أحياناً أو نقيم مثلاً على انحطاطنا وفساد اخلاقنا وتربيتنا . ولكني عدت ففكرت انا كثيراً ما تتعصب لأساتذتنا الوطنيين وتناهبهم فيما يذهبون اليه لا نسألهم دليلاً على ما يقولون ولا نطالبهم بحجة فيما يعتقدون بل قد كان مثل هذه المتابعة معروفاً عند من تقدمنا في ازمان عزنا واستقلالنا عن الغربي واليك ما جاء في هذا الصدد لشيخ من كبار شيوخ الأدب رحمه الله بعد ان ذكر ما ذكر من فضل العلم ومنزلته من التلميذ وحقوقه عليه مانصه :

« ولا ينبغي ان يبعثه أي التلميذ معرفة الحق له أي للمعلم على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعانة له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي بهم الأمر الى التسليم له فيما اخذ عنه . (الى ان قال) ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفر وقد استدل عليه بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال هذه دلالة فاسدة

وجه فسادها ان شيخني لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فأمسك عنه المستدل تعجباً ولأن شيخه كان محتشماً اه

والظاهر ان هذا غير مقصور علينا فقد اخبرني احد الأساتذة الافاضل الذين كانوا في نيويورك مدة ودرسوا في جامعتها المشهورة واخذوا دبلوماها ان القوم هناك يحرمون جداً النقول عن الأساتذة واهل العلم المشهورين ويقبلون المنقول عنهم من غير ان ينظروا في صحته او في عدمها ويكاد يكون المنسوب الى استاذ من اساتذة الجامعة عند احد تلامذتها او غيره كالمنسوب الى الشيخ الذي ذكره العلامة الماوردي عند تلميذه الموحى اليه. ولنرجع بعد هذا الاستطراد الى ما كنا فيه

لا شك عندي ان بعضاً من الأساتذة الغربيين وبعضهم ممن كان من اساتذتنا طعنوا في القافية لما رأوا ما لها من المقام عندنا وزعموا انها تؤدي الى السآمة والملل وسواء كانوا يعتقدون اولا يعتقدون صحة ما قالوه وسواء ايضاً قالوه بعد الفكرة والروية او قالوه على الخيل مع التسرع والعصبية فأنا اعتقد ان ما قصد اليه شاعرنا العربي بقوله — ايها اللآثم سلمى — يصدق على اكثر هؤلاء الطاعنين ويشك في انهم ممن جمعوا بين التحقيق والانصاف — وقليل هم الذين هم من هذه الطبقة — ومع هذا وذاك نقول لمثل هؤلاء الشاكين من يلزمكم ان تنظّموا اكثر من عشرين الى اربعين على قافية واحدة . واذا شاقكم البحر الذي تنظّمون عليه وخفتم من ملل تكرار القافية فأمامكم الخمسات او الموشحات الاندلسية واذا امتدّ بكم نفس موضوع قصيدتكم الى الغريات (نقرض ذلك فرضاً) فلماذا لا تقسمون الموضوع الى ابواب وفصول كمتابوتون وتفصلون المنشور وحينئذ تجدون مندوحة عن ملل القافية وعن ملل الوزن او البحر الواحد ايضاً اذا كنتم تشكون منه كما تشكون من القافية ولم أسمع من شك من هذا القبيل

وكان حالهما في الحكم واحدة لو احتكنا من الدنيا الى حكم

وأظن السبب أن احد الغربيين لم يشك من ذلك كما شك بعضهم من القافية . ولولا ان أعظم شعراء الغربيين انكليز وفرنساويين ينظم أحياناً مثات الايات على وزن واحد لرجحت أننا كنا سمعنا الشكوى من البقاء على الوزن الواحد كما سمعناها على تكرار القافية الواحدة وغاية ما أقوله ولا سيما من جهة استعداد اللغات العربية لبيان المعاني والتخييلات الشعرية وما اليها نظراً ونزاً أني أشك في أن اللغة الانكليزية وهي في الوقت الحاضر أغنى لغات أوربا تستطيع ان تمثل افكار المتنبي وحاسة المتنبي المعروفة له في مدح سيف الدولة بألفاظ أنصح من الفاظه وعبارات ابلغ من عباراته او تحدث في النفس لو اخذت على عهدتها

تصوير تلك المعاني ما تحدّثه تلك القصائد من القشعريرة والنشأة في نفس قارئها ولا أشك أيضاً بل أنا على يقين ان المعاني والحكم المودعة في كافوريات هذا الرجل لا تستطيع اللغة الانكليزية على تصويرها بعبارة ابلغ من عبارتها العربية . فان قلت ان المتنبي وَاَبَا العلاء المعري والبها زهير لم ينظموا مثل معاني شكسبير ولا تقابل معانيهم بمعانيه ولا طريقتهم بطريقته . قلتُ انت هنا تقابل الرجل بالرجل لا اللغة باللغة فشكسبير غير المتنبي وغير أبي العلاء وغير البها زهير وعلمه غير علمهم وطريقته وموضوعه غير طريقتهم وموضوعهم ولا شك عندي ان شكسبير كان اوسع تخيلاً وأعلم بالناس واتباع الناس وبما يحول في خواطر كل طبقة من طبقاتهم اكثر من البها زهير ومن المتنبي ومن أبي العلاء ايضاً ولكن هذا لا يعني ان اللغة الانكليزية في اتساعها واستعدادها للترقي كانت وستكون أفضل من اللغة العربية وان نسبتها اليها في ذلك هي كنسبة اتساع خيال شكسبير ومعرفته بأطباع الناس وعواطفهم وانفعالاتهم الى اتساع خيال المتنبي ومعرفته كذلك

افرض ان مثل شكسبير الآن ومثل المتنبي كذلك توارد خاطر كل منهما على معنى واحاط كل بذلك المعنى كاحاطة صاحبه به وجاء هذا بعبارته الانكليزية وذاك بعبارة العربية فأَي العبارتين تظن كانت تكون اوضح وابغ — الحكم في هذا نتركه لهما لعارف باللغتين

دعنا من الفرض والحكم على المفروض وهلم بنا الى الموجود والواقع فعلاً وبياناً : اطلع احد كبار اساتذة الانكليز وجهابذة كتابهم على ديوان البهاء زهير واحاط بمعانيه كل الاحاطة وفهمها بمساعدة المرحوم رزق الله حسون تمام الفهم ثم ترجم ذلك الديوان الى الانكليزية . ولا شك ان غيره وقف على هذه الترجمة كما وقفت انا عليها منذ سنوات فليحكم الاديب المطلع على الترجمة بين اللغتين وليقل لنا هل الالفاظ الانكليزية وتراكيبها هي اشف عن تلك المعاني من اللغة العربية واكثر منها ايجازاً واقتصاداً على انتباه السامع اخترت ديوان البهاء زهير لأن الرجل شاعر فكاهي اعتيادي لم يفرق في تخيلاتهِ ولا في تصوير انفعالاتهِ وجل ما جاء به ان لم يكن كلمة من المؤلف المعتاد بل عبارته تنحو في أغلب أحوالها منحى لغة العامة ألا انها عبارة أديب عارف بصرف اللغة ونحوها لا يتجاوز ما يتجاوزها العامة من ثم زوايا الالفاظ الصرفية ولا يخلُ بالاستواء الذي يقتضيه المطار الاعرابي ومثل هذه اللغة ليس في ترجمتها الى لغة أخرى ما يمجز المترجم وتقصُّ به اللغة المترجم اليها

نعم اصل اللغة الانكليزية غير أصل اللغة العربية في اطباعهم وعاداتهم وحاسياتهم

ومجاري أفكارهم وغيرهم أيضاً في علمهم واختباراتهم وبالتالي في تخيلاتهم وفي قابلياتهم واستعدادهم. واعترف أيضاً من غير استحياء أن في خاصة الانكليز وأهل الأدب منهم الآن أفراداً أرقى من خاصة المتكلمين بالعربية في استعدادهم وعلمهم معاً. كل ذلك مسلم به عندي وعند غيري كما أرجح ولكني لا أسلم إن استعداد اللغة الانكليزية لاتساع وتصور الأفكار والتخيلات الشعرية حقيقة أو مجازاً هو في أصله وطبيعته أعلى وأرقى من استعداد اللغة العربية له. ينقصنا استعداد الاشخاص لا استعداد اللغة وارتقاء الافراد المتكلمين بها لا إرتقاؤها لأن إرتقاء اللغة إنما هو بارتقاء أفرادها وانحطاطها بانحطاطهم أو بتألفهم ومتى وجد الشخص المستعد ذو الخيلة الواسعة الشعرية بين أدباء العربية وجدت فيها تلك التخيلات الشعرية السامية والجميلة لا ينقصها شيء مما تراه لها من الرونق والطلاوة والبهاء في لغة من اللغات الغربية

وجد الريحاني فوجد وادي الفريكة. وجد جبران جبران فوجد من العواصف وأمثالها في كتابته ومن لا تأخذه نشأة وإيما نشأة وهو يقرأ كتابات هذين الكتاتين الشعرية والنثرية. أنا أعرف الريحاني شخصياً وأعرف ان تمكنه من اللغة الانكليزية يفوق تمكنه من العربية وان ما استمده من لغة كبار كتاب الانجليزية في الفاظهم وعباراتهم هو اضعاف ما استمده وما يستطيع أن يستمده من كبار كتاب العربية ولكن جمال وادي الفريكة في العربية ليس هو دون جمال ذلك الوادي فيها لو كتبه الريحاني باللغة الانكليزية على ما اعتقد. مع أنه لو كان استعداد الانكليزية في أصل فطرته ارقى واغنى من استعداد العربية لكان حسن وادي الفريكة فيها لو كتبه الريحاني بالانكليزية عشرة اضعاف حسنه في العربية

ماذا نقول ايها الريحاني العزيز وقد قرأت ما قلت اني اعتقده عن جمال وادي الفريكة في العربية وانك لو كتبته بالانكليزية لما زاد جمال المكتوب في هذه عن المكتوب في بلده كما ينبغي أن يزيد فيها لو كان استعداد اللغتين في أصله واحداً بداعي كثرة من كان يمكن ان تستعين بهم من كتاب الانكليزية الذين سبقوك وقلة من استعنت بهم من كتاب العربية بل ارجح ترجيحاً يقارب اليقين انك لم تستعن بأحد اما لانه لم يقله بين كتاب العربية الغابرين مثل كتاب وادي الفريكة أو لأن كتبتهم تولاهم الضياع مع الايام او ابتاعها دجلة في جملة ما ابتاعه من كتب مكاتب بغداد

يا حضرة جبران افندي جبران أنا وان لم اعرفك ودعني اقول بعض المعرفة واظن أنك في آداب اللغتين كما ذكرت عن الصديق الريحاني ولذلك أسألك هل كانت تكون

عواصفك فيما لو كتبها بالانكليزية في شدتها ضعفي ما هي عليه في العربية ولا أقول
اضاعاف « على ما كان ينبغي » بل هل كانت تكون مثلها مع شيء من الربا الذي يستحقه
رأس مال اللغة الانكليزية المتحول اليك من بنوك كبار كتابها

وما قلته في الكتابة الشعرية اقله في الكتابة الادبية في كل انواعها على العموم
اي اننا نحتاج الى الكتاب المستعدين بالفطرة اولاً وبالاكتساب ثانياً مع التفرغ للكتابة
وترك الاشتغال في غير ما نجردنا وتفرغنا للكتابة فيه . فانه - عني ما اعتقد - إذا وجد
الكتاب على هذه الشريطة في العربية وجدت فيها ولاشك تلك الكتابة البليغة السامية
التي تراها اكبار كتاب الانكليز والفرنساويين . وبعبارة أخرى ليوجد في كتاب
العربية من هم في استعدادهم الفطري والمكتسب مثل كارليل ومكولي مثلاً او مثل فكتور
هيوكو وربنان فتوجد فيها كتابة هؤلاء في السمو وبلاغة البيان

وجد ابن خلدون فوجدت مقدمته وليست كتابات امثاله من الفرنسيين والانكليز
في هذا الموضوع بأبلغ من كتابته في المقدمة . وُجد الامام الغزالي فوجد الاحياء
وبقية مؤلفات هذا الامام التي لا نظير لها في فصاحة الفاظها وبلاغة عباراتها مع الدقة
والتحقيق الذين لا يهتئان اكتاب ما لم تكن اللغة التي يكتب فيها على درجة بالغة من
الارتقاء والاتساع

وجد الامام الزمخشري وخطيب السري الفخر الرازي فوجد تفسيرهما والكتابان
آية من آيات البلاغة وهيئات ان يكون لكتاب في مثل موضوعهما مثل ما لهما من رائع
الفصاحة وسمو البيان والبلاغة ، ولو كان المؤلف من طبقة رينان عند الفرنسيين او من
طبقة مكولي او كارليل عند الانكليز

ومثل تفسير الامام الفخر الرازي تفسير العلامة ابي السعود محمد العمادي قاضي
السلطان سليمان الكبير العثماني فان واقعاً على هذا التفسير لا يتصور أن تقوى لغة غير
العربية على الاتيان بتفسير أفصح منه أو اباح

وجد المرحومان جورجى زيدان وجيل المدور فوجدت روايات الاول التاريخية
ووجد حضارة الاسلام في دار السلام للثاني كتاب لو وزن بالدر لرجحها . ولو تفرغ
المرحوم زيدان للروايات التاريخية واستعان ببعض من كتاب الروايات الذين تقدموه
لكانت روايات المرحوم زيدان لا تنقص في فصاحتها وبلاغتها وتلاحم نسجها ودقة
تعبيرها عن كتابات دوامس الشهيرة ان لم تكن زادت عليها طلاوة وبلاغة عبارة على

حين ان المرحوم زيدان لم يكن كاتباً روائياً بل كان في فطرته فليسوفاً مفكراً وانما عدل الى كتابة الروايات لانه رأى ان سوقها رابحة وطلابها كثيرون يزيدون عشرات المرات عن طلاب التاريخ والفلسفة والاعتبار

وجد الدكتور صروف فوجدت روايته فتاة مصر وقتاة الفيوم ووجد ترجمة الحرب المقدسة وسر النجاح والدكتور صروف ليس هو روائياً في فطرته ولا تفرغ اكتابة الروايات انما عز له ان يودع بعض صفحات المقتطف شيئاً من فلسفة الاقتصاد وقوة العقل والمال وشر المضاربات وما تؤدي اليه ليستفيد الشبان من فلسفته ويحذروا من شرك المضاربات المنصوبة امامهم بصورها الكثيرة الجذابة ومع ذلك جاءت روايته في شكلها وموضوعها كاحسن ما كتب في بابهما من الروايات الغريبة مبنى ومعنى ولقد قرأت اثروايتين حين صدورهما ولا ازال الى اليوم اشعر بنشأة استحسان تقوم في نفسي كلما ذكرت اسميهما

وجد المرحوم البستاني والدكتور فاندريك فوجدت ترجمة سياحة المسيحي التي تكاد تكون ابلغ من الاصل او كأن الكتاب وضع وضعاً ولم يترجم ترجمة وجد المرحوم فارس الشدياق فوجد كتاب الواسطة وكتاب كشف الخبا وسائر كتاباته الأدبية البالغة من الحسن والطلاوة مبالغها ولعل كل من ذكرنا لم يكونوا في استعدادهم الفطري من الطبقة الأولى فيما كتبوا فيه وبعبارة أخرى لم يكن استعدادهم للكتابة في المواضيع التي كتبوا فيها أو ترجموها نظير استعداد أكبر كتاب الانكليزية والفرنساوية في تلك المواضيع هذا فضلاً عن أنهم لم يفرغوا لما كتبوا فيه كما تفرغ من تقابلهم بهم من أكبر كتاب القوم الذين تقابل لغتنا على لغاتهم ومؤلفاتنا على مؤلفاتهم وجد المرحوم الدكتور شميل فوجدت كتاباته في الموضوع المستعد له في فطرته ومع أنه لم يستمن بغيره من كتاب العربية المتقدمين عليه جاءت كتاباته في فصاحة ألفاظها وبيان مبادئها وبلاغتها كافصح وأبلغ ما جاء في ذلك الموضوع لأكثر علماء الفرنسيين والانكليز

وصلت في نسخ هذه المقالة الى هنا ثم اتفق أن أحدهم فتح « المورد الصافي » الذي صدر حديثاً وقرأ علينا فيه مقالة للمرحوم الشيخ اسكندر العازار موضوعها « قيمة الاشياء » فقلت في نفسي لو أن المرحوم الشيخ اسكندر تفرغ وهو في الاربعين من عمره لهذا النوع من الكتابة الذي اشتهر فيه دكنس عند الانكليز ومارك توين عند الاميركان فأني ذخيرة بل أي كنز كانت صارت كتاباته في العربية لمن يأتي بعده من

الكتاب . ان المقالة المشار اليها أسالت في مواضع كثيرة منها دموع الكثيرين منا ان لم أقل كلنا لفكاهتها وتدفعها بحسن الدعابة وخفة الروح . وهنا يصح أن نقول كما قلنا سابقاً : وجد المرحوم اسكندر العازار فوجدت كتاباته في خطبه التي رن صداها في الآفاق وأطربت نوادي الأدب من سمع ومن قرأ ولا تزال في كثير من مواقفها ومباحثاتها تضحك الشكلى ويفغل منها الحزين عن أحزانه والشجي الصابي عما شجاه وأصابه وما تنسى — فلا ينبغي لأحد ان ينسى — كتابات المرحوم قاسم أمين في كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة فانها من الطراز العالي فوجد وقد كان المرحوم قاضياً فيلسوفاً لا منشئاً كاتباً فكيف بكتابته فيما لو كان مفطوراً على الادب وحسن البيان وتفرد للكتابة فيما فطر عليه . وأرجح أيضاً انه لا يذكر ذاكر في مصر المرحوم قاسم أمين الا ويذكر تلميذته المرحومة باحثة البادية ومن يقول ان كتابة سيدة أوربية في سنها وفي الموضوع الذي كتبت فيه هي في البيان والبلاغة او في فصاحة الالفاظ والعبارة أعلى طبقة رحمها الله

(٢)

عود الى الشعر والشعراء

لم اتصدّ لذكر السابقين المجايين من شعرائنا الذين تفخر بهم العربية الآن في مصر والشام والعراقين لاسباب منها اني أخاف الغفلة عن ذكر من لا يجوز الغفلة عن ذكرهم جهلاً مني أم نسياناً عن غير قصد وهذا ما لا يجوز لي وما لا أريده أيضاً بوجه من الوجوه ومنها ان أكون قائلًا ما اقله في شعرهم عن رأي لا عن تقليد . وهذا يقتضي مراجعة ليست متيسرة لي الآن ولو تيسرت مراجعة دواوين كبار شعرائنا لما تيسر لي مراجعة دواوين من هم في طبقتهم من شعراء الانكليز لا قابل بينهم واحكم عن يقين في أي المجلي من شعراء الفريقين أشعراء العربية أم شعراء الانكليز ثم على فرض اني راجعت وقابلت فأخاف ان لا اكون منصفاً اذا حكمت ولا اشك ان الحيف يكون واقعاً على شعرائنا ويحقّ لأيّ منهم اذا قابلت شعره بشعر تينسن مثلاً فبان السبق لشاعر الانكليز ان يقول لي ما أنصفتي ولا أنصفت العربية وقد كان يجب عليك ان تظن لمغزى شاعرنا العربي حيث قال

تقولين ما في الناس مثلك عاشق جدي مثل من أحبته تجدي مثلي

وأنا أقول جد لي أمة كالأمة الانكليزية اشعر بها اني سائد لا مسود وسابق لا مسبوق وعزيز غني لا ذليل فقير وحاكم مسلط نافذ أمره في غيره لا محكوم مسلط

عليه نافذ أمر غيره فيه . وجد لي بوسط راق وتهذيب بالغ مستوفٍ كالوسط والتهذيب
الذين كانا لتيسن وخذمني بعد ذلك شعراً كشعره فيه خيالٌ نكياله ونفر كفخره
وعزة وطموح كعزته وطموحه . نعم جد لي أمة ووسطاً أشعر معهما كما كان يشعر تيسن
أو من شئت غيره من شعراء أمته فأجد لك شعراً يقول بلسان حاله عن نفسه
بلغنا السماء بمجدنا وسناؤنا وأنا لنبغي فوق ذلك مفخرا

مساكين نحن أبناء العربية ومساكين هم أغلب شعرائنا الذين ليس لهم ما يفاخرون
به الآن الا عظام الأجداد البالية : أين يحيطهم من محيط أمثالهم من شعراء الانكليز
وأين وسطهم الراقى الذي عاشوا وتهذبوا فيه من وسط أولئك وأين شعورهم الشخصي
وشعائرهم القومية من شعور أولئك وشمازهم . وإذا كان الشعر ابن الشعور الشخصي
والقومي كما يذهبون وكما هو الحق فشتان اذن شتان بين شعر شاعر من أمة غالبية سائدة
وشعر شاعر آخر من طبقته ولكنه من أمة مغلوقة مسودة : كيف بل مئة مرة كيف
يستوي شعر هذين ؟ متى استويا أو يستويان ؟ دعوني أنظر الى هذه المسألة من وجه
آخر وليعذرني القراء على اشباع الكلام في هذا الموضوع فانه ما زال منذ سنين يحول في
خاطري وأنا أتوجع لغتنا وشعراء لغتنا من اعتقاد بعضهم فيها بمن استهوتهم الأميال والاداب
الانكليزية أو الفرنسية . ولذلك لا أستطيع أن اتركه وقد اكتبنتي الفرصة قبل أن آتي
على آخر ما يحضرني مما يغش وطاب كربى ويفئ ثوران صدري

لنفرض أن شاعرنا العربي المصري أو السوري عاش في وسط راق كالوسط الانكليزي
وغينما عنه فكر السائد والمسود والغالب والمغلوب أبجوز لنا أن تصور أن تكون البيدعية
التي فيه من حيث الشدة والاتساع كالبيدعية التي في الانكليزي من هذه الحيثية ؟ كلا لا
يجوز ثم كلا وكلا فان خمساً وأربعين مليوناً بل مئة وخمسين مليوناً (انكلترا واميركا)
لا يكون أنبغ نابغ فيهم في الشعر والادب أو في الاقتصاد والسياسة أو في الالهيات
والفلسفة مساوياً لانبغ نابغ في اثني عشر مليوناً أو قل خمسة عشر مليوناً (أهل مصر
والشام) . نعم يتشابهان في أن كلا منهما أنبغ نابغ في أمتة ولكنهما لا ينبغي أن يتساويا في
شدة النبوغ واتساعه وانضرب مثلاً على ذلك

ان مشتلة تبغ فيها خمسة وأربعون مليون شتلة لا تكون الشتلة أو الشتلتان المتقاة منها
في علوها ونخنها وعدد أوراقها وسائر الصفات المؤذنة بميزة فرد عن آخر وتفوقه عليه
كالشتلة أو الشتلتين اللتين تنقيان من مشتلة ليس فيها الا اثني عشر مليون شتلة
وهكذا فقل في مشتلة (أو دندالة) من التوت أو التين أو الزيتون أو التفاح أو الخ

بل المشتقة التي هي أكثر أفراداً يظهر فيها النبوغ الاعظم في شدته واتساعه والارجح ان يكون الحال في القوميات الانسانية كالحال في المشائل اذا تساوت القوميات بحسب الظاهر في سائر المحيطات الحسية والمعنوية ماعدا كثرة العدد فان القومية التي هي أكثر عدداً يكون عدد الافراد التوابغ فيها أكثر وفي الوقت نفسه يكون التفوق في شدة النبوغ أو الابدعية حيث يكون التفوق المدي

معلوم الفرق بين محيط الفرد منا ومحيط الفرد من المتكلمين بالانكليزية . معلوم كذلك الفرق بين يبدعيتنا ويبدعيتهم وبين ارتقائنا العلمي والسياسي والفلسفي الخ وبين ارتقايتهم فانهم يفوقونا في جميع ذلك ويفوقونا أيضاً في كثرة عدد الافراد ولعل نسبتنا اليهم في ارتقاء المحيط العلمي والادبي والسياسي هو كنسبة واحد الى ثلاث أو أربع وأما في كثرة العدد فنسبتنا اليهم كنسبة واحد الى عشرة فان المتكلمين بالانكليزية في بريطانيا والولايات المتحدة نحو من مئة وخمسين مليوناً وعليه فاذا كانت لغاتهم في استعدادها الفطري أو الاولوي أرقى أو أعلى من استعداد العربية فينبغي إذن أن يكون الفرق الحالي في آداب اللغتين واقتدارهما على تصوير المماني الشعرية وقل أيضاً المعاني الأدبية والسياسية والاقتصادية والفلسفية بالغاً أعظم مبالغه ولا يجوز المقابلة بينهما والمتصدي للمقابلة لا يرى غير السخرية وتزوية الفم والانف وينظر اليه كما ينظر الى من يتصدى لمقابلة عمران القاهرة مثلاً بعمران بعض العزب في ضواحيها أو بمقابلة عمران بيروت وجمال قصورها بعمران إحدى قرى البقاع وجمال بيوتها المبنية بالطين وبعض الحجر

وان كان استعداد اللغتين الفطري أي لغتنا ولغتهم واحداً فلارتقاء محيطهم عن محيطنا ولزيادة عدد المتكلمين بلغتهم عن عدد المتكلمين بلغتنا كان يجب أن تكون آدابهم وشعرهم وفلسفتهم في حسنها وبلاغة بيانها وما الى ذلك أعلى من آدابنا وشعرنا وفلسفتنا ثلاث مرات الى عشر مرات . ولو كان الفرق بالغاً هذه الدرجة ما كان احد على ما اظن يحسر على الوقوف بجانب لغتنا والانتصار لها بل كان رجل مثلي يتصدى لكتابة ما كتب بحسب مدخول في عقله وأقل ما كان يليق به من النعوت أنه جاهل مغفل لا يدري ولا يدري انه لا يدري . ولما كانت نتيجة كلا الغرضين هي مما لا يسلم به ولم نر من عالم ولا من أديب مفكر حتى من نفس الغربيين قال به فالفرضان اذن — أي ان لغتهم باستعدادها الاولوي أرقى من لغتنا أو مساوية لها — جديران بالشك وعدم القبول وبالضرورة يكون ما نحاول اثباته وقد تعيننا له في هذه المقالة ما تعيننا هو الاجدر بالقبول والثقة أي أن لغتنا باستعدادها الاولوي أو بفطرتها الأصلية هي أرقى من الانكليزية أو الفرنسية

وأعلاهما بلاغة وأبينهما بياناً في الشعر والخطابة وما الى ذلك من العلوم الدينية والاجتماعية والفلسفية ولكنها تحتاج الى الخدمة والى من يخدمها من الافراد التوابغ والبيدعيين ويحتاج هؤلاء اذا ظهروا أن يتفرغوا لما خلقوا له وأن تصرف اليه وجهتهم . وهنا أقول أن يبادعة (١) البيان كيبادة الفنون اذا وجدوا انصرفوا الى ما فطروا عليه على رغم الصعوبات والموانع الا أنهم قلما يظهرون الا في الفترات المتقطعة والاحايين من الدهر في كل أمة لا فرق في ذلك بين شرق وغرب أو بين أصفر وأحمر فما على العربية الا أن تستشرف الى ظهورهم حتى اذا ظهروا وعرفتهم كان عليها أن تنزلهم المنزلة التي تحق لهم وتحتفظ بهم ولا احتفاظها بنفس العلاقات وأتمنى الجواهر . ولعل عدداً منهم تفاخر كل أمة بوجود مثله بينها هو الآن بين ظهرانينا في المهاجر وفي البلدان العربية وأخص مصر والشام والعراقين على رغم الحالة الشؤمى التي صرنا اليها من ضغط السياسة الأوربية علينا وطموح تمدنهم وعوائدهم وأفكارهم على تمدننا وعوائدها وأفكارنا ولما تكيف لكل ذلك بعد

كأنى أسمع قائلاً يقول وجد بين اساندة الانكليز من ترجم ديوان البها زهير وجاءت ترجمته كما يقولون غاية في الاجادة وحسن البيان . ولكن لم يوجد بين اساندة العربية من نظم ديوان شاعر انكليزي وجاء فيها كما جاء ديوان البها زهير في الانكليزية فاذا تقول ألا يؤخذ من هذا ما يؤيد دعوى من يزعمون انحطاط العربية عن الانكليزية وقصورها عن ان تؤدي ما تؤديه تلك من البلاغة وحسن البيان ؟

والجواب : نعم وجد بين اساندهم من ترجم ديوان البها زهير ولحد الآن لم يوجد بين اساندها من تصدئ لترجمة ديوان شاعر انكليزي بل على فرض انه وجد من تصدئ

(١) اليبادة أو الابداعة جمع يبدعي وأبدعي على قياس بلعمي وألمعي هو الذي يدع في أقواله أو في فنه اي يأتي به على غير مثال وبعبارة اخرى هو الذي قد يبتكر البسارات ابتكاراً لا يقلدها تقليداً وذلك لما يرى من المناسبات الخفية التي لا يراها غيره بين المعاني والالفاظ الدالة عليها وبين بعض الافكار والمعارف الخاصة المبتدعة كقولهم هي الوطيس . وان من البيان لسحرا . وهذا يوم له ما بعده . والايما يوجب ما بعده . والمضغ امير الركب . والناس ابتاء ما يحسون . ولعل من هذا الباب قول من قال :

مستقبل بالذي بهوى وان كثرت منه الذنوب وممذور بما صنعا
وقول ابي نواس : لا تسدين الي عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا
وقوله ايضاً ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

وكثير من ابيات ابي تمام والنتي التي جرت مجرى الامثال فانها كانت في زمانها من المبتكرات على الارجح

لذلك ثم لم يستطع ما استطاعه الاستاذ الانكليزي المومى اليه فلا يؤخذ ذلك في اعتقادي
 دليلاً يؤيد زعم الزاعم بقصور العربية وسبق الانكليزية
 وياناً لذلك أقول دعوني أذكر لكم شيئاً عن مترجم ديوان البها زهير وشيئاً عن
 الديوان نفسه ولكم بعدها ان تحكوا بما شئتم

مترجم البها زهير هو الاستاذ ادورد هنري بلير المشهور استاذ العربية في جامعة
 كمبردج جامعة من أقدم وأشهر الجامعات البريطانية وقد خصص حياته للاشتغال بالعربية
 بعد ان انتقته جامعته لذلك انتقاء من بين مئات طلبتها المبرزين ومضى على الاستاذ في
 مهنته هذه سنوات عديدة كان لا هم له فيها الا بلوغ أقصى الغاية فيما اتجهت وجهته اليه
 من ترك أثر له عن العربية يكسبه فخراً وشهرة ويكسب جامعته أيضاً مثل ذلك ان لم يكن
 اضعافه وفوق ذلك فقد استعان الاستاذ المومى اليه في ترجمته بأديب عربي هو رزق الله
 حسون لا غيره . رجل كان من خيرة ابناء العربية وأشهر أدبائها وكتابها لذلك الحين
 فضلاً عما في كمبردج من الاسباب والوسائل التي تسهل للاستاذ بلير وأمثاله الوصول الى
 الغاية التي يرمون اليها

فالى أن يكون عندنا جامعة في الشهرة والقدم ككمبردج والى أن يتها أن ينبغ
 فيها اسانذة يدرسون الانكليزية ويرعون فيها على نسبة تفوقهم في العربية وتزجج جامعتهم
 عنهم اللعل والاسباب التي تصرفهم عن موضوع تدريسهم وغاية حياتهم الى أن يتم كل
 ذلك ويتصدى منا استاذ لترجمة مثل ديوان البها زهير ثم لا يستطيع أن يأتي بمثل ما أتى
 به الاستاذ هنري بلير الى حينذاك لا الى ما قبله ينبغي التوقف في الحكم بقصور
 العربية وسبق اللغات الاجنبية الانكليزية أوالفرنساوية

نعم قبل ان يتحقق كل ما ذكرناه لا يجوز لزاعم ان يزعم في العربية ما يعتقده بعض
 أبنائها الذين يتأدبون على موائد اللغات الاجنبية وقد سقاهم اسانذة تلك اللغات سلوانات
 لا سلوانة واحدة ولا اثنتين ليسلوا لغتهم وينصرفوا عنها وعن محاسن آدابها الحاصلة والتي
 يمكن أن تحصل

لترجع الى الديوان المترجم والى صاحبه فنقول كان البها زهير وزيراً اديباً وكان
 شاعراً فكهاً رقيق حواشي الطبع خفيف الروح فجاء ديوانه كأخلاقه سهل العبارة قريب
 الاشارة لا تتقل الفاظه في مجمع ولا معانيه على فهم لم يأت فيه بتخيلات غير اعتيادية ولا
 أتعب نفسه بمحكم غامضة أدبية أو بصورات سياسية اجتماعية تستدعي درجة رفيعة من
 الفهم وقدرأ كبيراً من الذوق والعلم . ولذلك فما أظن انه بصعب على أحد من نهاء الازهر

الشريف ممن يرفعون قليلاً عن متوسط الكتاب أصحاب الذوق وسلامة الطبع في اللغة والانشاء أن يترجم ديواناً هو في الانكليزية كالبها زهير في العربية بشرط أن يكون ممن أتقنوا فهم الانكليزية كما أتقن الاستاذ بفهم العربية ثم يمكن من الأسباب واتساع الزمان كما يمكن من كل ذلك الاستاذ الموصى اليه

بل انا اعتقد أن أديباً من أدباء الازهر ممن يميلون الى فنون الأدب والبلاغة ولا يزيد عن أن يكون من الطبقة الاولى الاعتيادية في صناعة الانشاء اذا استعد كما استعد الاستاذ بلهر وأزيمحت أعذاره كما أزيمحت أعذار ذاك يستطيع ان ينقل « الفردوس المفقود » الى العربية بل و « الفردوس المرتجع » أيضاً نقلاً يوسم بطابع من البلاغة وحسن البيان لا يقل عما وسم به ديوان البها زهير في ترجمة الاستاذ مع ما لهذين الكتابين من علو الطبقة ورفيع المنزلة في اللغة الانكليزية

أنا لا أعلم أديباً منا تصدّى لنقل ديوان من دواوين شعراء الانكليز فاستشهد به تقوية أو اثباتاً لما أذهب اليه ولكني أعلم ان البستاني نقل الالياذة المشهورة الى العربية ومع انه لم يتفرغ للنقل ولا كان من الذين وقفوا كل حياتهم للغة وصناعة البلاغة مع ذلك وعلى تبين ما بين العربية واليونانية في الذوق والتخيل بالنسبة الى الانكليزية جاءت ترجمة العلامة البستاني لا تنقص في حسن بيانها ولا في تصوير ما أراده شاعر اليونان عن معدل أحسن ترجمات هذه المجروية (١) الى اللغة الانكليزية فإذا يمكن بل يجب أن يستدل مستدل من ذلك يا ترى ؟ أي اترك الجواب لأهل العلم والتحقيق من المتأدبين وذوي الانصاف في أحكامهم سواء كانت أحكامهم لهم أم عليهم

٣

سمعت مرة أحد الأدباء يذكر كتاب الأبطال وعبادة الأبطال لكارليل الانكليزي وكان الإعجاب به ملاء فيه وصوته وملء عينيه ووجهه (ويستحق كل ذلك كتاب كارليل كما سمعت) ولكنه كان في أثناء ذلك يشكو بل يتعمر أسفاً ان ليس في العربية مثل هذا الكتاب ويخاف ان هو أقدم على ترجمته أن يقال له ماذا صنعت - خست أم خست ؟ (قل للذي خستها خستها يا أعور)

وكانت غنة المראה ظاهرة كل الظهور في اعتراف هذا الأديب بمجزه عن الترجمة ويعني بمجزه أن لا تحيي الترجمة في بلاغتها وحسن بيانها وإشاراتها كما هي في الأصل

الانكليزي . ولكني لحظت أن هذا الأديب (وأمثاله كثيرون) كان يلقي معظم المعجز ان لم يكن كله على عاتق اللغة لا على عاتقه
اني أشعر مع هذا الاديب ومع كل أديب مثله اذ يرون مثل هذا الكتاب الذي يصدق فيه ما قول المعري

لفظ كان معاني السكر تسكنه فن تحفظ بيتاً منه لم يفق
إذا ترنم شادٍ لليراع به لاقى المنايا بلا خوفٍ ولا فرق
وان تمثل صادرٍ للصخور به جادت عليه بعذب غير ذي رنق

يرون مثل هذا الكتاب ولا يستطيعون أن يردوه من ساعته الى العربية ببلاغة كبلغة أصله وبيان كيانه ولانهم لا يفطنون الى ان المعجز والقصور في نفوسهم يزعمونه في اللغة وينسبونه اليها ثم يشكون منها مرء الشكوى . وأنا لا أكتفي هنا بمجرد قولي أنهم مخطئون كما ألمت الى ذلك قبلاً مرة أو مراراً بل لابد لي من بيان موضع الخطأ ولا سيما في مثل كتاب كارليل هذا فأقول

(١) ان أمثال هؤلاء الادباء لا يفطنون الى ان كارليل هو من نوابغ كتاب الانكليز ومن أفرادهم في الادب وصناعة الانشاء في القرن التاسع عشر وانه الى الآن لم يظهر في عالم البلاغة الانكليزية أحسن منه ان لم أقل مثله
(٢) أنهم لا يفطنون أيضاً في الراجح الى أن كارليل بقي نحواً من عشرين سنة تقريباً يطالع ويفكر ويستعد قبل أن كتب هذا الكتاب . ولعله أيضاً بعد أن كتب مسوداته بقي بضعة أشهر ان لم أقل بضع سنين يحل ويعقد في نسيج كتابه حتى جاء على صورته الاخيرة التي براه عليها ادباؤنا المتشوفون الى ترجمته من غير أن يستعدوا لها الاستعداد اللائق بها

(٣) أنهم لا يفطنون لسلسلة أفكارهم الخفية التي يبنون عليها احكامهم الظاهرة فكأنهم يبنون وثباً من مقدماتهم الى النتيجة بدون أن يدققوا في صحة المقدمات
لو حلل الاديب الذي أثمرت اليه معقود سلسلة أفكاره لوجدها على ما يأتي — وهي كذلك حللها هو أم لم يحللها

(١) من يستطيع لدى المطالعة أن يفهم بنساية أفكار مؤلف في مؤلفه ومراميه فيها يستطيع أن يبني مثل مؤلفه اذا وجد المواد اللازمة للبيان
(٢) أنا فهمت كتاب كارليل ومراميه فيه وفهمت قواعد البيان التي جرى عليها أثناء ما كان يبني بل درستها في كتب البيان العامة التي درسها هو ولعلي زدت عليه في

ذلك . والنتيجة التي يرجح أن قد وثب اليها ذهنه من هاتين المقدمتين هي : اذن أنا أستطيع ان اترجم الكتاب اذا وجدت المواد اللازمة للترجمة ولكني جربت الترجمة فلم أستطعها . ثم لما كان فهمي وفهم كارليل فيما أودعه كتابه متساويين فبالضرورة ان المواد اللازمة للبناء التي كانت عنده والمواد التي هي عندي غير متساوية وهو المطلوب . وهنا أيضاً اعظم الخطأ واخفاه كما يظهر للتأمل بعد التروي واعمال الفكرة

لنبحث الآن في صحة المقدمة الأولى ومن يسلم بصحتها بعد التفطن لها ؟ لا أحد على ما أظن فانه ليس كل من يستطيع فهم افكار مؤلف وفهم الضوابط والقوانين التي بموجبها بنى المؤلف افكاره يستطيع ان يبني مثل تلك الافكار . فصناعة الحياة حياة الحام البلدي على انوالنا السورية البسيطة يستطيع اكثر الذين عندهم ادنى مسكة في الصناعات اليدوية أن يفهموها في أيام قلائل وقل في أسابيع ولكنهم لا يستطيعون حالما يفهمون قواعد الحياة بالمشاهدة العينية بل بعد الممارسة الاولى أيضاً أن تأتي شقتهم التي يحكيونها بعد تلك الممارسة كشقة المعلم الذي تعلموا عنه وأجبوا أن يحاكيوه

هب صناعة نسج خيوط الانشاء الفكرية في بساطتها وسهولتها كصناعة نسج الخيوط القطنية أو الصوفية فانك لا تستطيع بمجرد فهمك افكار مؤلف في كتابه وان بلغت في ذلك مبلغ فهم المؤلف تماماً أن تأتي شقة ترجمتك لها كشقة المؤلف في قوتها وتلاحم خيوطها مع تناسبها بعضها بعضاً في كل أجزاء الشقة من أولها الى آخرها ولا سيما اذا كان ثم شيء ونعمة تحب ان تقلدها أيضاً . وقس على صناعة الحياة صناعة الموسيقى . وهنا أمثل لك بي ذاتي فاني درست مبادئ الموسيقى وفهمت عقلياً وأفظرياً كل ما قاله لي الاستاذ عن طبيعة الصوت في سائر درجاته الثمان من دو القرار الى دو الجواب وكنت أستطيع حيناً أن أقرأ بكل سهولة علامات كل ترتيلة في كتاب ترتيل الكنيسة الانجيلية البروتستانية بل وتحررت على ترنيم بعض هذه التراتيل مدة لا تقل الآن عن خمسين سنة ومع ذلك فالى هذه الساعة لا أستطيع أن أرسم أبسط ترنيمة منها لوحدي . واذا وقف المرتلون الذين أنا بهم بصوتي عن الترتيل وقف لوقفهم كل وتر في حنجرتي . وعلى فرض اني بقيت مستمراً في ترتيلي كان ترتيلي تصويماً لا ترنيماً وتخيلاً لا توقيماً (ومن توفيقاتي والحمد لله أني أفهم من نفسي هذه المقدرة الموسيقية وممو درجة استعمادي فيها تمام الفهم) والمقدمة الثانية مغلوطة أيضاً كالاولى لانه على فرض اني فهمت كل ما ذكره كارليل في كتابه فهل اكون فهمت كل ما أودعه فيما ذكره في ذلك الكتاب . وليبان ذلك اكتفي بأن أسأل هذا السؤال وهو : هب ان كارليل لم يكن في رأسه غير ما ذكره في

كتاباه فهل كان استطاع هو نفسه أن يكتب ذلك الكتاب او بجيء كما جاء خلافة وبياناً ساحراً . كلا . وانا أسأل أيضاً كل اديب قرأ كارليل هل فهم من كتابه لأول مرة قرأه نفس ما فهمه في المرة الثانية ؟ وهل يفهم من قراءته للمرة الثانية نفس ما يفهم في المرة الثالثة من غير زيادة ؟ أم هو يفهم في كل مرة قرأ الكتاب مع الفكرة والروية شيئاً زائداً عما كان فهمه في القراءة التي سبقت ؟

لنرجع الى ما كنا فيه والى الاديب الذي أشرنا اليه . لنفرض ايها الأديب أن فهمك وفهم كارليل تساويان بتكرار مطالعتك لكتابه ولنفرض أيضاً مجرد فرض أن ذوقك في فن الانشاء كذوقه ويبدعيتك في البلاغة وحسن البيان كبدعيته فهل المواد اللازمة للكتابة الحاصلة لك والخزونة عندك مساوية للمواد الحاصلة كانت له والخزونة كانت عنده ؟ مالنا وللمواد اللازمة للكتابة في نفس اللغة العربية والانكليزية فان حسن كتابتك أو ربحتك لا تتوقف على هذه بل على مقدار الحاصل لك والخزون عندك منها

ان كارليل اطلع على كتابة عشرات من أبلغ الكتاب في لغته وحفظ من الشعر والنثر البليغ في الانكليزية ما يقارب ما كان يحفظه ابو بكر الخوارزمي فهل قرأت أنت — ولا اقول حفظت — ديوان أبي تمام ورسائل الخوارزمي وفهمت أيضاً مع القراءة ما في الفاظ هذين المؤلفين اي الديوان والرسائل فأصبحت تستطيع ان تميز بين المعنى الحقيقي والمجازي وفي أي المعنيين تستعمل هذه أو تلك اللفظة التي يتفق لمستفهم ان يستفهم منك من معناها ؟

ماذا كانت مطالعاتك في كتب اللغة والادب والحكمة والتاريخ وأي الكتب البليغة وقفت عليها وتغنيت بضبطها واستقصاء البحث عن أصل معاني الفاظها ؟

أقرأت مؤلفات الجاحظ بل البيان والتبيين من مؤلفاته ؟

أقرأت مؤلفات النعالي قراءة فهم وروية ؟ بل ارضى لك أن تكون قرأت له اليتيمة فقط . او رسائله الخمس وكتابه سحر البلاغة

هل قرأت مؤلفات ابن مسكويه ؟

هل قرأت مؤلفات الغزالي ؟

هل قرأت مؤلفات محي الدين ابن العربي . بل هل قرأت كتاب صبح

الأعشى للقلقشندي ؟

لوسألت عن اسماء الكتب واسماء الكتاب المشهورين الذين راجع كارليل مؤلفاتهم مراجعة فهم واستقصاء لوجدت عشرات من مثل أبي تمام وعشرات او اكثر من مثل

الجاحظ والتمالي ومثل ذلك او قريب منه من أمثال ابن مسكويه والغزالي وابن العربي كل مؤلفات مثل هؤلاء الاكابر راجعها الرجل قبل أن بدأ بكتابه كتابه وخزن عنده منها ما خزن من الفاظ لغته وعبارات بلغاتها فهل فعلت نصف ما فعله بل ثلثه بل ربه ؟ استعد نصف استعداد الرجل واخزن في محفظك من الفاظ العربية وعبارات بلغات كتباها في مواضيع تقرب من موضوع كتاب كارليل نصف ما كان يخزنه هذا الرجل ثم جرب نفسك في ترجمة كتابه وانا الكفيل لك انك تستطيع ترجمته في سنة أو سنتين ويحيى كما تشتهي ويشتهي أصحاب الأذواق الجميلة في فن البلاغة. بل أنا الكفيل انك تضعه وضماً كما نك كتبت ابتداء من عند نفسك ولا ينقص قدر كتابك في العربية عن قدر كتابه في الانكليزية ذرة من البلاغة وحسن البيان

ان معظم أدبائنا الحاليين هم ممن درسوا في الانكليزية أو في الفرنسية سنوات وطالعوا ما شاء الله أن يطالعوه من بليخ كتب أدبها وفلاسفة أدبائها وكل ذلك بعد ان درسوا كتب صرفها ونحوها وبياناتها وبلاغتها وحذقوا ذلك اكثر من انبائها ولكنهم في لغتهم اقتصروا على درس بعض علوم اللغة من الصرف والنحو متأقنين ولعلمهم مروا مرور المسرع على مختصر من مختصرات البيان والبلاغة وأما كتب الأدب والتاريخ وما إليها من كتب الحكمة والسياسة المدنية فقلمنا زادت مطالعاتهم في هذه عما يكتب عادة في مجلاتنا العلمية والأدبية . وبعبارة أخرى أنهم صرفوا سبع سنين الى عمان أو تسع في كلية أجنبية وكانوا في كل تلك المدة يدرسون لغتهم ساعة ويدرسون لغة المدرسة التي هي الانكليزية أو الفرنسية أربع ساعات على الأقل الى الست ساعات

ثم بعد أن أخذوا شهادة المدرسة بقيت نسبة مطالعاتهم في لغتهم إليها في لغة أجنبية كنسبة واحد الى اربع . امثال هؤلاء الأدباء ينتقون من الكتاب امثال كارليل الانكليزي وامرسون الاميركاني وامثال شاتوبريان الفرنسية ويحاولون ترجمة أعلى مؤلفاتهم درجة في البلاغة وحسن البيان من غير ان يزيد على استعدادهم الذي اشرنا اليه في لغاتهم الا ما هو دون الطفيف . فاذا رأوا من انفسهم العجز ولا غرابة فيما اذا رأوا منها ذلك دعوا بالويل والثبور على لغتهم واتهموها بكل تهمة شفاء وغفلوا عن انفسهم وقصور استعدادهم وعلمهم بل غفلوا عن ان لغتهم انما هي ثم ترتقي بهم وتنحط بغفلتهم او باحطاطهم والفلة هي الغالبة علينا

اطلعت على قراء الهلال الاغر فيما كتبت ولكنه موضوع طاماً جال في خاطري فلم ار بداً من توفية حقه فأطلت لأفش بالاطالة كربى وأسري عن نفسي ولعلي

سرّيت عن نفوس كثيرين غيري ونفشت بما أطلت من نجات صدورهم وصدري. أقف
هنا الآن لآعقب هذا الفصل بفصل آخر آتي فيه على مختصر من تاريخ اللغة العربية
كيف نمت وارتقت ثم كيف وقفت وتراجعت الى ان بدأت النهضة الحديثة وما رافق كل
ذلك من تطورات اللغات الاجنبية الى أن أصبحت سابقة مقلدة بعد أن كانت لاحقة
مقلدة . فلعلنا بهذه اللوحة نهتدي شيئاً الى ما نحن في حاجة الى الاهتداء اليه من احياء
معالم العربية والرجوع بها الى المنصة اللائقة بها بين اللغات الحية والمنزلة الحرة ان
تكون لها بين لغات الادب والعلم والفلسفة الحالية وبالله الاستعانة وهو حسبنا ونعم الوكيل



اللغة العربية واللغات الاوربية

اللغات الاوربية لأول أمرها والمعلوم

كانت مدارس الأندلس العربية في ابان عزها بالنسبة الى بلدان اوربا كمدارس اوربا واميركا اليوم الى البلدان العربية في آسيا وافريقيا . وكانت اللغة العربية لغة العلم وعنها يترجمون . ولكن لغات القوم حتى ارقاها لم تكن تقوى على ان يؤلف فيها ولذلك كان علماءهم وادباؤهم يعتمدون على اللاتينية ويؤلفون فيها . والذي في ذهني ان العلامة نيوتن الانكليزي كتب كتبه العلمية في اللاتينية لا في الانكليزية

في أواسط وربما في أوائل القرن السادس عشر بدأت النهضة الأوربية الحالية وأخذ الكتاب الفرنسيون والانكليز والجرمان يضعون الكتب في لغاتهم او يترجمون اليها مافي خزائن اللغتين اليونانية واللاتينية . فأخذت هذه تدرج في اتساعها وغناها شيئاً فشيئاً حتى بلغت ما بلغته بمد نهضة استمرت في سيرها الى الآن من غير ان تقف نحواً من اربعمائة سنة ونيف أي منذ اكتشفت اميركا الى اليوم ولا تزال حركة هذه النهضة على مثل ما كانت عليه بل هي اليوم على اسرع ما بلغته من السعة وأوسع ما بلغته من الاتساع قلت ان القوم أي علماءهم وأدباءهم كانوا يكتبون ويؤلفون في اللغة اللاتينية حتى القرن السادس عشر ثم منذ حينئذ صارت مؤلفاتهم وكتاباتهم في لغاتهم إلا ما قل منها فأخذت تلك اللغات تزداد توسعاً وارتقاء حتى بلغت ما بلغته الآن . وكانت تنظر في بدء نهضتها تلك الى العربية وتحسدها على غناها وجمالها فأصبحنا اليوم وقد انقلب بنا الحال فأصبح من كان حاسداً محسوداً ومن كان غنياً فقيراً وبالعكس

ولا بد لي من ان اشير الى ان النهضة الاوربية الاخيرة كان سبقتها نهضة قبليها وهي نهضة الأجيال المتوسطة وكان بدء هذه النهضة الأولى رجوع الملوك والامراء الصليبيين من الشرق ولا سيما من سوريا وفلسطين مغلولين مقهورين

والذي أحب الاشارة اليه تعليمياً هو ان الاوربيين منذ ايام الغزوات الصليبية الاولى وابتداء فشاهم انتبهوا لانفسهم فأروا ما هم فيه من الجهل والآنحطاط بالنسبة الى الممالك الاسلامية في الشام ومصر واخذوا في تلافي امرهم فبدأوا بإنشاء المدارس الكلية والجامعة ويرجع عهد بعض تلك المدارس في فرنسا وجرمانيا الى أواخر ايام الحروب الصليبية

وكان الذين يرجعون الى اوطانهم الغربية من الشرق يحملون معهم افكاراً جديدة ومبادئ جديدة وبالأجمال يحملون مبدأ نهضة فكرية اجتماعية دينية كانت سبباً في زعزعة ثقتهم بالحالة التي كانوا فيها وبالعالم والآداب الدينية والاجتماعية التي كانوا يرونها كالوحي المنزل لا يجوز لهم الخروج عنها او تعديلها بوجه من الوجوه . فلم يأت القرن السادس عشر حتى كانوا تشربوا افكار الشرقيين وعلوم الشرقيين اعني العرب في الشام ومصر وفي مستعمراتهم في اسبانيا وفي البلدان المقابلة لها من افريقيا — وتم لهم في بدء ذلك القرن أمران الأول غلبتهم على التفوق الشرقي العربي باستيلائهم على الاندلس كلها وابعاد العرب عنها لم يبق فيها منهم الا من اعتنق النصرانية . وهذا وان كان من الأهمية بمكان عظيم إلا ان الأمر الثاني وهو اكتشاف اميركا واكتشاف طريق رأس الرجا الصالح كان أهم من الغلبة على العرب في الاندلس وطردهم منها

سبب أهمية التغلب على الاندلس واكتشاف اميركا وطريق رأس الرجا الصالح الانقلاب كما لا يخفى ذلك والغلبة عزّ . الانقلاب يدعو الى الانحدال وقصر المطامع والرضوخ لزعجية العيش والرضا بالحاصل مهما كان خوفاً من الصيرورة الى ما هو أدنى وأدنى والغلبة تدعو الى عكس ذلك كله . ان طرد العرب من الاندلس كان بمثابة احساس لاوروبا بالقلب واما اكتشاف اميركا فكان لاوروبا غلباً ظاهراً فعلياً وقد استمر لها هذا الغلب مدى ثلاثمائة سنة كانت في اثنائها تزايد غنى وجاهاً . وكذلك اكتشاف طريق رأس الرجا الصالح فانه ادى الى سلسلة انتصارات على شعوب افريقيا وآسيا وغلبة على ممالك كان لها الغلب سياسة وتجارة وصناعة على ما سواها من الممالك . وكل هذا جعل نهضة اوروبا على نحو وقوة سنة بعد سنة وجيلاً بعد جيل الى الآن . وعلى عكس ذلك كان الحال في الشام ومصر والعراقين وشبه جزيرة العرب

قلت ما قلت لاذكر العارفين بالتاريخ ان اوروبا بدأت تستيقظ من جهلها على عقب الحروب الصليبية وأما نهضتها العظيمة فبدأت باكتشاف اميركا واكتشاف طريق رأس الرجا . واما مصر والشام والعراق فبدأ جودها ونومها منذ ابتدأت اوروبا تستيقظ وأخذت بالتراجع منذ بدأت اوروبا بالتقدم وقد ابتدأ تقدم اوروبا وتأخرنا نحن منذ اكتشاف اميركا أي من اربعمائة سنة ونيف

اللغات تابعة أبداً لاحوال المتكلمين بها فاذا تقدموا وسادوا تقدمت وسادت واذا تأخروا وذلوا تأخرت وذلّت . بدأت اللغات الاوروبية بالتقدم منذ ابتداء القرن الثالث عشر او ما قبله قليلاً فما بلغت اواخر القرن السادس عشر حتى كانت قد اصبحت

على مستوى لغتنا العربية في ابان نهضتها وعزها او تنكاد . ومنذ ذلك الحين مازالت اللغات الاوربية في تزايد من غنى وارتقاء والعربية في تزايد كذلك لكن من فقر وانحطاط الى اواسط القرن الماضي فان العربية استيقظت حينئذ باستيقاظ الدولة المصرية المحمدية العلوية واستيقاظ العشائر اللبنانية معها وساعدها في يقظتها هذه الارساليات الكاثوليكية والبروتستانية بما شادته هذه الارساليات من المدارس العالية وبمن علومهم فيها . من نخبة ابنائها وابناء السواحل السورية . وزاد في اتساع هذه النهضة ان اكتشفنا بالمهاجرة طريق اميركا من جديد وطريق رأس الرجا الصالح ايضاً فلم يبلغ القرن العشرين حتى استردت لغتنا العربية ما كانت خسرت في زمن انحطاطها واستأنفت فوق ذلك كما اعتقد شيئاً من التقدم الذي تقبعت فيه خطوات اللغات الاوروبية . وهأنح الآن نحاول ان تصل العربية في قرن الى ما وصلت اليه لغات اوربا في اربعة قرون على حين لا تزال اوربا سائدة ونحن مسودون وظافرة ونحن مظفرون (اي مظفور بنا) ومبتكرة ونحن مقلدون ومتبوعة ونحن تابعون وعالمة بما تصنع ونحن جاهلون وفوق ذلك هي مطلقة ونحن مقيدون . وذلك مما لا يكون بل لا بد لنا من الزمن الكافي لتبلغ لغتنا العربية في العلوم والفنون ما بلغته الانكليزية والفرنساوية . ولولا اني اعتقد ان الاستعداد الفطري فينا وفي لغتنا العربية اقوى اجمالاً من استعداد الغربيين ولغات الغربيين لقلت انه يستحيل علينا اللحاق بهم بعد ان سبقونا هذا السبق البين في اثناء المدة التي اشرفنا اليها الا اذا حدث من الحوادث ما اخرهم وقدمنا وفلاً من عزمهم وارهدف عزمنا . وكل ذلك مما ليس في الحسبان بل ليس في افق آمالنا ما يشير اليه

كيف نستطيع اللحاق بالغربيين

قلت ان اللغات الغربية لحقت لغتنا العربية في القرن السادس عشر ثم تركتها وراءها ومنذ ذلك الحين اخذت مسافة البعد تتزايد بين لغتنا ولغاتهم بما كان من استيقاظهم ونومنا وحركتهم وجودنا حتى جاءت الدولتان دولة محمد علي باشا في مصر ودولة حليفها الامير بشير الشهابي في لبنان . وعضد النهضة العلمية في ايامها وما بعدها الارسالية الاوروبية التبشيرية وان شئت فقل دعاة الكاثوليكية والبروتستانية ولكن هيات ما كان ولا يزال بين سرعه سيرهم وسيرنا وتقدمهم العلمي وتقدمنا . والامر لا يزال على ما كان عليه بل حركة سيرنا العلمي قد اخذت الآن بالتناقص عما كانت عليه في اول هذا القرن وبقيت حركة سيرهم على ما كانت عليه بل زادت فكيف نلحق بهم ! بل هل نستطيع ان نلحق بهم (عظمة وجاهاً) وكانوا وما زالوا اكثر منا عدداً واوسع تجارة واشد حولاً وطولاً

وزاد اخيراً أنهم سادة غالين واصبحنا تابعين مغلوبين

ماذا نجيب « نحن » عن هذا السؤال ؟

نحن — ومن نحن ؟ نحن السوريون ولا يبلغ عددنا الثلاث ملايين لانستطيع لا في الصناعة ولا في التجارة ولا في الغنى ولا في القوة واتساع السلطة ان نلحق فرنساويين بل نبقي « على الأرجح » كما صرنا تابعين لهم « ويجوز ان تندغم بهم ولا سيما النصارى اللبنانيون ». لكن لو كنا ألحقنا بالانكليز تلك الأمة السكسونية القوية ذات الخالب والاضراس الحديدية ما كنا ندرى الى ماذا مصيرنا . فانه يجوز ان نبقي تابعين لهم كما نتوقع ان نكون مع فرنساويين ويجوز — ولا سيما اذا نظرناهم او خالفناهم — ان ينسروا لحومنا بأسنانهم القوية ويطحنوا أعظامنا بأضراسهم الحديدية وتكون آخرتنا معهم كاخرة الاستراليين في استراليا او الهنود والاميركان في اميركا او نبقي عندهم كما بقي اهل جبعون . عند الاسرائيليين محتطي حطب ومستقي ماء لبث الرب الى آخر الدهر وإن لم نطق ذل الخدمة والعبودية تفرق على وجه كل الأرض كما تفرق من قبلنا افرايم ومنسى او كما تفرق يهوذا وبنيامين لكن على غير أمل بالعودة كما يأمل اولئك الآن

ماذا نجيب نحن ؟

ومن نحن ؟ نحن اهل العراق والموصل ولا يزيد عن المليونين الا قليلاً وصاروا الآن يحسبون ثلاثة ملايين لا نستطيع لا في عدة ولا في عدد وشدة ان نلحق الانكليزيين اسياذ الهنود والافغان والتبت والفرس في آسيا وكل الحاميين في افريقيا . غداً يملأون علينا بلادنا الخصبة بلاد بابل واشور مهد التمدن السامي ومركز الصناعة والتجارة الى عهد اليونان والرومان بل الى عهد العرب وابان عز الاسلام نعم غداً يملأون علينا بلادنا هذه هنوداً وملقيين وسياميين واماميين وربما زنجياً وهوتنتيين فاما ان نستسكين ونرضى كما يرضى المغلوب والفقير والمسكور الذليل او نرحل مع الشمس لا نعلم الى اين المصير

ماذا نجيب نحن ؟

ومن نحن ؟ نحن الذين نتكلم العربية لغة القرآن والحديث وأم لغة التوراة والمزامير ويبلغ عددنا نحواً من خمسين مليوناً واذا اضفنا اليها بني امنا العربية وبني ايننا ابراهيم أعني اليهود ابناء عمنا بل اخواننا في اللغة والنسب بلغ عددنا نحواً من ستين مليوناً ونيف نحن هؤلاء المتكلمين باللغة العربية لا نستطيع شيئاً الآن لا نتا متفرقون متشتتون لا صلة بيننا ولا جامعة الا جامعة اللغة العربية . ولو كان الكتائب مساماً لزاد جامعة الدين على جامعة اللغة ايضاً . ونعمت كانت الجامعة رابطاً بيننا لو لم يطعننا بعضهم طعنة كادت تقضي عليها

نحن هؤلاء على تفرقنا الجغرافي والسياسي الحاضر أصبحنا لافطرة لنا ولا قوة فينا . ولولا بقية أمل لنا في مصر لسكنت أقول أنه قضي علينا بالبقاء الى ازمة على ما كنا عليه أي بالتأخر عن الغربيين في العلم والصناعة وما اليهما من الغنى والقوة (وهما الغاية من العلم والصناعة) . واذا لم يتداول الأمر أهلنا لغتنا أيضاً فلم تنقل اليها علوم القوم وغمرات عقولهم واختباراتهم الواسعة زاد تأخرنا عنهم واتسعت دائرة البعد بيننا وبينهم اتساعاً يقضي على كل آمالنا في المستقبل

واراني وصلت الى ما قصدت له بالذات في هذه المقالة اعني تعريب الكتب العلمية والفنية وما الى هذه الطريقة التي ينبغي ان تتبع في ذلك . ولكن لا بد لي من الاستطراد الا أنني فانه يحاش على قلبي فلا استطيع ان اخطو خطوة قبل ان ادفعهم عن معدني المصابة بما يشبه الدوار البحري الشديد واليكم الاستطراد

كان لنا اي المتكلمين بالعربية جامعتان جامعة اللغة وجامعة الدين وهما جامعتان اساسيتان ومن أشد الجامعات لتكوين الأمة والمملكة ثم ربطتنا (أكثرنا) الجامعة الدينية بالعثمانيين الأتراك فتألفت من ذلك الممالك العثمانية في اوروبا وآسيا وشمال إفريقيا ولسوء الطالع تغلب العثمانيون على اقوام والحقوهم بما لكهم وهم لا يربطهم بالعثمانيين من الأتراك والعرب جامعة ما غير جامعة التغلب والقهر فكانوا سبباً في ضعف الدولة العثمانية وما زالوا اشواكاً ومناخس في جسمها يشورون عليها ويمالئون اعداءها حتى انفصلوا عنها أخيراً

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل كانوا علة لانفصال كثير من البلدان العربية عن العثمانية رغم الرابطة الدينية الشديدة التي كانت تربطهم بالعثمانيين الأتراك . وذلك لبعدهم عن مركز العصية العثمانية في آسيا الصغرى وبما كان حصل للدولة من الضعف والانحطاط بتوالي الثورات التي قام بها اولئك الاقوام من اليونان والبلغار والرومان والسرب اقوام ادبحوا في العثمانية ثم رابطة تربطهم بها الا رابطة التغلب والقهر . ثم قام اقوام افسدوا الجامعة الدينية التي كانت تربطهم بالأتراك العثمانيين وكان بها عزهم وعليها بنيت دعائم مجدهم فسقط بسقوطها بناء العثمانية الشاخ الى الحضيض وتفككت اوصالها واصبح المتكلمون بالعربية اشتاتاً بعد ان كانوا عصبه واحدة

وغاية ما اريد الوصول اليه وتمكينه في النفوس انه كان للمتكلمين بالعربية جامعتان جامعة من الدين والسياسة وتسمت مؤخراً بالجامعة العثمانية وجامعة من اللغة العربية وانفكت

الجامعة الاولى بفصل اولئك المنفصلين « من كانوا » ولم يبق لنا إلا الجامعة الثانية جامعة اللغة . فاذا لم نحصر عليها ونبذل غاية مجهودنا في احيائها ورفع علمها فوق كل علم بقي لنا فقل على العرب وعلى التضامن العربي السلام الى ان يأذن الله بانقلاب الطبائع والأحوال ولنعمل انفسنا بهذه الأمانى والآمال ورحم الله من قال :

أعلل النفس بالآمال ارقبها ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل



نهضة الشرق العربي

وموقفه ازاء المدينة الغربية

(قضية كلية) « لا بد لكل نهضة سياسية من أسباب تدعو اليها ووجيه يسندها تستبمع وجاهته وجاهة بقية الوجهاء وينتفع هو وهم منها كل من بحسب وجاهته ثم لا بد من مال ينفق على مروجيها والاخذين بنصرتها وتعميمها الى ان تبلغ غايتها » اه
نفهم نهضة الشرق العربي النهضة التي نراها امامنا الآن ونكاد نلمسها بأيدينا وهي نهضة سياسية تطلب الاستقلال السياسي والتخلص من جور أوروبا الاقتصادي والجنسي . ونعني بالجهور الجنسي ما ينظره جنس غالب الى جنس مغلوب وسيد الى مسود وقد يعني عن كل ذلك أن تقول كما ينظر الان غربي الى شرقي أو أجنبي ولا سيما انكليزي وفرنساوي الى وطني native في العراق وسوريا وحتى في نفس مصر زهرة الشرق العربي وروح النهضة الحالية وقلها النابض

ولا بد لي قبل ان ابدأ كلامي عن هذه النهضة من مقدمة ما يأتي وهو :

أولاً — اني أصور ما اصوره عن هذه النهضة وفقاً لما في ذهني كما فهمته من مطالعاتي وشعرت به من اختباراتي التي كانت تتابع شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة منذ صرت اتأثر من المحيط الذي حولي وأؤثر فيه الى الآن . ولا شك ان ما كنت افهمه من مطالعاتي واختباراتي ومن المحيط حولي والحوادث التي تتعاقب فيه لم يبق على حالة واحدة بل كثيراً ما كان يتولاه النقص والابرام فتارة تنسخ معلوماتي اللاحقة معلوماتي السابقة وتارة تؤيدها وبالعكس .

وكثيراً ما كنت أعدل عن فهم مضى الى فهم استجد ثم أعود فأرجع عن المستجد المعدول اليه الى القديم المعدول عنه وبعبارة اخرى كثيراً ما تضاربت افكاري وتناقضت مفهوماتي واحكامي ونسخ سابقها لاحقها ولاحقها سابقها قبل ان استقرت على الشكل الذي اصوره الآن وهو شكل في ذهني لم ارجع فيه وانا اصوره الى تاريخ مكتوب يمكنني الرجوع اليه كحجة والاستشهاد به بل لا أضمن ان توافق افكاري ومفهوماتي الان في مقالاتي هذه كل او معظم افكاري ومفهوماتي وكتاباتي التي سبقت . ولذلك فمن ينتقدي في نفسه او في مجلة فلينتقد مفهوماتي نفسها لا زمان وقوعها ولا المكان الذي وقعت فيه فيما اذا أشارت الى زمان او مكان

ثانياً — لا يسعني الحال ان استوفي الكلام على هذه النهضة في الاقطار العربية الثلاثة أعني العراق والشام ومصر ولذلك اكتفي بما عرفه عنها اجمالاً في سوريا وربما أشرت اشارة اليها في العراق وفلسطين ثم بحسب ما في الامكان وما تحتمله صفحات الهلال أشرح حال النهضة في مصر

النهضة في سوريا

كان قبل هذه النهضة نهضة سابقة في ايام مدحت باشا ولكل اسبابها . أما اسباب النهضة ايام مدحت باشا فكانت لتفكيك عرى الاتحاد العثماني ومن أشهر ما نظم أثناءها قصيدة دح مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس وكان من ورائها انكلترا وأما مدحت باشا فكان فزاعة بين ايدي ساستها الذين كانوا يحاولون بها الوصول الى السودان والاستيلاء عليه أو على الاقل دق وتد جيحى فيه الى ان يحين لهم الوقت المناسب مع الأيام . لكن مع كل ما بذله مدحت باشا لاجل ترويحها لم تكن البلاد في استعداد لها ولم يكن أيضاً قد حصل التفاهم بين الانكليز والفرنساويين عليها فتلاشى أمرها بعزله ونقله الى ازمير ثم أخذ من هناك تحت الحفظ بهمة اشتراكه في مقتل المرحوم عبد العزيز وارسل الى مكانه المرحوم حمدي باشا والياً على الشام فلم يحتاج هذا الوزير الأمين لدولته الى اكثر من الأمر بحبس واحد من الشبان الذين بالغوا في اثارة الحواطر من غير ما تقيمة ولا تكتم فاشتعلت عليه الفضيحة الانكليزية في دمشق وتوسلت لاجراجه من السجن وارسلته بصورة مبعّد كما اظن الى القاهرة وهناك تعين على أثر وصوله ترجماناً لحيش الاحتلال . هذا خلاصة ما بقى في ذهني من امر المرحوم شاكر بك الخوري ولا أكفل ما أثرت فيه الايام من التكيفات الخفية ولكنها لم تكن شديدة ولا كثيرة كما أوكد للقارئ العزيز

على ان هذه النهضة لم تذهب بلا فائدة للدافعين اليها أعني انكلترا . وأثرها على ما اعتقد وكما فهمت من كل حوادثها وما تلاها حتى الآن هو ان الاستانة تساهلت فأذنت بارسال الحملة الانكليزية لتخايص غوردون باشا وكان هذا بذهابه الى السودان قد هيأ كل الوسائل لتمكين الدراويش من الاطاحة به في الخرطوم وقطع خط الرجعة عليه وعلى كل من كانوا هناك . وأغارت تلك الحملة على الخرطوم وكل السودان حتى وادي حلفا يغلي غلياً بالثورة التي انتهت اخيراً بالشكل الذي نعلمه بدق « وتد جيحى » أولاً ثم بتجريد الحملة الانكليزية المصرية بعد مضي سنين بقيادة الجنرال كتشنر باشا المشهور وتحت رايتين انكليزية ومصرية معاً على نفقة مصر كما اظن

هذه هي النهضة الأولى في سوريا وكانت نهضة سياسية عربية لكن ضد الأتراك . ثم كانت النهضة العربية قبل الحرب العظمى العالمية وقيل او اثناء الحرب البلقانية وهذه ايضاً كانت ضد الأتراك . ثم جاءت النهضة الحالية وهي نهضة عربية شرقية تطلب الاستقلال السياسي والاقتصادي والجنسي

أسباب النهضة الحالية .

من منا لا يتمنى ان تكون هذه النهضة قائمة على اساس وطيد يضمن لها البقاء بل من منا لا يتألم عن مجرد الفرض انها فوران وقتي لا يلبث ان يخبث ؟ لكن هل تسوغ لنا عواطفنا ان نكذب انفسنا ونعقل عما كان يمر بنا منذ ايام قلائل ؟ البارحة كنا - أي اهل سوريا وفلسطين - نستقبل الحلفاء باطلاق البارود وزلا غيظ النساء وقرع الاجراس في قبب الكنائس وآذان المؤذنين في الجوامع ونحمد الله ان خلاصنا من العثمانية وظلم الظلام القاسطين الغاشمين . بالأمس اسرع علينا في بيروت واكابر اعياننا بأوتوموبيلاتهم يتلقون الفاتحين الى عكا او صور وهولني ان اقول ماذا كان يقال في اجتماعات كثيرة عند وصول الجيش الفاتح وماذا سبق به الطراس ينقثونه في آذان الكثيرين من الأهالي أعني في آذان الأعيان والكبراء وفي آذان اهل النباهة وذوي اللسن من الأدباء والخطباء والكتاب الخ . وكيف كانت تتكيف الافكار وتقلب الخواطر بين اسبوع واسبوع واحياناً بين يوم وآخر والى الآن لم تستقر على شيء ثابت بعد بل لانعرف كل ما يريد تمام المعرفة نعم نشاهد نهضة سياسية - وان كانت تلبس احياناً لباس نهضة ادبية اجتماعية - فما سببها ؟ خابت آمالنا بدول الحلفاء وخيبة الآمال ليست بسيطة . رأينا انفسنا في امور كثيرة كنا نحب التخلص منها ولا نزال حيث كنا بل في سرنا قد نقول لنا رجعنا الى الوراء . كنا عصبة واحدة أولى قوة فاذا بنا جماعات متفرقة ضعيفة . كنا اولاً ولاية واحدة او ولايتين فاذا بنا دول سبع . يا لمرارة ما شعرنا ونشعر به ! وأمرنا نفساً للتجار واهل الصناعة والزراعة بل اصبح يشعر بالمرارة حتى العملة ومتعاطو الاسباب التافهة ودع عنك الأدباء والكتاب فانهم بدأوا يشعرون ببوار حرقهم الشريفة . لكن الأولى بنا ان لا نحر كمهم فانهم فيما اعتقد ابعد الناس عن الاعتراف بمرارة النفس التي عم الشعور بها او كاد يتم كما انهم ابعدنا عن الاعتراف بخيبة آمالنا وقد خابت . ومعنى كل ما قلته قد يفهم منه ان نهضتنا العربية الشرقية الحالية اشبه بفوران وقتي ان لم تكن فوراناً ولكني لا اقول ذلك لأنني يؤمني حتى مجرد خطور هذا الخطر في بالي دعوني اذن اقول ان نهضتنا هذه هي نهضة حقيقية . نعم وقد بدأت تكون كذلك

بأذنه تعالى ولا أقول ذلك مجرد رياء ارضاء لمواطني وعواطف مواطني بل هناك ما يسوغ لي قولي هذا ويصحح حكمي وهو ان شدة مرارة انفسنا نهت انفسنا لدرجة من الشدة لا يزول أثرها بسهولة فأصبح يجوز لنا ان نعتمد على تكيفات الوجود التي قد تأتينا بها بحقق آماتنا من حيث لا نحسب . على اني مع الأسف أقول اني لا أرى في سوريا وجهاً تستبج وجاهته ما سواها من الوجاهات ويقرر له بقية الوجاهات برياًته ثم هو يطمع بالارتفاع من هذه النهضة وعنده من المال ما ينفق عليها الى ان تستحكم في النفوس وتبلغ درجة لا يستطيع قاعها منها ولا تحويل الأفكار عنها . لو كنت أرى مثل هذه الوجاهة ما توقفت ولا ترددت في حكمي عن اصالة هذه النهضة وثباتها الى ان يبلغ اهلها ما يريدون . نعم ليس امامي الآن ما افزع اليه فأؤمل من ثم لا جله باستمرارها وازدياد عدد الناهضين بها وشدة تضامنهم أيضاً الى شدة مرارة نفوسنا بما كان من خيبة آمالنا وانكشاف مقاصد الخلفاء بعض الانكشاف لنا ولا أقول كل الانكشاف فاني كنت اخاف ولا ازال اخاف من سذاجتنا التي تصدق كل ما تسمع من خوالب العبارات وتخدع بها

يكفي ما ذكرته عن سوريا ولبنان وترك الأمر في العراق وفلسطين وشرق الأردن الى عارف بأحوال هذه البلدان العربية من بنينا فان الابن لا يتهم كما يتهم غيره وغاية ما اقله أو يستطيع اقله اني اخاف على هذه البلدان العربية ان تصبح ملعباً للسياسة الغربية وهنا الخوف كل الخوف فاني ارى من وراء ستار السياسة اللاعبة على لوحة فلسطين وأرض الفراتين الى شطوط البحر الاسود شمالاً وبحر قزوين شمالاً شرقاً قوماً سحرة بل اسحر السحرة السياسيين الذين يستطيعون بسحرهم ان يفرقوا بين المرء وزوجه وبين الأم وبنيها النهضة في وادي النيل

ان اول نهضة عربية شرقية حسب الظاهر كانت نهضة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الكبير وما اتصل بأذيالها من الحركة العراقية ولكنها كانت لتفكيك عرى الوحدة العثمانية وقد رتب معظم فصولها السياسة الانكليزية الماهرون واليك البيان :

لا آخذ الفارء الآن الى ايام نابوليون بونابرت القائد العظيم وموقعة أبي قير ولا الى ايام محمد علي باشا وما كان في ايامه الاولى الى ان قضى على المماليك واصبح والي مصر لا ينازع منازع فان السياسيين الانكليزيين والفرنساويين كانوا حينئذ بل بقيتا الى ما بعد الحملة المصرية الابراهيمية بل الى سنة سبعين على طرفي نقيض إلا في فترة قصيرة تغلب فيها دهاء بالمرستون على نابوليون الثالث حتى استجره الى محاربة الروس سنة ١٨٥٦

بعد سنة السبعين بدأت السياسة الانكليزية تتقرب من السياسة الفرنسية وكأما الفرنسيون انتهوا بعد اندحارهم امام الالمان الى ان السياسة النابوليونية القائمة على معاندة انكلترا ومزااحة فوذها في مصر سياسة عقيمة فانفقت السياسة على الأمر المشترك بينهما وهو تفكيك عرى الاتحاد العثماني وان تمنع كل منهما بحمتها وتعدلا عن المزااحة بينهما ورأت الدولتان في المرحوم اسماعيل باشا الرجل القويم الجسور الطموح المفتوح اليد بل بالحري المبذر الوسيلة العظمى لهذه الغاية فأعانتاه على طموحه فقال في سنة ١٨٦٦ خطأ شريفاً مؤذناً بالارث العريق في عائلته . وفي السنة التي تلتها نال لقب خديوي وهو أرفع رتب وزراء الدولة

ولم يقف اندفاعه عند هذا الحد فزار الاستانة سنة ١٨٧٣ وقوبل فيها بأعظم الترحاب ونال من الثنات الحضرة الشاهانية المرحوم عبد العزيز مالم ينله احد قبله من اهل بيته . ثم لم يلبث ان عاد الى مصر حتى جاءه الفرمان الشاهاني يخوله كل الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية وهي حقوق الوراثة لا أول ابنائهم والاستقلال بالأحكام الادارية واقامة المعاهدات مع الدول الاجنبية واستقراض القروض الخ . . .

ويظهر من مطالعة هذا الفرمان ان الخديوية المصرية اصبحت به مستقلة فعلا كاستقلال اية دولة وضعت يدك عليها من دول اوربا حاشا الدول الست العظام . نعم اصبحت بالنسبة الى العثمانية الضعيفة مستقلة تمام الاستقلال وانفكت عروة ارتباطها بالاستانة الى الدرجة التي كان يريدتها القوم

بدأ المرحوم اسماعيل باشا بعد هذا الفرمان بالاسراف في نفقاته وبلاستقراض لها ولمشروعاته التي كان كثير منها خيرا للبلاد ولظهور نخة عليها من لمحات أبهة المدنية الاوروبية كما ان منها ما كان لاظهار أبهة الخديوية وعزة الملك حتى اذا اكمل دوره في التمثيل الذي اراده القوم وكانت الحرب الروسية العثمانية قد انتهت وامضيت معاهدة برلين التي اعطيت فيها الهرسك والبشناق لاوستريا وقبرص لانكلترا اولاً ووقع الاتفاق السري بين فرنسا وانكلترا على ان تحتل الاولى تونس والثانية مصر وفقاً لبروجرام تقاليدهما القديم

لما تم كل ذلك وجاء الوقت لان تستلم انكلترا حصتها ولم كانت تعلم ان دون استلامها واسماعيل العظيم على سرير الخديوية خرق القناد في الليلة الظلماء اقبل المرحوم اسماعيل باشا ونصب مكانه ابنه المرحوم المغفور له محمد توفيق باشا

نعم نزل اسماعيل العظيم عن سريره بمصادقة الاستانة التي كان انتهز عليها وظن بأنه فاز بما نهض لاجله والحقيقة ان الفوز كان لمن كانوا يدفعونه الى ما وافق هوى في نفسه

وظاهره مجد لمصر واستقلال له ولها عن تسلط الاسنانه وتدخلها في شؤون بلاد النيل المبارك تدخلها يعوقها عن السير في معارج الفلاح او يؤخرها الى ازمة من بلوغ الجد الخاليق بها

النهضة العراقية

احتلت فرنسا بلاد تونس ووجدت المسوغ لاحتلالها في نأديب قبائل الحميز التي كانت تعيث فساداً كما ادعي على حدود الاملاك الفرنسية وبقي على انكساراً وفقاً لتفاهمها مع فرنسا ان تجدد مسوغاً شرعياً ظاهراً لاحتلال القطر المصري فظهرت الحركة العراقية وكان ظاهرها لازالة الاستبداد العسكري التركي بأبناء مصر واعطاهم حقوقهم الحقيقية بهم بحيث يسرون هم والأترك والشراكسة ومن اليهم على مستوى واحد وفي الوقت نفسه لازالة الامتيازات الاجنبية والتخلص من استبداد ابناء الرعويات الاوربية التي كانت قد بلغت في فظاعتها الى ما لا يطاق

ماكان أحلى ظاهر تلك النهضة وما اخلجها للب ولذلك نالت عطف منظم الأهلين على اختلاف طبقاتهم في مدة اقصر من يوم المسرة ولقاء الأصحاب ولكن ياللاسف فان الذين خدعوا المرحوم اسماعيل باشا الكبير لا يمتنع عليهم ان يخدعوا عراقي باشا وبضعة من الضباط رفاقه

فلما أتم هذا دوره وبلغ الغاية التي يريدون ان تقع ارسلوا بوارجهم وكان ماكان من احتلالهم القطر المصري كما احتل الفرنسيون القطر التونسي ولستكنهم لم يقفوا عند هذا الحد لأن من بروغرائهم احتلال السودان ايضاً بل احتلال هذا القطر كان ولا يزال عندهم أهم من احتلال مصر . بقي عليهم إذن ان يدبروا الوسائل لاحتلال ذاك القطر كما دبروها لاحتلال الاسكندرية والقاهرة ولا بد قبل الاحتلال من التفاهم بينهم وبين الفرنسيين لأن عين أولئك كانت متوجهة الى مراكش كتوجه عين هؤلاء الى السودان

ومن الدهاء العجيب بل قل من حسن السياسة التي يجب على الشرقي العربي أو التركي أن يتعلم منها او يفطن لها هو ان المحتلين استعانوا بالاسنانه على خلع عراقي كما استعانوا بها على خلع المرحوم اسماعيل باشا وظهره أي عراقي اخيراً بمظهر عاص على خديويه وخليفته العظيم عبد الحميد غفر الله لهم اجمعين ولنا معهم

النهضة الكاملية

نهضة المرحوم مصطفى كامل كانت وسطاً بين النهضة العرابية مسببة عنها وبين نهضتنا هنا الحالية المباركة وسبباً لها . والفرق بين ماتقدمتها وبينها ان النهضة الاولى التي كان قطبها اسماعيل والثانية التي كان قطبها عرابي كانتا لفلک عری الاتحاد العثماني ومصة من مصات عقد رابط ذلك الاتحاد وكان العاملون فيها من وراء الستار هم الانكليز والفرنساويون بالدرجة الأولى ومن سوائهم بالدرجة الثانية وأما هذه فالعاملون فيها كانوا وما زالوا من الوطنيين

انقضت معركة التل الكبير وأبعد المرحوم عرابي باشا الى جزيرة سيلان وأبعد غيره كثيرون الى منافع غير عا راسلتم زمام الأمر والنهي في الجيش المصري ضباط من الانكليز بدلاً من الأتراك والمثراکسة الغاشمين العاسفين كما كانوا يزعمون او يدعون . وبدأ اهل النهضة الوطنيون نعرانيون يترقعون ان يتحقق لهم ما كانوا يحلمون به ويسعون اليه ولعاهم كانوا بكان من السذاجة كما كنا حتى كانوا يصدقون ان القوم غايهم في رنة العود — في خدمة الحق والانسانية وانصاف الأقوام المظلوسين والاحسان الى الفقراء والمساكين — لاني رنة العود — الاستثمار بالسلطة واستنصاض المنافع واحتياز الأموال والظلم من شيم النفوس فان نجد ذا عفة فاعلة لا يظلم

مرّت على الضباط العرابيين بضعة سنين ينتظرون فيها ان يتحقق لهم ما كانوا يؤمنون به فاذا بهم بعد ان كانوا يأمرّون من يخبّتهم من الأتراك والمثراکسة ويأتمرون بأمر من فوقهم اصبحوا لا يجبرّون ان يأمرّوا وان نقرأ بسيطاً من الانكليز فكيف بالأومباشي أو السرجنت

ثم جلس عباس حلمي على اربعة الخديوية وكان شاباً قوي البنية قوي الارادة قوي التدبير المالي وهو يظن انه امير البلاد وله الأمر والنهي أو قل معظم الأمر والنهي فيها من اقصاها الى انصافها اسرع ما خابت آماله حين رأى يد كرومر من فوق يده يد يغطيها مخامل الحرير الناعمة ومن وراء تلك المخامل حسك الحديد القاسية تحز اللحم وتنفذ في العظام

تولد في نفس عباس كره شديد على نسبة شدة شكيمته ومرارة نفسه ومرارة النفس هذه كان ولا شك يشاركه فيها كل امراء اليت الخديوي وكل اعيان البلاد وكبراؤهم وكل أمراء العسكرية على نسبة ما تحيف من وجاهتهم ونفوذهم ومن لم تحيف اليد الحديدية من كرامته ونفوذ جابه في كل القطر المصري ؟ وأحسن المغفور له السلطان عبد الحميد

بما فعلته السياسة البريطانية والفرنساوية وما ترميان اليه في المستقبل فقد كلنا يديه
اليمنى الى الامبراطور غليوم واليسرى الى عباس حلمي باشا بما يشجعه على مناهضة السياسة
الانكليزية واظهار كرهه لها

وما ذاك بخلافاً بالنفوس عن الفنا ولكن صدم الشر بالشر أحزم
أشرنا في اول هذه المقالة الى ان المال والوجهة من اشد ما يسندان النهضة السياسية
والقائمين على نشرها وتمكينها في النفوس وقد تكفل بذلك البيت الحديوي واكابر اعيان
البلاد . فآين الرجال بل آين الرجل الذي ولده الايام في مصر لحل هذه الأمانة والقيام
بتلك النهضة التي هي أمنية كل أمة ومطمح كل شعب له ماض مجيد غلب على امره واستبد
به ؟ ولد لحل هذه الأمانة والقيام بنشرها والدعوة اليها المرحوم مصطفى كامل باشا
فلمجي ذكر مصطفى كامل وليخذ اسم هذا الوطني الكبير في قلب كل مصري وناض
عربي وشرقي وليكتب اسمه واسم كل من لبي دعوته من الادباء والعلماء والاعيان والصلحاء
والذين كانوا من ورائها يسندونها بلهم وجاههم من الامراء والوزراء - ليكتب اسم كل
واحد من هؤلاء في سجل مفاخر ابطال الامم

فذلحة

إن نهضة المرحوم اسماعيل باشا كانت مقدمة بنهضة العراية ولا يد لها اي للنهضة
العراية ولا يد لها اي للنهضة العراية فيها وهذه بدورها جاءت مترتبة على ما قبلها وعلة
للنهضة بعدها اعني النهضة الكاملة الخالدة

هذه النهضة الوطنية لكسر نير سيطرة الأجنبي ومحو سواد الذل والمهانة عن محيا كل
ابناء وادي النيل بعنت النفس المصرية من سباتها العميق وزعزت ذلك الاعتقاد الراسخ
كان في النفوس بانحطاط الهم وصغر النفوس وميزة الغربي بالفطرة على الشرقي وابتعث
معها نهضة ادبية تكاد مصر لم تشاهد مثلها منذ الايام الاولى الى الآن ويكفي الاشارة
الى الأدب الجهم العالمي الذي ظهر في خطب المرحوم مصطفى كامل باشا وفي مقالاته
السياسية ومؤلفاته العديدة وفي مقالات المؤيد وكتاباته وفي كتابة كل الجرائد والمجلات
المصرية الآن على اختلاف نزعاتها ومواضيعها والغايات التي ترمي اليها

وأدباء القطر المصري بل أدباء كل الاقطار العربية يعرفون نفاسة ما ظهر من
المؤلفات والتراجم في اثناء الثلاثين السنة الأخيرة وما اراني بعيداً عن الحقيقة فيما لو قلت
ان الآداب العربية في مصر عادت بهم - بالأدباء المصريين كلهم لا اخص فئة دون فئة

ولا مذهباً دون مذهب ولا قديمي الوطنية دون مستجديها - الى ما كانت عليه فما اعظم زهوها الى ما بعد القرن الثالث والسادس من الهجرة العربية

وانبعث ايضاً مع النهضة الادبية احترام كلي للنفس فمات ذلك الاعتقاد المحط بالنفس المذل لها والذي كان اكبر مسبب لخلوها واستكاتها الى الرق المعنوي الذي هو اشد ايلاماً وضرراً في البلاد من الرق السياسي فأصبح المصري لا يقر بالميزة للاجنبي كما كان (وكنا لا نزال في غير وادي النيل) قبلاً واصبح شائعاً عند خاصتهم وعامةهم ودينياً مصداقاً ان طيبينا ينقص عن طيبهم ولا يجوز ان ينقص وصيدلينا لا ينبغي ولا يجوز ان ينقص عن صيدليهم وكذلك كاتبنا وأديبنا وعالمنا ومعلمنا وصانعنا وتاجرنا الخ . وبكلمة اخرى استفان فيهم احترام النفس واعتقاد الكفاءة بالذات - وكانتشعر النفس كذلك تكون كل هذا مما يسوغ لي الحكم ان النهضة المصرية الوطنية الحالية اصبحت نهضة متمكنة في النفس يصعب اطفاء جذوتها المقدسة من نفوس القائمين بها مهما قاومهم المقاومون وسيبذل الغرب ودول الغرب كل ما في وسعهم لمقاومة روح هذه النهضة ولا سيما اهل السياسة وملوك الأموال الذين فاق استبدادهم بالانسانية كل استبداد سبق للكهان والملوك والأمراء والأعيان . وبفوز النهضة المصرية نهض الشرق عن آخره كثيراً او قليلاً كل قطر على حسب استعداده »

وفي نفمي تفاصيل كثيرة في شأن ما يدعم هذه النهضة من الوسائل ما لا يستطيع بيانه الا ن وربما الى اجل غير مسمى ولا اظن تسعني فيه صفحات الهلال العزيزة فالمعذرة من القراء الافاضل والسلام

المرأة الشرقية

١ — ماذا يحسن ان تستبقي من اخلاقها التقليدية

٢ — ماذا يحسن ان تقتبس من شقيقتها الغربية

(اولاً) ما هي المرأة الشرقية ؟ اهي البدوية في بركة سوريا وشول بغداد وتهائم الحجاز ونجد واليمن وصحاريها أم هي الحضرية في العراقين ومصر والشام وشمالى افريقيا ؟ ماذا نعرف عن المرأة البدوية ؟ انا لا نعرف عنها بالمعاشرة والمعاملة الا ما نعرفه عن المرأة الغربية أي معرفة سطحية مذكور عاينها كثير من بودة الخيال والتوهم إذن نحن نريد المرأة الحضرية . وهنا أسأل أي انواع المرأة الحضرية نريد ؟ احضرية العراقيين ام حضرية مصر وشمالى افريقيا ام حضرية سورية من حدود مصر جنوباً الى الاناضول شمالاً ؟ اي هذه نعني ؟ بل عند التحقيق أي هذه تتصور لها صورة في ذهني وأنا اكتب ما اكتب ؟

لا استحياء في الحق . ان ما اعرفه عن المرأة في شمالى افريقيا ومصر والعراقيين ولا اذكر السودان والجزيرة العربية المعروفة بين البحر الاحمر غرباً وبحري عمان وفارس شرقاً ، ان ما اعرفه عنها يكاد يكون اقل مما اعرفه عن المرأة الغربية التي اتصورها اعني الانكليزية والاميركانية في عقر دارها في انكلترا والولايات المتحدة . بل المرأة التي في ذهني هي المرأة الشامية ولكن اي جهة من جهات بلاد الشام ؟ انا اعترف لعموم القراء ان الصورة التي في ذهني عن المرأة الشامية ايضاً إنما هي صورة المرأة القروية المسيحية في شمالى سورية اعني في صافيتا والحصن بالدرجة الاولى وفي طرابلس وبعض الكورة بالدرجة الثانية ثم هناك صورة لها بالدرجة الثالثة في بعض قرى لبنان المسيحية الدرزية . ويرجع عهد الصورة التي هي بالدرجة الاولى الى ما قبل خمسين سنة من الآن والتي في الدرجة الثانية والثالثة الى عهد اقرب شيئاً الى زماننا الحاضر من عهد الصورة التي هي بالدرجة الاولى

ماذا تعرف المرأة الشرقية عن نفسها قبل سبعين سنة بل قبل خمسين سنة من الآن ؟ وهنا أسأل - ومن نريد بالمرأة الشرقية ؟ لا شك أنا لا نريد بها عند التحقيق اولئك السكابات المتفردات اللواتي اصبحن نفاخر بهن الغربيات في اوربا وأميركا وعددهن

لا يتجاوز أصابع اليدين أو مضاعف هذا العدد في الكثير. ولكن المرأة الشرقية ليست هؤلاء ولا هي أيضاً أو تلك اللاوائى تهذب في مدارس الارسلالات الغربية فان هؤلاء النجوم اللامعة بين النساء الساميات قد لا يتجاوز عددهن بـ ٣٠ من مجموع نساثن. وهنا لا بد لي من التصريح ان هاته النجوم أو اللائى لسن المرأة الشرقية وفي الوقت نفسه لسن المرأة الغربية وبعبارة اخرى لا يعرفن المرأة الغربية الحقيقية ولا يعرفن ايضاً المرأة الشرقية اعني العدد الاعظم منها الذي يجمع اخلاقها وأميلها الشرقية الصرفة وان شئت فقل الفطرية فضلاً عن تصوراتها الخالصة التي لا تشوبها شائبة أو شوائب من التصورات المزعومة عن المرأة الغربية

ان أغلب أولئك المتعلمات في المدارس الاجنبية هن من المسيحيات وهؤلاء قل ما يعرفن عن اخواتهن المتحجبات بل قل ما يعرفه معظمهن عن اخواتهن المترفات وعن نوع المعيشة التي يعشنها داخل بيوتهن وأقل من هذا هو ما يعرفه عن اخواتهن من الطبقة المتوسطة القربيات من حالة العوز اللاوائى يعشن في بيوتهن على اعمالهن اليدوية ومساعدة رجالهن في صناعاتهم البيتية أو في البستان والحقل

مالنا ولما يعرفنه أو نعرفه عن المرأة الشرقية . ماذا يعرف هؤلاء الفاضلات بل ماذا نعرفه نحن اعني اكثر الرجال عن المرأة الغربية في عقر دارها ؟

ان جل ما نعرفه نحن وهن عنها ليس هو الا معرفة اجمالية سطحية وهو مقصور في الاكثر على ما نعرفه عن الامراة المرسلة الانكليزية أو الاميركانية أولاً وهذه الامراة هي بحسب الظاهر امراة مستبدة في خدم بيتها حتى وفي زوجها ان كانت متزوجة وفي تلميذاتها ان كانت معلمة او مديرة مدرسة ، او ما نعرفه عن الراهبة من راهبات احدى البعثات الفرنساوية أو الالمانية

(ثانياً) واذا عرفناها في غير هاتين الصورتين فالتما نعرفها في المدن الكبيرة امراة قنصل أو تاجر غني أو مدير شركة وربما رأيناها في الملاهي والمراقص أو في حانات الشراب وأشبه المتبهزات

هذه هي معرفتنا الغالبة المشاهدة بالمرأة الغربية وأفضل صورة لها هي صورة المرسلة المبشرة والمعلمة أو الراهبة الزاهدة والحادمة المتعبدية ولو انا نريد نساءنا ليكن مراسلات أي مبشرات بالدين وناقلات تمدن عنا الى من سوانا أو نريدها لارهبانية والاتقطاع لصوم وأنواع التعبد وخدمة الفقراء والمنقطعين لكانت المرأة الغربية التي نعرفها بيننا من افضل مثال وأعلى قدوة للمرأة الشرقية . أما ونحن نريد امراًتنا امراة تنهض

بنا وبأولادنا من حضيض الجول الذي نحاول الهرب منه الى أوج النباهة الذي نشوق للوصول اليه فيحسن بنا ان نعرف نحن تمام المعرفة وتعرف نساؤنا ايضاً المرأة الغربية التي نرغب في الاقتباس عنها كما هي في عقر دارها وفي اغلب طبقاتها ولا سيما الطبقة المتوسطة وعلى الخصوص تلك التي في القرى والمزارع وأحياء اهل الصون والعافية في المدن . نعم يحسن بنا ان نعرف المرأة الانكليزية المزرعانية النشيطة كما تصورها صورة البيت الانكليزي المزرعاني English Farmyard او المرأة الفرنسية المقتصدة في يديها وكرومها او الالمانية كما هي في المستعمرة الالمانية الفلسطينية لا كما هي مصورة في أذهان أغلب نساؤنا بل في اذهان اغلب كتابنا الافاضل

ان لم نعرف المرأة الشرقية نفسها كما كانت قبل ان تمكنت البعثات الغربية من تنشيطها حتى صارت كما هي الآن وان لم نعرف ايضاً حقيقة المرأة الغربية في عقر دارها - قبل ان نعرف كل ذلك حق المعرفة - لا ارى من فائدة اعظم من ان تترك على فطرتها . ولا ارى افضل من التعليم الوطني والتربية الوطنية كما يوحى بها الى نساؤنا الموهوبات بالفطرة حسن الذوق الشرقي وحسن التدبير المنزلي مع الصون ودماثة الاخلاق والحياء المستحب القريب من قلوبنا اللاصق بها من دون خوف ولا تهيب مذلة . وأرجح أن صورة المرأة الفاضلة كما صورها لنا لموئيل ملك مسا (هي مكة كما ارجح) في الفصل الحادي والثلاثين من سفر الامثال هي افضل صورة نضعها امام نساؤنا وبناتنا

فلنحرص على هذه الصورة ولتحفظها نساؤنا بل ورجالنا غيباً وليكتبنها رقاعاً من أجود الرقاع ويعلقنها في مجالسهن وفي صدور غرف مقاعدهن وليذكرن أن هذه الصورة هي رسم أم لموئيل الملكة الشرقية غرسها في ذهن ابنا وتعهدها بالسقيا وحسن التربية حتى نمت وتأصلت وأثمرت يوماً خير الثمرات التي عرفها التمدن السامي القديم والسلام



قرطاجه وقرطاجنه

قرأت ماجاء في هلال مايو سنة ١٩٢٥ وما جاء في مقتطف ذلك الشهر وتلك السنة أيضاً . أما ما جاء في المقتطف عن قرطاجنة فيوافق المشهور المتعارف . وعندى انه أولى بالتبول لان نص ياقوت ويوافقه نص ابى الفداء على ان قرطاجنة في افريقية على مقربة من تونس صريح لا يقبل الرد ولا التأويل

على انى انكر على المقتطف ما ل قوله « ان اسم قرطاجنة لم يبتدعه لها العرب بل وجدوه في جغرافية بطليموس فان اليونان سموها كرخيدون وسموها اللاتين قارشيدون والاسمان محرّفان من اسمها في الفينيقية وهو « كرت هدشت » اي الفرية الحديثة مقابلة لصور مدينة الفينيقيين القديمة » اه

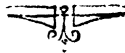
والذي ارجحه ان اسم كرخيدون اليوناني وقارشيدون اللاتيني محرّفان عن « قرية جونو » بامالة النون الى الضيم او بالفتح وجونو اسم اخت بوغماليون ملك صور وزوجة رئيس كهنتها . فان التقاليد تحفظ لهذه المرأة فضل وشرف بناء هذه المدينة التي تسمت باسمها . واسم قرطاجنة واضح في « قرية جونو » يرى حالا لاقل تأمل بخلاف « قرية هدشت » فان انتاج « قرطاجنة » منه بعيد جداً جداً يحتاج الى خرق العادة

اذا سلمنا بما ذكرناه اي انها تسمت باسم بانيتها وفقاً للتقاليد المتناقلة يكون الاسمان اليوناني واللاتيني كلاهما محرّفان عن الاسم الفينيقي والتحريف هذا اي تحريف كرخيدون وقارشيدون عن « قرية جونو » واضح . وهو اقرب الى طبيعة تبدلات حروف الهجاء من تحريفها عن قرية « هدشت »

على انى ارجح ايضاً ان اسم قرطاجنة بقي محفوظاً على السنة الالهين من البربر وتسلمه منهم العرب اخيراً . ولذلك نظائر فان اسم تدمر بقي نحواً من تسعمئة سنة مغموراً بالاسم اليوناني « بليريا » انى ان عاد فغلب على كرسي ملوك بغلبة ابناء جنس سكانها الاولين . ومثل بليريا نهر الارنط فانه لم يلبث ان استرد اسمه العاصي بعد الفتح الاسلامي بقليل « ولا شك ان ذلك كان لان الاسنة حفظت له اسمه الاصلي الذي بقي لكن مغموراً بالاسم الذي سمته به الامة الغالبة »

ومثل نهر « الارنط » نهر « الكيويروس » او « السيويروس » وهو المعروف اليوم باسم النهر الكبير عند مصبه على بضع ساعات من شمال شرقي طرابلس فانه لم يلبث ان

عاد الى اسمه الوطني الاول « راويل » وتفسيره عطية ايل وعليه فيكون الاسم اليوناني ترجمة الاسم الحثي او الارامي كما اعتقد
ربما كان اسم اورشليم اقرب الى ما نحن فيه . فان هذه المدينة خربها تيطس الروماني
وبقيت عقود السنين ينشق في اطلالها اليوم وتتضاعى بين انقاض جدرانها بنات آوى ثم
اعيد بناؤها تحت اسم ايلياء وبقيت عشرات عشرات السنين تسمى بهذا الاسم وجاء عليها
الفتح الاسلامي وهي باسم ايليا ولكن اسمها الاول كان لم يزل محفوظاً فلما لبثت ان استردته
بعد الفتح بقليل وذهب عنها اسم ايلياء بذهاب الدولة التي سميتها بهذا الاسم . وفوق كل
ذي علم عليم .



فصول الكتاب

١١	اللغة العربية ما أخذت وما أعطت	١١١
١٢	أهمية العربية في الممالك العثمانية	١٢٦
١٣	الحثيون	١٣٣
١٤	الدكتور غراهم	١٤٤
١٥	مواد كلية في النحو والاعراب	١٥٠
١٦	الدكتور صروف معلماً	١٥٦
١٧	أميركي وأميركاني	١٦٢
١٨	عود الى النسبة	١٦٦
١٩	ارتقاء اللغة العربية	١٧٣
٢٠	اللغة العربية واللغات الأوربية	١٩٤
٢١	نهضة الشرق العربي	٢٠٠
٢٢	المرأة الشرقية	٢٠٩
٢٣	قرطاجه وقرطاجنه	٢١٢
(١)	الاستاذ جبر ضومط - مقدمة -	
١	قوة العلم والعلماء	١
٢	ترتيب الفعل ومتعلقاته	٨
٣	الى ماذا نحن صائر ون وكيف	١١
٤	تتلا في أمرنا	٢٤
٥	انتقاد فتاة مصر	٣٤
٦	مهد الجنس السامي	٤٣
٧	أصل التبط في البراء	٦٥
٨	قيدار وعمالك حصور	٧٢
٩	نحن والدستور	٧٩
١٠	البلدان العربية وأهمية اللغة العربية فيها	١٠٢
١١	خاتم المارد وبساط الريح	



